الأخلاق المثلى

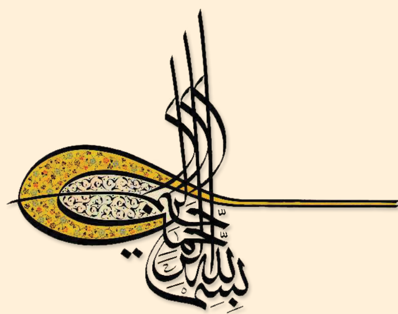
لأولياء الله

عثمان نوري طوبباش





دار الأرقم



إستانبول: ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م

إسطنبول: ١٤٣٧/ ٢٠١٦
اسم الكتاب باللغة التركية: 1- Hak Dostlarının Örnek Ahlakından
الترجمة للعربية: د.أنس طاب
مراجعةو تصحيح وتدقيق: الدكتور.آدم أقيـــن
تصميم وتنضيد: حسام يوسف
ISBN: ٩٧٨٩٩٤٤٨٣٢٦٢٥
طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم
Language: Arabic

العنوان:



▸ Address: Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Fax : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.net
Web site : www.islamicpublishing.net

سلسلة كتب: من حديقة الفؤاد

الأخلاق المثلى

لأولياء الله

عثمان نوري طوباش



المقدمـة

نحمد الله ﷻ الذي خلق العدد اللّانهائي من المخلوقات من العدم.الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم دون مقابل، وجعله من أشرف المخلوقات وأحسنها.

جعلنا نهتدي ونستقيم إلى طريق الخير والصواب، بإرساله الأنبياء وإنزاله الكتب السماوية المقدسة التي أنارت دروبنا المظلمة

لم يحرمنا من مشاهدة ومتابعة السلسلة التي لم تنقطع منذ عهد الأنبياء حتى يومنا هذا عن طريق علماء الدين والفقهاء وورثة الأنبياء والرسل.

والذي رزقنا نشوة الإيمان وطمأنينته على الرغم من عجزنا وضعفنا.

وصلِّ اللهم وسلِّم على سيدنا وأسعدِنا وأشرفِنا وسندنا وحبيبنا ورسولنا محمد المصطفى ﷺ الذي:

وَزَّع الرحمة والشفقة على العالم بأسره من مشرقه إلى مغربه بصفته التي وصفه بها الله ﷻ "**رحمة للعالمين**"

اتخذناه القدوة المثالية الفريدة التي لا مثيل لها في العالم كله بكونه أفضل معلم ومربٍّ ودليل، والذي نأمل أن يكون شفيعاً لنا يوم القيامة.



وصلِّ اللهم وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وذريته صلاة لا تنتهي وسلم عليه تسليماً كثيراً.

عزيزي القارئ:

إننا نقوم بين الحين والآخر بجمع المقالات والكلمات التي يتم نشرها في مجلة **ألتون أولوك** تحت سلسلة مواضيع بعنوان "**من رحاب الفؤاد**". وبعد تجميع تلك المقالات وتنقيحها يتم جمعها ضمن كتب ومجلدات نقدمها لقرَّائنا الأعزاء؛ آملين تقديم الفائدة الأكبر لهم.

وقد قمنا حتى الآن بنشر سلسلة من الكتب تحت العناوين التالية: "**سرُّ المحبة، النفس الأخير، قطرات السعادة، رحمة ليست كأي رحمة**" وبكتابنا هذا الذي أتْمَمْناه بفضل الله ولطفه نكون قد أضفنا حلقة جديدة لهذه السلسلة.

ومن الملاحظ بشكل جَلِي أننا بحاجة في هذه الأيام التي ازداد فيها الجوع المعنوي والتعطش الروحي للمعنويات والروحانيات التي لم تفارق الصالحين أبداً في الزمن الماضي. فعلينا أن نضحي بالدنيا وما فيها من ملذات وشهوات مقابل خدمة الدين وتطوير الجانب المعنوي في هذا الجيل.

ولا شك في أننا بحاجة ماسة في جميع المجالات وخاصة المجال المعنوي إلى الكتب والمؤلفات القيمة التي تُفعم القلوب والصدور بجمال الإسلام ورِقَتِه وظرافته، وتملؤها بحب العمل في سبيل الله.



لذا فمن الواجب علينا أن نحمد الله ﷻ على ما رزقنا من النعم كالمال والملك والوقت والروح، وأن نوظف تلك النعم في إرضائِه، وأن نجعل ذلك رأس مال لنا نستفيد منه في آخرتنا.

وفي إطار الواجبات التي تترتب علينا فإن أفضل عمل نستطيع القيام به هو أن نعيش الإسلام بشكل مثالي كما فهمه الصحابة الكرام ﷺ وعاشوه وكذلك أحباء الله. وبذلك فقط يمكن للمؤمن أن يزيِّن قلبه وهويته المؤمنة بالإسلام. ولكي نتمكن من فعل ذلك يجب علينا أن نتعرف على مزايا المؤمنين الصالحين الذين نتخذهم قدوة لنا، وندرس دستورهم ونهجهم في الحياة.

وفي هذا الإطار فقد حرصنا في هذه السلسلة القيمة "**الأخلاق المثلى لأولياء اللهِ**" أن نعكس بعض الجوانب المعبرة في حياة المؤمنين الصالحين، آملين بأن نفيد القرَّاء الأعزاء ويوفقنا الله ﷻ في تذكير المسلمين بما طلبه منهم الدين الإسلامي بخصوص أن يتميَّزوا باللطافة ورقة القلب ورهافة الإحساس.

وهذا الكتاب الذي بين أيديكم هو الجزء الأول من هذه السلسلة، أما المقالات والكلمات التي ستُطبع وتُنشر في الجزء الثاني منشورة في مجلة ألتون أولوك. وسنقدمها لكم قريباً بإذن الله ﷻ.

ويجب أن لا ننسى أن الإنسان هو إنسان بأخلاقه، فإن ذهبت أخلاقه لم يبقَ بينه وبين الحيوانات فرقٌ، لأن معايير ومقاييس الأخلاق وقواعدها لم توضع إلا من أجل الإنسان من بين جميع المخلوقات.



لذا فإن الشخص الذي يفقد النضوج الأخلاقي فعلى الرغم من أن شكله ومظهره الخارجي يدلُّ على أنه إنسان، فإنه في الحقيقة كائن أوضع من الكائنات الأخرى، كائنٌ فقد قيمته وكرامته وأضاع عمره مقابل لا شيء. لذا فإن السرَّ الذي يجعل الإنسان إنساناً، ويعرِّفه بجوهره الأصلي والحقيقي، ويجعله أشرف المخلوقات هو"**الخُلق الحسن**" الذي يعطي للأرواح جماليتها وسحرها عندما تعيش الإسلام بعشق ونشوة الإيمان.

وأصل الخلق الحسن في جميع المجالات هو"**الأدب**"، فالأدب هو معيار يجب أن يتقيد به الناس في حياتهم، فهو كالوردة التي تعطر النفوس والصدور برائحتها الزكية. فيجب على المؤمن أن يحس بهذه الرائحة في كل وقت من أوقاته فتتغلغل في نفسه وروحه. وذلك هو علامة اكتمال الإيمان.

كما قال سيدنا جلال الدين الرومي- الذي يعتبر بمثابة المحدث والمعبر عن أولياء الحق ﷻ-:«سأل عقلي قلبي: "ما هو الإيمان ؟!" فانحنى قلبي وهمس في أذن عقلي قائلاً: (هو عبارة عن الأدب)».

وديننا العظيم عبارة عن منظومة شعرية تحتوي على جماليات الأخلاق في كل حادثة ينعكس فيها على حياة الناس اليومية.

وكما ورد في الحديث الشريف عن سيدنا محمد ﷺ:

"**بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ حُسْنَ الأَخْلاَقِ**" (موطأ مالك، حسن الخُلق، 8).

لذا فيجب علينا أن نتخذ ورثة النبي ﷺ من علماء الدين



والفقهاء بأعمالهم الفاضلة وتصرفاتهم الخيِّرة، قدوةً لنا في حياتنا. وقد اعتبر بعض المتصوفين أن أصل الإيمان هو الخُلق الحسن والأدب، فورد عنهم أن أول درس في التصوف هو "لا تُزْعج"، وأن آخر درس هو"لا تنزعج".

وإن أولياء الحق ﷻ هم قدوة عظيمة ورفيعة لمن لم ينل شرف رؤية النبيِّ المصطفى ﷺ وأصحابه الكرام ﷺ وأرضاهم. فهم بنصائحهم وإرشاداتهم التي تحيي القلوب والصدور كغدير الروحانيات الذي يستمد ماءه من المنبع النَّبوي الرئيس.

لأن هؤلاء الأشخاص قد وصلوا إلى قمة الكمالية في السلوك والتعامل مع الناس على اعتبار أنهم قد قطعوا مسافات ومراحل معنوية في طريق التقوى والزهد. وهم الذين وصلوا إلى قمة لذة الإيمان وعمق المشاعر بعد أن نشروا علومهم بين قلوب الآلاف من الناس في أنحاء العالم. وهدفهم هو إيصال النفوس إلى مرتبة الأخلاق العليا، أي رفع مستواها إلى قمة الفضيلة والنضوج المعنوي، وتخليصها من التصرفات الفانية والسلبية التي تؤدي إلى تحكم النفوس بهم وسيطرتها عليهم. إنهم أولياء الحق الذين يتميزون بالعلم والمعرفة والكمال، ولن يُتركوا مَنْسيين في صفحات التاريخ بعد أن يتوفاهم الله ﷻ وتبلى أجسادهم وتفنى، بل سيستمرون بالعيش في قلوب محبِّيهم الذين سيتابعون الإسترشاد بهم إلى الطريق الصواب. حيث أن الله ﷻ قد أحبَّ هؤلاء الأشخاص



ووهب حبهم لعباده المحظوظين.

كما ورد في الآية الكريمة:

﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (مريم، ٩٦)

ذلك هو الحب... الحب الصادق والحي...

ككلام معنوي مؤثر يجذب النفوس كالمغناطيس.

ولو أردنا أن نقوم ببعض العمليات الحسابية، أليس من الواضح من عدد زائري مقام سيدنا الشيخ بهاء الدين النقشبند، ومقام سيدنا جلال الدين الرومي، ومقام يونس أمره، ومقام عزيز محمود هدائي، كم أنهم محبوبون. أليس هذا المثال كاف لكي نفهم هذا الموضوع ونتفكر فيه؟.

وإليكم هذه القصة التي تعبر عن هذه الحقيقة أيضاً:

كان الخليفة العباسي هارون الرشيد بقوته وعظمته مقيماً في أحد قصوره في الرَّقَّه. وجاء في يوم من الأيام سيدنا عبد الله بن المبارك، فخرج جميع أهل المدينة لاستقباله على أبوابها، وبقي هارون الرشيد شبه وحيد في هذه المدينة الكبيرة. وكانت جارية من جواري الخليفة تنظر من شرفة القصر، وعندما رأت ذلك المشهد سألت من حولها من الناس:

«ما هذا؟ ماذا يحدث هناك؟».

فأجابها الناس: «جاء عالم من خراسان يدعى عبد الله بن المبارك، وقد خرج جميع الناس لإستقباله لأخلاقه».



فقالت الجارية:«هذه هي السلطنة الحقيقية، ليست سلطنة هارون، لأن في سلطنة هارون لا يجتمع العمال والخدم إلا بوجود رجال الأمن، أي بالإجبار».

هذه هي فعلاً السلطنة الحقيقية، لأن السلطنة المادية ستفنى وتذهب في يوم من الأيام لا محالة. أما السلطنة المعنوية فستدوم بنفس العظمة حتى بعد الموت. والبشرية بأكملها بحاجة وبشكل دائم إلى هؤلاء السلاطين المعنويين، فيبحث عنهم جميع البشر دائما لكي يسيروا على نهجهم، وهذا هو السبب الذي يجعل الناس في اشتياق دائم للكلام العذب الذي يتدفق من ألسنة الصالحين مثل عبد القادر الجيلاني، وبهاء الدين النقشبند، ويونس أمره، ومولانا جلال الدين الرومي والكثيرون من أولياء الله ﷻ الذين أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر على مدى الأزمان والعصور.

ومن المؤكد في أن السر في هذه السلطنة العليا هو حديث أولياء الحق ﷻ العذب وجاذبيتهم المعنوية التي تجذب الروح، إضافة إلى الأوصاف الحميدة والحسنة التي تتصف بها هذه الشخصيات المباركة والعظيمة. بحيث يجدون الطمأنينة والسكينة والهدوء في محبة رسول الله ﷺ، ولا يتكلمون عن الهوى ونزوات النفوس.

وهم كالناي، قد أُفرغت نفوسهم الداخلية من كل شيء يبعدهم عن الله ﷻ، وبذلك فإن أحاديثهم هي كالأصداء التي تصدر عن الأنبياء والرسل، لأنهم قد تخلقوا بأخلاقهم، وأصبحت قلوبهم



كالمرآة النظيفة والمشعة التي تعكس نور الحق ﷻ، ونور الحقائق الدينية. وكما ورد في الحديث القدسي الشريف عن النبي ﷺ أنه قال:

"... فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها " (البخاري، الرقاق، ٣٨)

وفي رواية: **"ولسانه الذي ينطق به وقلبه الذي يعقل به"** (الهيثمي، ٢، ٢٤٨)

وعالمهم المعنوي هو عبارة عن تجلي جمال الحق ﷻ، وتجلي أسمائه الحسنى على حياتهم. حيث أنه قد تجلّى الاسماء الأكثر ذكراً في القرآن الكريم لله ﷻ "**الرحمن**" و"**الرحيم**" على قلوبهم التي امتلأت رحمة وشفقة تجاه جميع المخلوقات. ورحمة الخالق وعطفه على المخلوقات أصبح دستور حياتهم.

وكان منصور الحلاج يقول وهو يُرجم: «يا رب، اعف عن من يرجمني قبل أن تعفوعني»، وفي الحقيقة أن أولياء الله هؤلاء قد نالوا نصيباً من صفات الله ﷻ وهي صفة العفووالصفح، وصارت هذه الصفة من طبيعتهم الأساسية في حياتهم.

وجاء زائر لسيدنا حاتم الأصم، وصدر عنه صوت غير لائق بشكل لا إرادي، فلعب سيدنا حاتم الأصم دور الشخص قليل السمع كي لا يُخجل زائره ويُحرجه، وبقي طوال عمره يُذكر بلقب الأصم، لأنه قد مزج شخصيته بصفة الله ﷻ، وهي صفة ستر العيوب.

وإن مولانا جلال الدين الرومي -قدس سره- هو داعية حقيقية للإيمان، وهو طبيب نفسي وشريك الهموم لكل البشرية. وقد



حافظ كتابه "**المثنوي**" منذ سبعة قرون على صحته وبقي طازجاً حتى الآن، وهو كتاب مليء بالأسرار والحكم الإلهية. وقد تجلت أسماء الله الحسنى على حياة سيدنا جلال الدين الرومي -قدس سره- أيضاً، فأخذ نصيبه من المعاني العميقة التي تحتويها تلك الأسماء المباركة، كما يتبين لنا ذلك في هذه القصة:

دخل سيدنا جلال الدين الرومي -قدس سره- يوماً إلى حوض مليء بأشخاص مصابين بالبرص يستحمون فيه، فعجب الناس لأمره ولتصرفه هذا، ولكن الله ﷻ قد شفى هؤلاء الناس من البرص وعافاهم بواسطة أحد عباده الذين أحبهم وقربهم إليه. لأنه كان كمركز صحي يقصده الناس للنقاهة والمعالجة النفسية.

وقد فدى سيدنا بهاء الدين النقشبند منذ بلوغه حياته في سبيل خدمة الناس المرضى والمعاقين وخدمة الحيوانات المريضة والمشردة، وبقي ينظِّف الطرق التي يستخدمها الناس لمدة سبعة أعوام، وعاش حياة الخدم التي لا يُحسد عليها أحد، حيث عاش حياة العدم، ويعبر سيدنا بهاء الدين النقشبند عن ذلك في البيتين الشعريين التاليين:

العالم قمح وأنا تِبن

العالم جَيِّدٌ وأنا سَيِّىءٌ

وقد عبر على أنه وصل إلى قمة المعنويات في تلك الفترة التي عاش فيها كالخادم.

ويشكل سيدنا أبوحنيفة مثالاً واضحاً عن إحقاق الحق وإبطال الباطل مقابل حياته. حيث أنه فضَّل أن يُدكَّ في السجون ويعيش



الحياة الظلماء والعسيرة، على أن يكون من كبار القضاة لمدينة بغداد، لأنه لم يجتهد للخليفة آنذاك بالإجتهاد الذي طلبه منه ولم يَقْبَل منصب القضاء الذي وُجّهَ اليه.

ورضي سيدنا أحمد بن حنبل أن يُزجَّ في ظلمات السجن ولم يتخلَّ عن رأيه في موضوع النقاش الذي كان يُناقش في ذلك الوقت تحت عنوان "هل القرآن مخلوق أم لا".

وبالنتيجة فإن كل هذه الأمثلة التي تدل على حلاوة الإيمان وظرافته هي عبارة عن كمٍّ بسيط من عدد لا متناهي من قبيل هذه الأمثلة التي تعكِس الأخلاق المثالية التي اتصف بها عباد الله المؤمنون الذين أُعتقوا من حزن يوم الحشر ووَلَعه، وذلك بتقربهم من الله ﷻ وتقيدهم بأوامره.

وإن كنا نحب أولياء الله ﷻ وأحباءه، ونريد أن نُحشر معهم يوم القيامة، فيجب علينا أن نحاول أن نَتخلق بأخلاقهم الرفيعة، ونسعى بقدر استطاعتنا لنيل ذلك. حيث أن وسيلة السعادة الأبدية هو أن نزن أنفسنا بالنسبة لهم، وأن نعتبر أن أعمالهم الصالحة هي المقياس والمعيار المثالي الذي يجب أن نتخذه، وأن نسير على نهجهم محاولين أن نقتطف جزءا من قلوبهم وصدورهم المليئة بالروحانيات والأمور المعنوية التي تغذي النفوس والأرواح.

وهذه هي الحقائق التي حاولنا أن نتكلم عنها في هذا الكتاب المتواضع.

وباختصار... فإن المواضيع التي احتوتها المقالات والنصوص الموجودة في هذا الكتاب هي كالتالي:



إن النبي محمد ﷺ هو قمة في الأخلاق الحميدة، كاللطف والرحمة والأناقة بين البشر أجمعين. وكل الفضائل والصفات الحميدة موجودة ومكتنزة في شخصيته الفريدة التي لا مثيل لها، وعالمه الروحي كحديقة صغيرة ضمن جنة مليئة بالأزهار الناعمة والظريفة والنادرة، التي تفوح بروائح زكية مثل رائحة المسك.

وإن عباد الله الصالحين، ورثة النبي ﷺ هم بمثابة النسمة العذبة التي تهب من هذه الحديقة. وأهم واجب علينا في الحياة الدنيا أن نبحث عن الطريق المستقيم الذي يوصلنا إلى تلك الجنة. لذا فمن الضروري جداً أن نتعرف بقلبنا وبكافة جوارحنا على سيدنا محمد ﷺ كما فعل أولياء الله ﷻ. لأنه من المستحيل أن نتعرف عليه من خلال المعلومات السطحية التي تتناول سيرته ﷺ دون أن نركِّز على عالمه المعنوي المليء بالروحانيات.

وإن جميع الأخلاق والخصل الحميدة التي يتصف بها الناس في هذا العالم بأسره، إنما هي عبارة عن توزيع وتقسيم الأخلاق النبوية على بني البشر. لذا فإنه من المستحيل أن يستطيع شخص أن يعيش حياة العبودية لله ﷻ دون أن ينال نصيباً من طبيعة النبي ﷺ الروحانية ودون أن يحاول أن يتخلَّق بأخلاقه.

إن الحياة الدنيا هي مدرسة لتعليم الإيمان. وسبب وجودنا في هذه الدنيا هو أن نتعلم العلوم المعنوية والروحانية، وكل همنا أن نُكمل حياتنا ونصل إلى النضوج المعنوي وذلك بأن نختم تعليمنا بالشهادة التي سَتُرضي ربنا ﷻ.



وأول درس يجب أن نتعلمه في هذه المدرسة المعنوية هو التواضع، لكي نستحق أن نكون من العباد (عباد الرحمن) الذين تتجلى عليهم رحمة الله ﷻ. حيث أن عمل العبد لن يُقبل منه إن لم تكن نفسه تتحلى بهذه الصفة الحميدة. ولن يَغمر الله ﷻ عبده بالرحمة ولن يرفع من شأنه إلا إذا لبس ثوب التواضع.

ومن هذا المنطلق نستنتج أن أول شرط هو أن يلبس العبد ثوب التواضع، وأن يبتعد عن الأنانية، وينظف قلبه من الصفات الذميمة لكي يستحق أن يدخل من الباب الذي سيوصله إلى جوالصداقة الإلهية. لأن جميع النعم الإلهية المادية والمعنوية لا يُرزق بها العبد إلا برحمة الله ﷻ ولطفه. والأنانية عبارة عن مرض عضال خبيث ينتشر في جميع أنحاء الحياة المعنوية ويصيبها بالضعف والوهن.

ويتعرض العباد الذين يدرسون في هذه المدرسة المعنوية والروحانية - مدرسة الإيمان- لامتحان يُختبر فيه صبرهم على الأفكار التي يعرضها عليهم الجهلة، وكأنما يُقاس في هذا الإمتحان مدى قوة العباد وجلادتهم في موضوع التسليم بالله ﷻ والإيمان بوجوده. ويجتاز العباد المؤمنون والصالحون جميع الإمتحانات التي تتطلب منهم أن يقابلوا الشر بفعل الخير.

ومن ميزات العباد المؤمنين إيماناً كاملاً، أنهم يمثلون وجه الإسلام البشوش وذلك بتبسمهم دائماً حتى أثناء مواجهتهم المصاعب والمتاعب، بل ويدفنون همومهم وشكواهم في قلوبهم



ولا يبدوذلك على وجوههم، لأنهم يعرفون أن الطريق الذي يؤدي إلى الله ﷻ هو طريق فنِّ النسيان، نسيان الهموم والصعوبات، لأن ديننا من بابه لمحرابه هو دين الأخلاق والخصل الحميدة كالأدب والرقة في الإحساس، فإن كان الإنسان مؤمناً، فلا يليق به أن يكون جلفاً فظاً غليظ القلب في التعامل مع الناس.

وجميع الخصل والأخلاق التي يتخلق بها المؤمنون الكاملون بصدق وأمانة وبدون رياء وحب للمظاهر، إنما هي الأخلاق المستخلصة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وذلك ينعكس على أسلوبهم وطريقة تعاملهم وحتى على مشيهم وتبسمهم، أي على جميع حركاتهم.

وأهم شيء علينا أن نُخضعه لمقاييس القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في التصرفات البشرية ألا وهو التَّحدُّثُ والتكلمُ، أي التعامل الشفهي مع الناس. لأن التكلم هو كمرآة تبرق بلمعان وتعكس مستوى الشخص العقلي والقلبي، ووضعه الأخلاقي والإيماني. لذا فمن الضروري على المؤمن أن يعرف أسلوب التكلم الذي أوصى به القرآن الكريم لكي يستطيع أن يتحدث بلسان الرحمة، ويتجنب الوقوع في أخطاء تسبب الكوارث الإجتماعية بين الناس.

ومن جانب آخر.. فإن الرحمة والعطف هما من أوائل ثمار الإيمان التي يقطفها المؤمن المخلص والصادق. ولا يمكن لأحد أن ينال رحمة الله ﷻ إن كان قلبه خالياً من تلك الثمار. والنتيجة



الطبيعية للرحمة والعطف على العباد هي الكرم والإنفاق وإرضاءٌ لله ﷻ واقتداءٌ بأوامره. فعلى المؤمن أن يكون كهطول المطر في الكرم، وكالهواء العليل في الرحمة والشفقة، وعليه أن يبحث دائماً عن رضاءِ الله ﷻ بعطفه على من حوله، وبكونه مثالاً للطمأنينة والسكينة والرخاء.

أي أنه يجب على المؤمن أن يحسن إلى الناس ويكرمهم متقيداً بآداب الإنفاق. ويجب عليه أن ينفق دون أن يجرح مشاعر من أنفق عليه أو يُشعره بأنه قد فضَّل عليه، وأن ينفق في سبيل الله ﷻ بعيداً عن الرياء، ومتجنباً الإسراف والبخل. وإلا فسوف يخسر جميع ما أنفقه، ويكون عمله هباء منثوراً، لأنه قد أخل بقاعدة "**الإخلاص في الإنفاق**".

وقمة الإنفاق والكرم في إطار قاعدة الأدب وحسن الخلق هي "**الإيثار**". وهي أن يضحي الشخص بشيء وهو بحاجة له لأخيه المسلم، وهذه الميزة هي من صفات أولياء الله ﷻ والصحابة الكرام ﷺ.

والإيثار في جميع الأحوال هو أن يفكر الشخص بغيره قبل أن يفكر بنفسه بهدف إسعاد الناس ونشر الفرح والسرور بينهم.

إضافة إلى أن العمل الخيِّر الذي يعمله الشخص يكتسب قيمة عندما يقوم به في وقته وبدون تأخير. فكما أن الشيء الذي لا يتواجد عند اللزوم هو شيء لا قيمة له، فإن عدم تواجد المؤمن بجانب أخيه المسلم في الأوقات الصعبة، أو أن يهمل عملاً يجب عليه القيام به في سبيل الله ﷻ يدل على عدم صدق وإخلاص إيمانه، وذلك يُعتبر مسؤولية كبيرة تقع على عاتق جميع المؤمنين.



فلا يدري أحد ماذا يخبئ له المستقبل، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، لذا فمن الضروري أن **نسرع في عمل الخير**.

ومن جانب آخر.. فأنه توجد في ديننا العظيم قاعدة أساسية هي قاعدة "**الأخوة**"، التي لم تُعرف من قَبل في تاريخ البشرية. وذلك يعني أن الإسلام قد اعتبر أن المؤمنين أخوة، وأوصى بعضهم ببعض، واعتبر أن انشغال المؤمن بهموم أخيه هي مسؤولية من المسؤوليات التي سيُحاسب عليها يوم القيامة.

فعلى المؤمن أن يعيش حياته بالنشوة التي يستمدها من وجود إخوته بجانبه، وأن يتسع قلبه وفؤاده لهم، وأنه يحب أن يبقى بشكل دائم على تواصل معهم في إطار المحبة والإحترام. وأن يكون الصديق الوفي الذي يفرح لأفراحهم ويحزن لأحزانهم.

أي باختصار.. فإن مصطلح "**إحياء الأخوة**" هو عبارة عن أمانة على عاتق الإنسان، إن وفى بها بالشكل اللائق أوصلته إلى مرتبة الصالحين الذين نالوا رضا الله ﷻ والذين قال عنهم الرسول ﵇ "**إخواننا**". أما إذا لم يوفِّ بالأمانة وخانها بدوافعٍ شهوانية نفسية، ودوافع شيطانية، وفسح للإختصام والإبتعاد مجالاً للدخول بينه وبين إخوته، فإن ذلك يعتبر ذنباً كبيراً في نظر الإسلام. وإن استخفاف أواستصغار الأخ لأخيه المسلم هو بمثابة السم الذي يقضي على الروابط الإجتماعية والمعنوية بين الناس.

والمحبة هي أهم رأس مال لنا في الحياة الدنيا بكوننا عباداً لله ﷻ. وإن توجيه المحبة لمن يستحقها هي أكبر وسيلة للكسب



المعنوي، والعكس صحيح فإن توجيهها لمن لا يستحقها هو سبب من أسباب الكوارث الأبدية.

والمحبة التي لم تجد من يستحقها هي إسراف حزين للحياة الفانية. والمحبة المبنية على المصالح والمنافع الآنية والمصطنعة هي كالأزهار والورود التي تتفتح على الأرصفة في أطراف الطريق، والتي تنتظر قدرها المحتم بأن تُداس وتموت... وكم هي مسكينة تلك الجوهرة التي رميت في الطريق، وكم هو حزين ذلك المال الذي وقع في يد شخص لا يستحقه.

إن كل شيء في هذا الكون في توازن تام مع مضادِّه، وبما أن الكره هو مضاد للحب، فإن كره من لا يحبهم الله ﷻ هو مقياس طبيعي لمقدار حب من يحب الله ﷻ. فمن يحب الإيمان يكره الكفر، ومن يحب الثواب وفعل الخير فإنه يكره العقاب والشر. لذا فعلى المؤمن أن يحب ويكره في الله ﷻ، ويجب أن نتخذ قاعدة "**الحب والبغض في الله**" مقياساً لنا في حياتنا.

وحب شيء دون كره مضاده هو حب ناقص وقاصر، ولا يمتُّ لصدق الحب وقوته بصلة. ولكي نتخذ مصطلح "**الصدق والإخلاص في الحب والكره**" مَبْدءًا، يجب أن نحب الله ﷻ بكل ما نملك من قوة وسيطرة، فنفعل ما يرضيه ونتجنب ما يغضبه مهما كانت الأسباب والظروف، ونبدي ردود الفعل المناسبة عند الضرورة.



إن المؤمن الذي يعرف أن هذه الدنيا هي حياة الإِمتحان والإِختبار، والذي يستوعب أن الحياة ستفنى وتزول، فإنه لا يتزحزح عن الطريق الصواب، مخدوعٌ بالشهوات النفسية والمصالح الدنيوية مهما كانت الأسباب، ومهما كانت التكلفة. ولا يتخلى عن السعادة الأخروية الدائمة مقابل نعم الدنيا الآنية والفانية، ولا يسمح لقلبه أن ينجرف خلف ألعابها ولا يُخدع بسرابها. أي أنه لا يستبدل الربح الأُخروي بأي نعمة أوأي شهوة دنيوية. ويفضل الآخرة على الحياة الدنيا في جميع الظروف والشروط، ويحاول أن يحوِّل النعم الدنيوية لتكون رأس مال له من أجل السعادة الأبدية في الآخرة.

أي و باختصار.. فإن المؤمن يعيش في الدنيا حياة التقوى التي توصله إلى رضا الله ﷻ ومحبته.

عزيزي القارئ...

إن أولياء الله ﷻ قد عرضوا لنا نموذجاً مثالياً عن نمط حياة التقوى المليئة بالأسرار التي توصلنا إلى مرتبتهم، فعلينا أن نعيش حياتنا على ذلك النمط ونقتدي به بشكل تام وصحيح، لأنهم قدوتنا التي ستوصلنا إلى الطريق الصواب، وخاصة بأنهم يشكلون أمثلة ثمينة عن الأخلاق الحميدة. وطوبى لنا إن استطعنا أن نستفيد منهم الإِستفادة المطلوبة.



وعلى ضوء هذه الإِستفادة، فنأمل من الله ﷻ أن يرزقنا الفراسة والبصيرة الكافيتين لتمييز الصواب من الخطأ، والخير من الشر في نفوسنا. وأن يعلمنا ما لم نعلم، حتى نكون ممن رضي لهم أن يكونوا عباداً مخلصين له، وأن ننشر ما نتعلمه بين الناس آملين الإفادة والإستفادة في كل لحظة من حياتنا. وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة، ٢٨٢)

إن هذا الكتاب المتواضع، وكأي كتاب آخر، سيصل إلى هدفه بالإفادة والإستفادة بقدر النفوس التي سَتَحْيا بحيوية المواضيع والحقائق التي يتطرق إليها. ونرجومن الله ﷻ أن يحقق لنا ذلك.

اللهم ارزقنا نصيباً من علم أوليائك، وعلم الصحابة الكرام الذين سيكونون قدوة للمؤمنين كافة على الصراط المستقيم.

وهب لنا اللهم نسمات عذبة في نفوسنا تهبُّ من نفوسهم الطاهرة، والمتواضعة، والمليئة بالمعنويات والروحانيات. آمين.

عثمان نوري طوبّاش

١٤٣١/ ٢٠١٠

أُسكدار – اسطنبول



التعرف على النبيﷺ قلباً

إن الورد هو رمز لسيدنا محمد ﷺ، وإن أهم الدروس التي يجب علينا أن نتعلمها من مدرسة الحياة هي:

- التعرف على ملك وسلطان الورود، سيدنا محمد ﷺ.
- محاولة نيل نصيب من رائحة تلك الورود المباركة، والحصول على جزء من النسيج الروحاني والمعنوي الذي لا مثيل له.
- وأن نكون قطرة ندى على أوراق تلك الورود المقدسة.

إنَّ أي مؤمن يتأثر من وردة الورود محمد ﷺ، ويحس بذلك، ويحاول قدر استطاعته أن يبارك نفسه بالنسيج الروحاني المبارك، ويحاول أن يتشبه به، هوالمؤمن الذي يسير في الطريق الصواب الذي سيوصله إلى الشعور باللذة في حب محمد ﷺ.

التعرف على النبيﷺ قلباً

أَنَّ رجلاً من أهل اللهِ (درويش) وجَّه سُؤالاً لشخص صاحب معرفة في الله:«من الأكبر؟ سيدنا جُنيد البغدادي، أم أبا يزيد البِسْطامي؟».فأجابه العارف:«إننا لا نستطيع أن نحدد مستوى الفضيلة لدى هذين الوليين، إلا إذا كنّا ولياً اكبر منهما» [1]

وذلك يعني أنه ليس من الممكن إدراك مدى آفاق الفضيلة لدى أولياء الحق سبحانه وتعالى. وبناء على ذلك فإن كان الإدراك البشري عاجزاً عن تقدير فضائل أولياء الله عز وجل، فكيف يمكنه أن يقدر فضائل حبيبه محمد ﷺ ومعرفة قيمته وقدره؟.

فيا ترى، هل تستطيع كتب السيرة بأكملها، والتي كتبت بكلمات محدودة الإمكانيات عن التعبير عن الحقيقة المحمدية؟! ولوحاول جميع البشر أن يعبروا، فما هي النسبة التي سيستطيعون أن يعبروا بها عن هذه الحقيقة؟! مع أنه لا شك من إمتلاء قلوب هؤلاء الكُتّاب بمحبة سيدنا محمد ﷺ، ولا شك في أنه بمقدورهم جميعاً التعبير عن ذلك قلبياً.

١. أحمد أفلاكي، مناقب العارفين،جـ. ٢، ٢٢٥



الإستيعاب المعنوي اللانهائي

لقد أصبحت الآية الكريمة: ﴿**ألم نشرح لك صدرك**﴾ (الانشراح،١) مظهراً لسر سيدنا محمد ﷺ. ولم يكن عالم المعنويات يصل لمرحلة القناعة بالنشوة الإلهية الروحانية أبداً، مع انه ﷺ محاط من جميع جوانبه بأعلى قدر من المعنويات، وكان استيعاب قلبه لا نهائي بدون حدود.

ولهذا السبب لم تكن النشوة الإلهية والروحانية اللامتناهية التي كانت تميزه كافية لتسكين حبه وعشقه الإلهي، بل كان يتعطش أكثر فأكثر بشهية وشوق لا نهاية لهما، وكان كلما شرب ازداد عطشه، وكان يرغب أن يكون في كل لحظة قريباً من ربه ﷻ. وكان دائماً يرتقي من مرتبة إلى أخرى، وكلما ترقى إلى مرتبة كان يستغفر الله ﷻ على ما فعله في المرتبة السابقة، فكان دائماً في حالة الإستغفار والتضرع. وكما كان يقول ﷺ:

"**وفي الخبر سبحانك ما عرفناك حق معرفتك**" (المناوي، فيض القدير، جـ ٢، ٥٢٠)

وبهذا الشكل نضج مولانا جلال الدين الرومي-قدس سره- بنشوة الحكمة الروحانية والأسرار المعنوية من هذا النوع، وتخطى حدود العلم الظاهري، وصار ولياً مباركاً تنبع الحكمة من لسانه، وتتدفق أنهار العلم والمعرفة في عالمه الروحي والمعنوي، تلك



الأنهار التي تحمل عشق وحب النبي محمد ﷺ. إذا كان وليه هكذا ! فكيف يكون هو نفسه؟!

إن كُورجي خاتون بنت السلطان السلجوقي ومريدة مولانا جلال الدين الرومي أرسلت رسّام ونحّات القصر عينَ الدولة. وطلبت منه أن يذهب إلى سيدنا جلال الدين الرومي-قدس سره- سراً ويرسمه دون أن يجعله يحس بذلك. فذهب الرسام، وعندما دخل إلى مجلس سيدنا جلال الدين الرومي-قدس سره-، ارتبك وحدثه عن كل شيء، وكأن لسانه نطق لوحده. فتبسم سيدنا جلال الدين الرومي-قدس سره- وقال له بوجه بشوش:«افعل ما أمرت كما تشاء، إن استطعت أن تفعل»

بدأ الرسام بالرسم ولكنه استنتج بعد فترة زمنية قصيرة أن الصورة التي رسمها لا تمتّ للشخص الموجود أمامه بصلة. وكأنها صورة شخص آخر مختلف تماماً عن سيدنا جلال الدين الرومي. وعندما رأى الرسام ذلك شرع برسم صورة أخرى، ومحاولة بعد محاولة، استخدم الرسام عشرين ورقة لمحاولة رسمه ولكن بلا جدوى، وفي النهاية اقتنع بعجزه وأجبر نفسه على التوقف عن المحاولات. وقبّل يديّ سيدنا جلال الدين الرومي. حيث أن قدرة ذلك الرسام الفنية ومواهبه قد تلاشت بين هذه المحاولات التي باءت بالفشل [٢].

٢. وما تزال تلك اللوحات التي رسمها ذلك الرسام المشهور موجودة حتى الآن في متحف مولانا جلال الدين الرومي في مدينة قونيا



إن هذه الحادثة أيقظت قلب الرسام من سباته. وجعلته يغوص في تفكير عميق ضمن الحيرة والدهشة والخوف الذي أصابه وجعله يحس بأنه في رحلة طويلة في العالم الروحي والمعنوي. وفي النهاية بدأت مخيلة هذا الرسام تتعمق في التفكير برسول الله ﷺ، من النافذة التي فُتحت في قلبه، فتدفقت هذه الكلمات من بين شفتيه: «إذا كان ولي دينٍ هكذا فكيف يكون نبي هذا الدين؟!».

على قدر المُرسل

في الأثر أن خالد بن الوليد رضي الله عنه خرج في سرية فنزل بحي فقال سيد الحي: "صف لنا محمداً ﷺ" فقال: "أما إني أفصِّلُ فلا" فقال: "أجمِلْ" فقال: "الرسول على قَدْرِ المُرْسِلِ"

أي بمعنى أنه إذا كان المرسِل هو الله ﷻ، فتخيل أنت بنفسك شأن وعظمة المرسَل. إذاً نستنتج أنه ليس بوسع أحد من البشر أن يمتلك القدرة على فهم عظمة وشأن فخر جميع المخلوقات سيدنا محمد ﷺ. ونحن بإمكانياتنا المحدودة وبفهمنا القاصر لا نستطيع أن نقدره ونقيس عظمته. وبسبب عجز البشر في هذا المجال، فقد تولى الله سبحانه وتعالى بنفسه، تكريم وتبجيل نبيه الكريم محمداً ﷺ. حيث قال الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة:

﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ (الأحزاب، ٥٦)

حيث يعلن الله ﷻ بنفسه للبشرية بأجمعها، أن الرسول محمداً ﷺ هو بديع الخليقة، والفريد بين جميع أبناء البشر بصفاته الحميدة.

وإن دراسة النبي الكريم محمد ﷺ، وفهمه بهذا الإعتبار والتقدير هو أهم وأعلى درجةً من درجات العبودية لله ﷻ. وإن لم ندرسه ونفهمه ونعرفه كما يجب، ولم نمش بنور هديه وبدلالة خطاه، ولم نحاول أن نأخذ نصيباً من الإحساس المعنوي الذي كان يتميز به، فلن يكون إيماننا إيماناً كاملاً، ولن ندرك ونتفهم القرآن الكريم بشكل تام وكما يجب، ولن تكون عبوديتنا لله ﷻ عبودية تامة. وكما قال الله ﷻ في الآيات الكريمة:

﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾ (الشعراء، ١٩٣-١٩٥)

وإن حياة سيدنا محمد ﷺ النبوية التي تتألف من ثلاثة وعشرين عاماً، عبارة عن تفسير شامل للقرآن الكريم. وفهم حكم القرآن الكريم وأسراره لا يتم إلا بأخذ نصيب من قلب النبي محمد ﷺوحياته المعنوية.

أفضل طريقة للتعرف على النبي الكريم (من حيث الفيوضات)

إن التعرف على النبي الأكرم محمد ﷺ لا يتم بالقراءة عنه من السطور، فقط، بل بالقراءة من الصدور أيضاً. أي يجب أن نقرأ ما كتب عنه العلماء والعارفون وأهل التقوى الذين تخلقوا بالأخلاق النبوية المباركة. ولا يمكن القراءة عن سيدنا محمد ﷺ إلا بالمشاعر



الصادقة والنابعة من قلوب المؤمنين الحقيقيين أصحاب التقوى. وبقدر ما نقترب من سيدنا محمد ﷺ، بقدر ما نستطيع معرفته. وكما قال الله ﷻ في الآية الكريمة:

﴿**وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (البقرة، ٢٨٢)

لذا يجب أن نقرأ كتب السيرة النبوية الشريفة بتمعن وتفكر، ليس كما نقرأ كتاباً عابراً لممارسة هواية القراءة فقط. ومن يحاول التقيد بالنبي محمد ﷺ واتخاذ أقواله وأعماله دليلاً له في حياته، وذلك بمحاولة تشبيه معيشته بحياة النبي ﷺ، هو الذي يعرف السيرة النبوية بشكل جيد.

وإن أولياء الحق ﷻ هم أكثر من يعرف النبي الكريم محمداً ﷺ، لأنهم دمجوا حياتهم بحياة التقوى، وجعلوا من أنفسهم هلالاً لشمس الرحمة، وعاشوا حياتهم مليئة بالحب، حيث أن أولياء الحق هؤلاء يمشون بهدي نور النبي ﷺ. ويستظلون بظله بكامل الصدق والإخلاص.

إن النبي الكريم ﷺ وكما قال الله ﷻ في الآية الكريمة:

﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى**﴾ (النجم، ٣)

لم يكن يتكلم لِهَوىً وكما شاءت نفسه. بل كان مترجماً ومطبقاً وشارحاً ومبلغاً وممثلاً لما كان يوحى إليه.

وهكذا حال أولياء الحق ﷻ، الذين ضحوا بحياتهم في سبيل محبة رسول الله ﷺ، لا يتكلمون كما رغبت نفوسهم وأهواؤهم.



إن مثلهم كمثل الناي الذي أُفرِغ داخله، فقد أفرغوا حياتهم الداخلية من كل شيء يلهيهم ويبعدهم عن عبادة الله ﷻ، ومحبة رسوله الكريم محمد ﷺ. وجميع الأصوات العذبة والألحان الجميلة والصدى الجذاب، ما هو إلا جزء بسيط من أنفاس الأنبياء العطرة. وما قلوبهم إلا عبارة عن مرآة تعكس أنوار الحق والتوحيد. وكما قال النبي ﷺ في الحديث القدسي واصفاً أولياء الحق ﷻ:

"... فإذا أحببته كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به وبصره الذي يُبصرُ به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها " (صحيح البخاري، الرقاق، ٣٨)

وفي رواية: **"ولسانه الذي ينطق به وقلبه الذي يعقل به"** (الهيثمي، ٢، ٢٤٨)

إن سيدنا ونبينا محمداً ﷺ هو نور الوجود، وهو شمس أضاءت العالم كله، ووهبت نشوة السعادة الأبدية لكل شيء. وإن الأولياء ورثة الأنبياء هم بمثابة انعكاس هذه الشمس على بحر حياتهم التي عاشوها بالتقوى والزهد. وإن وجود هذا الإِنعكاس هو تابع لوجود الشمس ومتعلق به، فإن بقيت الشمس بقى، وإن زالت زال. لأن نور هذا الإنعكاس وجماله وعظمته ما هو إلا جزء بسيط آت من تلك الشمس المباركة.

كتب الشيخ السعدي في كتابه (كُلِستان)[3] أن الأولياء مدينون لرسول الله ﷺ في جميع المحاسن والجمال والفيوضات التي يتميزون بها، وأنهم قد استمدوا كل رأس مالهم المعنوي والروحاني

٣. ومعناه بالعربية: كتاب حديقة الورود وأصله بالفارسية (د. آدم أقين–المراجع)



من روحانيات ومعنويات الرسول الأكرم ﷺ. وحدثنا السعدي عن ذلك بأسلوب تمثيلي على الشكل التالي:

ذهب رجل إلى الحمام، وفي الحمام أعطاه أحد أصدقائه قطعة من الكلس المعطرة -يستخدم الكلس لتنظيف الشعر والبدن-. وإن رائحة قطعة الكلس تلك زكية وعطرة ونادرة جداً، لدرجة أنها تخاطب الروح بنعومة فائقة.

فسأل الرجل قطعة الكلس هذه: (يا أيها الكلس الصغير!! هل أنت مسك أم عنبر؟! لقد سُحرت برائحتك التي تجذب القلوب...).

فأجابته قطعة الكلس قائلة: -(إنني لست بمسك ولا عنبر، وما أنا إلا عبارة عن تراب عادي، ولكن هذا التراب كان موجوداً تحت شجيرة ورد صغيرة، وفي فجر كل يوم كان ذلك التراب يُعجن بقطرات الندى التي تنسل من الورود التي تتفتح في هذه الشجرة. وما هذه الرائحة التي تصدر عني الآن والتي تغمر الروح والنفس بنشوة لا مثيل لها، ما هي إلا رائحة تلك الورود...).

إن الورد هو رمز لسيدنا محمد ﷺ، وإن أهم الدروس التي يجب علينا أن نتعلمها من مدرسة الحياة هي:

- التعرف على ملك وسلطان تلك الورود.

- محاولة نيل نصيب من رائحة تلك الورود المباركة، والحصول على جزء من النسيج الروحاني والمعنوي الذي لا مثيل له.

- وأن نكون قطرة ندى على أوراق تلك الورود المقدسة.



وأهم عنصر أساسي يجب أن نحصل عليه في الطريق لتحقيق ذلك الهدف هو محبة الرسول ﷺ.

المحبة المحمدية

إننا نعرف سيدنا محمداً ﷺ ونقدّره بقدر ما يوجد في قلوبنا مشاعر من الحب تجاهه. وكما ورد في الحديث الشريف عن سيدنا محمد ﷺ أنه قال:

"المرء مع من أحب" (البخاري، الأدب، ٩٦)

يعني أن العمل الوحيد الذي يُؤَمِّن التآلف القلبي هو الحب. فالحب يربط القلوب ببعضها كالأسلاك التي تنقل التيار الكهربائي. ومثل ذلك كمثل القاعدة الفيزيائية (قاعدة الأواني المستطرقة). فبقدر ما تدوم المحبة بين القلوب، بقدر ما تتشابه الكيفيات والمزايا بين الأشخاص، وتميل المشاعر كالحب والكره، والحواس كالسمع والبصر إلى التشابه بين هؤلاء الأشخاص بعد فترة من الزمن.

ويبدأ الشخصان اللذان تربطهم علاقة حب صادقة وحقيقية، بتبادل الهدايا التي تعبر عن حبهم المشترك لبعضهم البعض. فيقدم أحدهم للآخر الورود والأزهار التي يحبها، ويقوم بفعل الأشياء التي تنال إعجابه. لأن المحب الصادق هو من يحب ما يحب محبوبه، ويكره ما لا يحب. ويكون محبوبه دائماً في مخيلته ومفكرته، وعلى لسانه.



لأنه كان يفعل كذلك...

لقد تعهد سيدنا عبد الله بن عمر ﵄ حياته كلها، منذ طفولته في سبيل اتباع سيدنا رسول الله ﷺ خطوة بخطوة. وكان في محاولة دائمة لفعل كل شيء يفعله، سواء عرف حكمة ذلك أم لم يعرف.

حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ قَالَ رَأَيْتُ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَتَحَرَّى أَمَاكِنَ مِنْ الطَّرِيقِ فَيُصَلِّي فِيهَا وَيُحَدِّثُ أَنَّ أَبَاهُ كَانَ يُصَلِّي فِيهَا وَأَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ يُصَلِّي فِي تِلْكَ الْأَمْكِنَةِ (البخاري، الصلاة، ٩٨)

وَأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى حَيْثُ الْمَسْجِدُ الصَّغِيرُ الَّذِي دُونَ الْمَسْجِدِ الَّذِي بِشَرَفِ الرَّوْحَاءِ وَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَعْلَمُ الْمَكَانَ الَّذِي كَانَ صَلَّى فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ ثَمَّ عَنْ يَمِينِكَ حِينَ تَقُومُ فِي الْمَسْجِدِ تُصَلِّي وَذَلِكَ الْمَسْجِدُ عَلَى حَافَةِ الطَّرِيقِ الْيُمْنَى وَأَنْتَ ذَاهِبٌ إِلَى مَكَّةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَسْجِدِ الْأَكْبَرِ رَمْيَةٌ بِحَجَرٍ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ (البخاري، الصلاة، ٩٨)

فعلى سبيل المثال: رأى عبدالله بن عُمر ﵁ سيدنا محمدا ﷺ مرة يشرب ماء من صنبور، فصار بين الحين والآخر يذهب إلى ذلك الصنبور ويشرب الماء. ورأى مرة سيدنا محمدا ﷺ يستظل تحت شجرة، فصار بين فترة وأخرى يذهب إلى تلك الشجرة ويستظل بظلها. وفي مرة من المرات رأى سيدنا محمدا ﷺ جالسا ومسندا ظهره المبارك على صخرة، فصار يذهب بين فينة وأخرى إلى تلك الصخرة ويجلس ساندا ظهره عليها.



وفي إحدى المرات وأثناء موسم الحج، جلس سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لفترة بسيطة على صخرة على سفح جبل الرحمة، وعندما سئل عن سبب ذلك، أجاب بالإجابة التالية:

«لقد جلس سيدنا محمد ﷺ بعد حجة الوداع لفترة بسيطة على هذه الصخرة».

وفي إحدى المرات، وبينما كان يسير مع قافلة للتجارة، أوقف القافلة في مكان وذهب إلى شجرة على مرتفع صغير، ثم عاد إلى القافلة. وعندما سئل عن سبب ذلك، أجاب:

«رأيت النبي ﷺ بينما كان يمر من هذه الطريق مرة، وقد ذهب إلى هذه الشجرة وعاد».

وعندما توفي هذا الصحابي الجليل العاشق الذي حاول أن يتبع النبي ﷺ كالظل، كانت حالته عبرة لمن يعتبر، حيث مرض فجأة في مكة، وحسب الروايات أنه قد سُمّم من قبل الحَجَّاج. وكان يعاني معاناة شديدة أثناء احتضاره لأنه كان قد هرم هرماً شديداً. فنُقل بوضعه الهرم هذا إلى خيمة. ولم يكن بِمقْدورهِ أن يتكلم أويحرك أطرافه، وكان يحاول أن يقول شيئاً ما لمن حوله من الناس، ولكنهم لم يفهموا ما كان يقصده. وبينما كانوا ينتظرون بيأس وحيرة، دخل شخص يعرف ابن عمر رضي الله عنهما عز المعرفة. فأخبروه مباشرة أنه يريد أن يقول شيئاً لكنهم لم يفهموا مقصده ومراده. فسألهم ذلك الشخص:

«ماذا فعلتم له قبل قليل؟».



فأجابوه: «لقد وضّأناه».

فسألهم: «وهل مسحتم ما وراء أذنه أثناء الوضوء؟».

فقالوا: «لا.. لقد نسينا فعل ذلك».

فقال ذلك الرجل:

«ألا تَعْرِفُونَه؟ ألم يحاول طوال حياته أن يفعل كل شيء فعله رسول الله ﷺ؟ ويبتعد عن كل شيء ابتعد عنه؟».

وبناء على ذلك، مسح من حوله من الناس ما وراء أذنه مباشرة، فتلاشى همُّ سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وارتاح وتبسم، وبعد ذلك سلّم روحه الطيبة المباركة في خشوع وراحة نفسية وطمأنينة.

هكذا كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم، الذين امتلأت قلوبهم بالعشق والمحبة المحمدية، وكانوا في محاولة دائمة لتطبيق الأوامر التي كان يذكرها سيدنا محمد ﷺ على لسانه، ليس ذلك فحسب، بل كانوا يحرصون أيضاً على الإهتمام بالإشارات والإيماءات التي كان يشير بها الرسول الأكرم محمد ﷺ.

فرؤيتهم له أثناء قيامه بعمل ما كان كافياً بالنسبة لهم لكي يتخذوا ذلك سنة لهم في حياتهم. ويحاولون تطبيق هذه السنة طوال حياتهم دون أن يأمرهم بذلك أحد.

عن الحسن عن أنس بن مالك قال:

«رأيت النبي يصلي الضحى ست ركعات فما تركتهن بعد قال الحسن وما تركتهن بعد» (الطبراني، أوساط، جـ٢، ٦٨/ ١٢٧٦)



حدثني طلحة بن نافع أنه سمع جابر بن عبدالله يقول:

«أخذ رسول الله ﷺ بيدي ذات يوم إلى منزله فأخرج إليه فلقاً من خبز فقال (ما من أدم؟) فقالوا لا إلا شيء من خل قال:

"فإن الخل نعم الأدم"

قال جابر: فما زلت أحب الخل منذ سمعتها من نبي الله ﷺ وقال طلحة: ما زلت أحب الخل منذ سمعتها من جابر» (مسلم، أشربة، ١٦٧-١٦٩)

فحتى الأذواق واللذات كانت تتغير بهذا الشكل عند الناس الذين امتلأت قلوبهم بمحبة النبي ﷺ.

والمثال الآخر المعبر عن هذه الحالة، هو المجتهد وعالم الحديث الكبير، الإمام النووي. فهو أيضاً ممن حاولوا أن يتبعوا الرسول ﷺ بدقة، لدرجة أنه منع نفسه طوال حياته من أكل البطيخ(الخِربز)، لأنه لم يكن يعرف طريقة أكل الرسول ﷺ لهذه الفاكهة. فكان يخاف أن يتصرف تصرفاً مخالفاً لعادات الرسول الكريم.

وهنالك أحد أولياء الحق ﷻ، الهلال النير الذي عشق شمس الهداية المباركة سيدنا محمداً ﷺ، إنه سيدنا حضرة الشيخ أحمد يَسوي، الذي اعتبر أن سنين عمره التي بعد سن الثلاث والستين -حيت أن الرسول الكريم ﷺ ألا قد ارتحل الى الرفيق الاعلى في هذا العمر- اعتبرها أنها ليست من عمره وأنه يجب أن لا يعيشها، فمنع نفسه من التجول في الأرض، وبقي لمدة عشرة أعوام في مكان أشبه بالقبر وهو يتابع حياة الإرشاد والدعوة.



وبلال الحبشي ﵁، مؤذن النبي ﷺ، والبلبل الحنون الذي سيغرد في حدائق الجنة، لم يستطع البقاء في المدينة المنورة بعد رحيل النبي ﷺ إلى الحياة الآخرة. فعاش ستين عاماً ونيفاً محترقاً بحسرة اليوم الذي سيلقى فيه رسول الله ﷺ، الذي عشقه بكل جوارحه. وتوفي ﵁ في مدينة دمشق. وبينما كان يحتضر، كان يقول:«غداً نلقى الاحبة محمداً وحزبه، قال: تقول امرأته: واويلاه! فقال: وافرحاه!»..(الذهبي، سِيَر، ١، ٣٥٩)

وبطبيعة الحال، إن عاش الشخص حياته كبلبل عاشق للنبي ﷺ في حديقة المحبة طوال العمر، فسيكون الموت عيداً وعرساً بالنسبة له بفرحة التلاقي والتواصل.

وكم هو جميل ومعبر قول سيدنا ومولانا جلال الدين الرومي:«تعال يا قلب، فالعيد الحقيقي هو يوم التلاقي والتواصل بمحمد ﷺ، لأن نور الدنيا هو من نور جمال هذا المخلوق المبارك».

وهكذا، فإن الموت هو اليوم السعيد للتلاقي والتواصل، وهو كليلة الزفاف السعيدة بالنسبة للقلوب العاشقة التي تستمر بهذا النور المضيء.

وكم هي مليئة بالعبر والدروس قصة أم المؤمنين عائشة ﵂ زوجة سيدنا رسول الله ﷺ وشريكة عمره.

فعندما توفي سيدنا محمد ﷺ وانتقل إلى الرفيق الأعلى، دُفن في حجرة والدتنا عائشة ﵂. ولم تستطع مغادرة هذه الحجرة التي عاشت فيها بنشوة وسعادة مع زوجها، ولم تستطع مغادرتها حتى بعد وفاته.



وتابعت حياتها في هذه الحجرة وكأنها رفيقة النبيﷺ في القبر أيضاً. وبعد سنتين وثلاثة أشهر توفي والدها سيدنا أبوبكر الصديق رضي الله عنه، ودفن بجانب النبي ﷺ في طرف قدميه. وبقي في الحجرة مكان يتسع لقبرٍ واحدٍ فقط. فخصصت سيدتنا عائشة رضي الله عنها ذلك المكان لنفسها. ولكن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه استأذنها في رمقه الأخير بأن يدفن في ذلك المكان. فتنازلت عن حقها له مُشَكِّلة نموذجاً مثالياً عن الإيثار والفضيلة.

ويقال حسب ما ورد في الروايات، أن والدتنا السيدة عائشة رضي الله عنها كانت تتحرك في حجرتها براحة تامة بوجود قبري سيدنا محمد ﷺ وقبر أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أما عندما دفن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قسمت الحجرة بستارة إلى قسمين، بسبب شعور الحياء الرفيع الذي تميزت به.

وقد اعتبرت السيدة عائشة رضي الله عنها أن قربها من النبي ﷺ هو أكبر سعادة لها طوال حياتها. وعندما شعرت باقتراب وفاتها كتبت وصية تحتوي على فقرتين.

وتعتبر هذه الوصية من الكلمات النادرة التي تعبر عن فرحتها بالتواصل والتلاقي مع الرسول الكريم عليه السلام:

"١- عندما أحتضر، ادفنوني مباشرةً بعد عمل ما يجب، حتى ولوكان الوقت ليلاً.

٢- وعندما تحملون نعشي إلى المقبرة، احرقوا على طرف تابوتي أغصان نخل جافة".



فحسب عادات العرب القدامى، عندما تُزف العروس إلى بيت زوجها، كانوا يحرقون أغصان نخل جافة على طرف قافلة الزفاف.

ومن المرجّح أن يكون سيدنا جلال الدين الرومي قد استخدم تعبير "ليلة الزفاف" مستفيداً من وصية سيدتنا عائشة رضي الله عنها.

الحرص على تطبيق السنة النبوية

إن تطبيق السنن النبوية بشكل جيد ولائق هو أكبر دليل على محبة الرسول الأكرم ﷺ، وأسهل وسيلة للتعرف عليه. وإن اتباع هذه السنن دون أن تمتلئ القلوب بالمحبة المحمدية، إنما هو اتباع ظاهري ومخدوع، ومحروم من البركة المعنوية والروحانية.

ويوضح عبد الله بن دَيلمي أهمية الاِرتباط بالسنة النبوية قلباً وقالباً، حيث قال: «بلغني ان أول ذهاب الدين ترك السنة يذهب الدين سنة سنة كما يذهب الحبل قوة قوة» (الدارمي، المقدمة، ١٦)

أي أن انسحاب السنن، الواحدة تلوالأخرى من حياتنا -لا قدر الله- إنما يجعل فلاحنا مربوطاً بخيط قطني وهن، على وشك الاِنقطاع.

لذا فإن من أكبر الكرامات التي كان يتميز بها أولياء الحق سبحانه وتعالى من العلماء والعارفين، والذين يعرفون سيدنا محمداً ﷺ حق المعرفة، أنهم كانوا يحرصون بدقة وحساسية متناهية على تطبيق السنن النبوية، وتكييف حياتهم ونمط معيشتهم على أسس هذه السنن المباركة.

ولا شك في أن الرسول الأكرم عليه السلام هو أكثر من يستحق المحبة بين بني البشر أجمعين. وهو أجمل وأفضل شخصية تَكَرم الله سبحانه وتعالى بها على الإنسانية، وهو أكبر معجزة أرسلها للبشرية. فعالمه القلبي ﷺ هو أجمل وأحلى من جنة مليئة بالورود المعطرة بالمسك، وأزهار يانعة نادرة الوجود.

ففي هذا المضمار، يجب أن نطرح على أنفسنا بعض الأسئلة:

- كم جَنَينا من فوائد من الريح العذبة والمعنوية التي تهب من حدائق الجنة؟.

- هل تشبه حياتنا العائلية حياة الرسول الكريم ﷺ؟.

- هل حياتنا العملية والتجارية هي كما أوصى وأمر بها سيدنا محمد ﷺ؟.

- هل حياتنا الإِجتماعية محددة بالحدود التي وضعها سيدنا محمد ﷺ؟

- هل قلوبنا ممتلئة بالرحمة والشفقة على الفقراء والمساكين والأطفال المشردة وأولاد السبيل، واليتامى والمظلومين؟، وهل تخفق كما كان يخفق قلب سيدنا محمد ﷺ برقة من أجل أمتهِ؟.

- هل نستطيع أن نمثل الإسلام بوجهه المتبسّم، وطبيعته الروحية، ونسيجه المعنوي المبني على اللطف والظرافة ورقة القلب، كما كان يمثله سيدنا محمد ﷺ بالأخلاق والصفات الحميدة التي تميز بها؟.



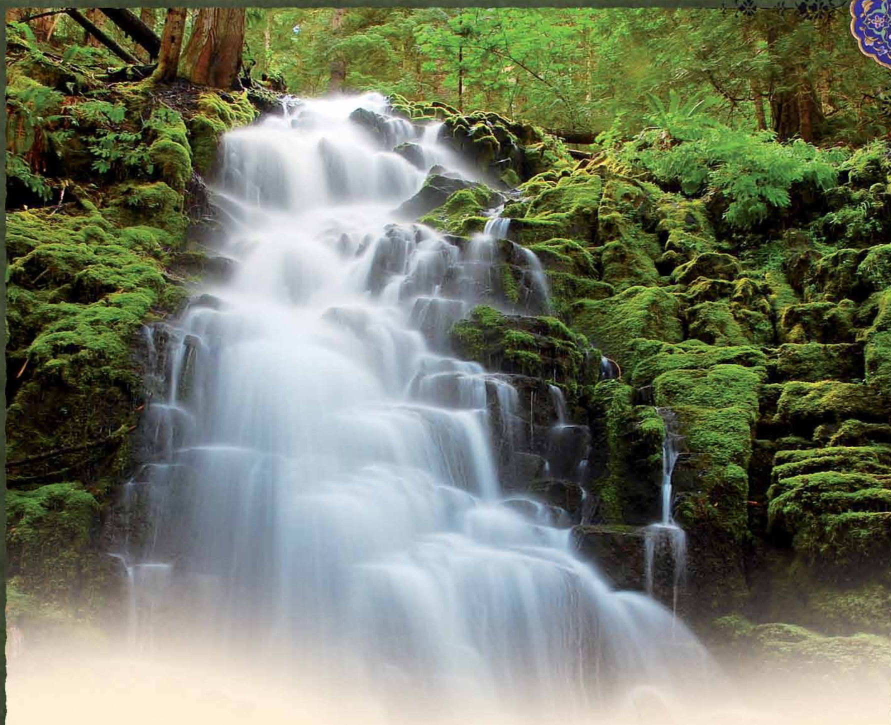
اللهم اجعلنا ممن يستحقّون أن يكونوا عباداً لجلالتك، وأمّة لائقة بنبيك سيدنا محمد ﷺ.

وارزقنا اللهم القدرة على قراءة أجمل شخصية قدوة أهديتها للبشرية جمعاء حتى تقوم الساعة، شخصية سيدنا محمد ﷺ، قراءته بعين قلوبنا وصدورنا.

وأوزعنا اللهم أن نتخذ سنن سيدنا محمد ﷺ نهجاً لنا في حياتنا.

ولا تحرمنا اللهم من لقاء سيدنا محمد ﷺ تحت راية الحمد يوم القيامة.

وأشربنا اللهم من حوض الكوثر حتى نرتوي، وأوصلنا اللهم أخيراً إلى الشفاعة العظمى برحمتك يا أرحم الراحمين...آمــين



التواضع

ان العبودية لله ﷻ تبدأ بأن يعرف الشخص حدوده، ويستطيع الوقوف عنده. ومن لديه هذا الإِدراك والوعي فلن يترك مجالاً في نفسه للتكبر والأنانية واثبات الذات واحتقار الآخرين.

وإن العباد الصالحين، أصحاب العلم والحكمة والمعرفة، هِم بتواضعهم وكرمهم كالشجرة اليانعة التي أحنت وأَمَالَتْ أغصانها وقرَّبتها للناس لكي تقدم لهم ثمارها اللذيذة التي قد نضجت.

التواضع

إن السر الذي يجعل من الإنسان إنساناً، والذي يعرّف الشخص بجوهره الأساسي، والذي يوصل البشرية إلى غايتها الأساسية، وباختصار، السر الذي يوصل الإنسانية للكمال إنما هو"**الخلق الحسن**" الذي ينموويترعرع في ظل الإيمان.

وبدرجة الأخلاق ونسبتها يتكون لدى الإنسان النضوج والفضيلة والقيمة والعظمة. ولكي يستطيع الإنسان أن يصل مرتبة العبد المحبوب من قبل الله ﷻ في الحياة الدنيا، يجب عليه أن ينضج معنوياً. وطريق هذا النضوج المعنوي يمر من "**التربية المعنوية**".

أولياء الحق ﷻ

إن كل ما يتعلمه الشخص من العلوم الدنيوية، وما يكتسبه من الأعمال والحرف اليدوية، يحتاج إلى معلم يعلمه ذلك ويريه الطرق التي يجب أن يتبعها. وفي تعلم الأخلاق الحميدة والاستقامة على الطريق المستقيم في سبيل تقويم شخصية الإنسان، وتحسين أخلاقه، فإن لأَوْلِياء الحق ﷻ الدور الكبير في تحقيق ذلك:

- بصفتهم المعلمون الحقيقيون للتربية المعنوية.

- فهم المؤمنون الذين آمنوا إيماناً كاملاً وحقيقياً، وهم



العارفون والعالمون والصالحون الذين نقشوا الدين على شخصياتهم بعد مزج ظاهره بباطنه.

-وهم الذين وصلوا إلى قمة مكارم الأخلاق بعد قطع مراحل متعددة في سبيل التقوى والزهد في الحياة الدنيا.

-وهم الذين وصلوا إلى أعماق الشعور بلذة الإيمان بعد توسيع آفاق إدراكهم وعلمهم بالأمور في الدنيا والآخرة.

-وهم الذين جعلوا كل هدفهم وشغلهم الشاغل هو تخليص الإنسانية من العادات السيئة والتقاليد الرديئة، وإنجاد النفوس من المستنقعات الظلماء، وإيصالها إلى مرتبة الأخلاق الحسنة، أي إيصالها إلى النضوج المعنوي، وإلى السماء النورانية.

إنهم بكون قلوبهم معلقة دائماً بجلال الله ﷻ، فهم يذكّرون الناس بالله ﷻ في كل زمان ومكان. ومن يتبع هؤلاء الصالحين، وينهج نهجهم، يكتسب الحكمة والقدرة على النظر إلى الأمور والحوادث الدنيوية من نافذة من نوافذ الآخرة. وإن تصرفات أولياء الحق ﷻ وأحوالهم توافق بشكل عام ما أمر الله ﷻ به عباده. وكما ورد في الحديث القدسي:

"... فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصرُ به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها " (صحيح البخاري، الرقاق، ٣٨)

وفي رواية: **"ولسانه الذي ينطق به وقلبه الذي يعقل به"** (الهيثمي، ٢، ٢٤٨)

إن أخلاق أولياء الحق ﷻ وتصرفاتهم إنما هي انعكاس من

الحياة الروحانية لرسول الله ﷺ، التي تعتبر التفسير الفعلي للقرآن الكريم. وهم بمثابة مرآة نقية وصافية تعكس جمال الأخلاق النبوية، مثلها كمثل ضوء القمر الذي ينعكس على الماء الصافي، والذي يستمد نوره من الشمس، حيث أنهم في غيرة تامة لتطبيق سنة شمس رسالة سيدنا محمد ﷺ بحذافيرها، وجعل هذه السنة المباركة قدوة لهم في حياتهم. لذا يستطيع من يشاهد حياتهم بقلب حساس ورقيق، ومن يربط قلبه بمحبة هؤلاء الناس، يستطيع أن يرى التجلي الظريف والمنقطع النظير والذي لا نظيرَ ولا مثيلٍ له للأخلاق النبوية على حياتهم.

لقد أعطى الله ﷻ لعباده الأولياء صلاحية التصرف في القلوب، مقابل إخلاصهم وصدقهم في مشاعرهم. لأنهم بدؤوا بالاِستقامة من حياتهم الشخصية، فعاشوا حياتهم بناء على ذلك، ثم بدؤوا بنشر بركة ذلك ممثلين لطافة الإسلام ورقته وتميزه بحسن الأخلاق فأصبحوا مظهراً لائقاً لبركة التأثير الرائع والمتميز والفريد.

أما الكلمات والأقوال البعيدة عن التنفيذ والتطبيق، والتصرفات البعيدة عن الواقع، والتي لا تهدف إلا للرياء والمباهاة بالنفس، إنما هي كتقديم طعام لضيف ولكن دون فائدة. ولا تدوم تلك الكلمات والأقوال طويلاً، بل تتلاشى في وجه رياح الحياة العاتية والقاسية. ولا تترك حتى أثراً صغيراً من بعدها. وبالمقابل فإن سر أولياء الحق ﷻ في ترك آثار واضحة منقوشة في القلوب والصدور بشكل دائم، هو إخلاصهم اللاّمتناهي وصدقهم وحبهم العظيم.



والتصوف على هذا الأساس، ليس فقط الزهد في الدنيا وهجر الملذات النفسية والشهوات الشيطانية. فكما قال الشاعر التركي "يونس أمره" أن التصوف ليس بلبس العباءة والعمامة، والاكتفاء ببعض الأوراد والأذكار. بل إن التصوف بالمعنى الحقيقي هو قطع مسافات جديرة بالذكر في سبيل التقرب من الله ﷻ، عن طريق التعمق في حكمه اللامتناهية التي تجلت على الحياة الدنيا وعلى الكائنات والمخلوقات كافة.

ولا يمكن الوصول إلى هذه المرتبة إلا إذا استسلم الإنسان وأدرك انه لا يساوي شيئا أمام عظمة وقدرة التدفق الإلهي، ويثبت ذلك في كل نفس يتنفسه، بتضرعه لله ﷻ وقوله "الأمان...الأمان.. يا رب".

إن أولياء الحق ﷻ هم وسائل للرحمة والبركة للناس الذين من حولهم. وهم عبارة عن حضن حنون دافئ مليء بالحب والرحمة، ومنفتح على جميع طبقات ومستويات المجتمع.

بالإضافة إلى أنهم مركز للجاذبية كالمغناطيس يجذبون أهل الإيمان إليهم. لأن الله ﷻ أحبّ عباده هؤلاء الذين تخلقوا بأخلاقه، وزرع حبهم في قلوب الناس. وكما قال الله ﷻ في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (مريم، ٩٦)

ولهذا السبب فإن أولياء الحق ﷻ لا يُمْكِنُ أن يُتركوا للنسيان

بين صفحات التاريخ الماضية، بعد أن تبلى أجسادهم الفانية، بل يتابعون حياتهم وعيشتهم في قلوب محبيهم. وشعور الحب الذي تفضل الله ﷻ به على القلوب المحظوظة تجاه عباده الأولياء، إنما هو فرصة كبيرة لا يحصل عليها أي واحدٍ، وهو في الحقيقة وسيلة للسعادة الأبدية. حيث أن بقاء الشخص يوم القيامة مع من يحب هو وعد وعهد نبوي. وحب الإنسان لهؤلاء العباد الذين لا مثيل لهم، ومحاولته التقرب إليهم إنما يقربه لله ﷻ.

وبدورنا نحن، فإن أردنا أن نحب أولياء الله وأحباءه، وأردنا التقرب إليهم، والحشر معهم يوم القيامة، علينا إذاً أن نحاول أن نأخذ نصيباً من أخلاقهم الحميدة. لأن علامة الحب هو تخلق المُحِب بأخلاق من يحب والتشبه به.

فعلى هذا الأساس، فإن محاولة التخلق بأخلاق أولياء الحق ﷻ يتوجب الإدراك التام للتجلي الرائع للأخلاق الحميدة عليهم وعلى حياتهم. ومن إحدى الأوصاف الفارقة التي تعكس أخلاق اولياء الحق ﷻ الرفيعة هو"**التواضع**".

التواضع: كأسمى ميزة من ميزات العبودية لله ﷻ

إن العبودية لله ﷻ هي بداية الشعور والإدراك رفيع المستوى. وإدراكنا بأننا لا نساوي شيئا أمام عظمة الخالق ﷻ وقدرته، ومعرفتنا بأن وجودنا واستمراريتنا لا تتم إلا بمشيئته ﷻ كما خلقنا أول مرة



من لا شيء، وإيماننا الكامل والتام بأننا محتاجون في كل لحظة وفي كل نفس نتنفسه لله ﷻ، إنما ذلك يشكل أساس العبودية لله ﷻ.

أي أن العبودية هي أن يعرف الإنسان حده، بأن يستطيع أن يرى موقعه العاجز والضعيف أمام العظمة والجبروت الإلهي. ومن استطاع رؤية ذلك وأدركه كما يجب، فلن يبقى لديه مجال للأنانية والتكبر وإثبات الوجود، بل يكون في منتهى الأدب والتعظيم والتبجيل لله ﷻ.

وكان سيدنا الهدائي في رضاء تام وكامل، يحمد الله ﷻ ويشكره ويثني عليه باعترافه بعبوديته له ﷻ. حيث كان يقول:

«أنت المعطي وأنت الآخذ، وأنت الآمر وأنت الناهي، وما أعطيت فهو لنا، ومع ذلك فهل نملك شيئاً؟».

وبالنتيجة، فمن لا ينال نصيباً من التواضع، هو الذي لم يدرك عظمة الله ﷻ وقدرته إدراكاً تاماً وكما يجب.

وفي هذا يقول سيدنا جلال الدين الرومي -سلطان العارفين-:

«إنني صرت عبداً، صرت عبداً، صرت عبداً. أنا العبد العاجز. طأطأت رأسي من خجلي، لأنني لم أؤد حق عبوديتي كما يجب. إن كل عبد يفرح عندما يطلق سراحه، أما أنا يا إلهي فإني سعيد بكوني عبداً رقيقاً مملوكاً لك».

وهذا مثال جميل ومعبر عن خلق العبودية...



ورُؤيَ الحسنُ بن علي ﵁ يطوف بالبيت، ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين، ثم وضع خده على المقام فجعل يبكي ويقول: عُبَيْدُكَ ببابك، خويْدمُك ببابك، سائلك ببابك، مسْكِينك ببابك. يردد ذلك مراراً ثم انصرف ﵁، فمر بمساكين معهم فلق خبز يأكلون، فسلم عليهم فدعوه إلى الطعام، فجلس معهم ﵁، وقال: لولا أنه صدقة لأكلت معكم. ثم قال ﵁:

«قوموا بنا إلى منزلي. فتوجهوا معه، فأطعمهم وكساهم وأمر لهم بدراهم». (انظر: الأبشيهي، المستطرف، بيروت، ١٩٨٦م، جـ١، ٣١)

إذاً هذا هو التواضع الحقيقي. فيه خلق رفيع يجعل المؤمن يعيش ضمن مشاعر عميقة جداً تجاه ربه ﷻ، وتجاه عباده. فمن استطاع أن ينقش هذا الخلق الرفيع على شخصيته، أصبحت أحواله وحركاته وتصرفاته متزنة ومتوافقة مع وضعه كعبد لله ﷻ. وينعكس ذلك على قيامه وجلوسه، وعلى لباسه وهندامه، وعلى كلامه وسكوته، وعلى وقوفه ومشيه. أي يكون دائماً في مظهر من مظاهر التواضع في كل حال من أحواله. وكما قال الله ﷿ في الآيات الكريمه:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ (الفرقان، ٦٣)

﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ (الإسراء، ٣٧)



﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان، ١٨)

فكما ورد في الآيات الكريمه، فإن الله ﷻ قد نهى عن المشي بغرور وتكبر. وإن طريقة سيدنا محمد ﷺ في المشي هي مثال عن تواضعه. حيث كان يمشي وهو ينظر أمامه بخطى سريعة ووقورة وكأنه يهبط منحدراً. وأصبح هذا الخلق الرفيع شعاراً لأولياء الحق ﷻ. حيث أنه أصبح دستوراً مهماً في التصوف، ويُعبّر عنه بالجملة التالية: (النظر إلى أطرافِ القدم).

فالمشي بالنظر إلى أصابع القدم يدل على فضائل كثيرة ومتعددة كالتواضع والأدب، ومعرفة الحد، وحماية العين من النظر إلى المحرمات، والتمسك الجيد بأوامر الله ﷻ، والتقيد بسنة نبيه محمد ﷺ.

ولا يحصل الإنسان على رضاء الله ﷻ بتواضعه في طريقة مشيه فقط، بل في كل حال من أحواله، وفي كل تصرف من تصرفاته.وكما ورد في الحديث الشريف عن النبي ﷺ:

"من تواضع لله درجة رفعه الله درجة حتى يجعله في عليين ومن تكبر على الله درجة وضعه الله درجة حتى يجعله في أسفل السافلين" (أحمد، ٣، ٧٦)

وقد قرأ سيدنا جلال الدين الرومي -قدس سره- الحكمة التي أوصلها التراب إلى أذهان الناس، فدعانا إلى أن نكون كالتراب في التواضع، ويشرح ما يطلبه الله منا قائلاً:

«يا ابن آدم، شاهد وانظر بتمعن، فإني قد وضعت بذرة مني في جسدك الذي خلق من التراب، فرفعت من شأنك وجعلتك في أحسن تقويم بينما كنت عبارة عن ذرة غبار في ذلك التراب. وأعطيتك عقلاً، وأعطيتك حباً. فاسع يا ابن آدم لكي تتصف بصفة التراب، أي التواضع. وبذلك أجعلك أميراً على كل من خلقت».

وقد نوّه سيدنا الشيخ سعدي شيرازي إلى أن التواضع هوسر الأِرتقاء المعنوي، وشبّه الإنسان المتواضع بالماء، فقال:

«بما أن السيل يتدفق بجلافة وجبروت، فإنه ينحدر نحوالأسفل ونحوالهاوية، أما قطرة الندى، بصفتها صغيرة وعاجزة، فتحملها الشمس بحب وحنان إلى الأعالي والقِمم».

والعباد الذين تخلقوا بالتواضع الذي أمرهم الله ﷻ به، ينالون ما بُشّروا به ووُعدوا، فكما قال الله ﷻ في الآيات الكريمه:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ. الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الحج، ٣٤-٣٥)

لذا فإن التواضع والإخلاص يحوزان على أهمية بالغة في إيفاء وظيفة العبودية لله ﷻ.



السيف، يقطع عنق من له عنق...

إن الناس المتواضعين البعيدين عن صفات الأنانية وإثبات الذات، لا يخافون من كثير من المخاطر المعنوية. ويشرح مولانا جلال الدين الرومي -قدس سره- هذه الحقيقة بالتشبيه التالي:

«إن السيف يقطع عنق من له عنق، أما الظل فبما أنه مفروش على الأرض، فلا يمكن لأي ضربة سيف أن تقطعه، أوحتى تجرحه».

بالإضافة إلى أن التواضع الحقيقي الذي يرفع من شأن صاحبه معنوياً ويعظمه، هو بنفس الوقت وسيلة لازدياد وتكاثر علم الشخص وحكمته، وتفتح وتوسع آفاق بصيرته. وورد في هذا المضمار في كتاب المثنوي لسيدنا جلال الدين الرومي -قدس سره- ما يلي:

«إذا انخفض مستواك ظاهرياً، وتدنيت في نظر الناس بسبب تواضعك، فإن الله ﷻ سوف يُحسن إليك ويكرمك ويهب عينيك بصيرة الرؤية الصحيحة والمنطقية للأمور. وسوف تكون لديك فرصة رؤية جميع الأمور على حقيقتها، والتعامل معها بشكل منطقي وحكيم. وستكون لديك القدرة على الإطلاع على سر الحديث النبوي الشريف: "اللهم أرنا الأشياء كما هي" (الرازي، في تفسير الإسراء، ٨٥؛ نعمة الله النخجواني، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية، جـ ١، ص ٢٧٥)

يتولّد عن التواضع: الرحمة والشفقة والكرم ومساعدة الآخرين. والشخص المتواضع هو أهل لتقديم المساعدة للآخرين وخدمتهم، وأهل للرحمة والشفقة والعطف على الغير.

وعلى عكس ذلك، فالشخص الذي لم ينل نصيباً من التواضع، هو إنسان متكبر، وشحيح، ومحروم من اللطف والرحمة الإلهية.

قال الإمام الشعراني في كتابه "البحر المورود" ما يلي:

«إن أكثر من يحصل على فائدة في مجلس معنوي وروحاني هو من يبدي التواضع والذل. لأن الرحمة الإلهية تتنزل على الناس المتواضعين، فقيري المشرب. ألم نلاحظ أبداً ونتفكر ونتأمل في أن حتى مياه الأمطار تتجمع دائماً في المنخفضات والحُفر، بينما تتدفق في الأنهار والسواقي».

التواضع عند سيدنا محمد ﷺ

عن عياض بن حمار أخي بني مجاشع قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم خطيباً فقال: "...وإن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد" (مسلم، الجنة، ٦٤)

وكان النبي ﷺ الذي أُرسل ليتمم مكارم الأخلاق، كان يجيب دعوة الأحرار والعبيد. وكان يقبل الهدية حتى ولوكانت شربة حليب. وكان بالمقابل ﷺ يهدي من أهداه. وكان يبدي اهتماماً بالغاً في خصوص تلبية متطلبات ورغبات الفقراء والمحتاجين كالجواري أوالعبيد، أوأي شخص ممن كانوا يُحتقرون ويُستصغرون بين الناس في المجتمع.

عن بنِ مسعود قال كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير وكان أبو لبابة وعلي زميلَيْ رسول الله ﷺ فكان إذا كانت عقبة النبي قالا اركب



حتى نمشي عنك فيقول ﷺ:

"ما أنتما بأقوى على المشي مني وما أنا أغنى عن الأجر منكما" (ابن سعد، جـ.٢، ٢١)

كان فتح مكة المكرمة من أكبر الاِنتصارات التي مَنَّ الله ﷻ بها على المسلمين بعد أن عانوا جميع ألوان العذاب وأنواعه حوالي عشرين سنة.

ولكن دخول النبي ﷺ إلى مكة المكرمة لم يكن بعلامات النصر والفرح، بل كان ﷺ ساجداً على ظهر جمله، وهو في حالة الشاكر والمتضرع إلى الله ﷻ. ولكي لا يترك أي مجال ولوجزءاً بسيطاً للتظاهر وإبراز نفسه، كان يكرر الجملة التالية:

"اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة"

(الواقدي،جـ.٢، ٨٢٤؛ البخاري، الرقاق، ١)

عن أبي مسعود قال أتى النبيَّ ﷺ رجل . فكلمه . فجعل ترعد فرائصه . فقال له:

"هَوِّنْ عليك . فإني لست بملِك . إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد"

(ابن ماجه، الأطعمة، ٣٠؛ الطبراني، المعجم الأوسط، جـ ٢، ٤٦)

مبرزاً بذلك تواضعاً لا مثيل له.

قالت أسماء بنت أبى بكر لما دخل رسول الله ﷺ مكة ودخل المسجد أتاه أبو بكر بأبيه يعوده فلما رآه رسول الله ﷺ قال هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه قال أبو بكر يا رسول الله

هو أحق ان يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه قال فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره ثم قال له أسلم فأسلم (أحمد، ٦، ٣٤٩)

وعن ابن عمر ﵄ قال جاء أبو بكر ﵁ بأبيه أبو قحافة إلى رسول الله ﷺ يقوده شيخ أعمى يوم فتح مكة فقال له رسول الله ﷺ: **"ألا تركت الشيخ حتى نأتيه؟"** قال : أردت أن يؤجر **والله لأنا كنت باسلام أبي طالب أشد فرحاً مني باسلام أبي ألتمس بذلك قرة عينك** فقال رسول الله ﷺ: **"صدقت"** (الهيثمي، ٦، ١٧٤)

وكان النبي ﷺ يوقظ وينبه ويُحذّر دائماً الذين يبدون أساليب التعظيم والتبجيل له، ويبالغون في ذلك، فكان يقول لهم:

"لا ترفعوني فوق حقي فأن الله تعالى اتخذني عبداً قبل أن يتخذني رسولاً" (الهيثمي، ٩، ٢١)

التواضع عند الصحابة الكرام ﵃

إن جيل الصحابة الكرام ﵃، والذين نشؤوا في ظل التربية النبوية، قد نالوا نصيباً منقطع النظير من حالة التواضع لدى سيدنا محمد ﷺ. فعلى سبيل المثال سيدنا أبوبكر الصديق ﵁، الذي قال عنه النبي ﷺ عنه بأنه: **"اثْنَانِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا"**[1]،

١. صحيح البخاري، التفسير، ٩/ ٩.

وقال "**أبو بكر مني وأنا منه وأبو بكر أخي في الدنيا والآخرة**"[2]

فعلى الرغم من ذلك أوضح ﵁ للناس في خطبته الأولى التي ألقاها عندما اختير للخلافة، بأنه لن يستغني عن التواضع، على الرغم من منصبه العالي والرفيع كخليفة، آملاً بذلك رحمة الله ﷻ ولطفه، حيث قال: «يا أيها الناس! لقد عُيّنت أميراً عليكم مع أنني لست أخيَركم».

قال: أخبرنا وهب بن جرير بن حازم قال: حدثنا أبي قال: سمعت شيخاً من بني عبس عن أبيه قال: أتيت السوق فاشتريت علفاً بدرهم فرأيت سلمان ولا أعرفه فسخرته فحملت عليه العلف، فمر بقوم فقالوا: نحمل عنك يا أبا عبد الله، فقلت: من هذا؟ قالوا: هذا سلمان صاحب رسول الله، ﷺ، فقلت: لم أعرفك، ضعه عافاك الله، فأبى حتى أتى منزلي فقال: قد نويت فيه نية فلا أضعه حتى أبلغ بيتك. (ابن سعد، ٤، ٨٨)

كان مؤذن الرسول ﷺ سيدنا بلال الحبشي ﵁ أسود اللون. وغضب منه مرة سيدنا أبوذر الغفاري ﵁، فخاطبه بأسلوب تحقيري فقال له: «يا ابن الامرأة السوداء». فغضب سيدنا محمد ﷺ من سيدنا أبي ذر غضباً شديداً.

عن المعرور عن أبي ذر قال: رأيت عليه برداً وعلى غلامه برداً فقلت لو أخذت هذا فلبسته كانت حلة وأعطيته ثوباً آخر فقال كان بيني

٢. المتقي الهندي، كنز العمال، رقم الحديث: ٣٢٥٥٠.

وبين رجل كلام وكانت أمه أعجمية فنلت منها فذكرني إلى النبي ﷺ فقال لي: "أسابيت فلاناً". قلت نعم قال:"أفنلت من أمه". قلت نعم قال: "إنك امرؤ فيك جاهلية". قلت على حين ساعتي هذه من كبر السن؟ قال: "نعم هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا يكلفه من العمل ما يغلبه فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه " (البخاري، الأدب، ٤٤)

الإعتدال في التواضع:

إن المبالغة والإفراط في التواضع يقود الشخص إلى المذلة، أوإلى التكبر والغرور بشكل غير مباشر. والتواضع الصحيح والمناسب هو غنيمة وكسب معنوي للناس أصحاب المستوى الرفيع. ومن يظهر نفسه بأنه متواضع، مع أنه في الحقيقة عكس ذلك، فإن ذلك رياء، واختباء وراء كسوة فضيلة التواضع.

ما أجمل ما قال الشيخ السعدي واصفاً حال المتكبرين:

«إنهم كالبصل، يريدون أن يقشروا القشرة الخارجية لهم لكي يصلوا إلى الثمرة ظانين فيه لباً، كما هو حال الفول السوداني، ولكنهم كلما أزالوا قشرة وجدوا قشرة أخرى عوضاً عن الثمار».

لذا فمن يدّعي صفة لا يتصف بها، بل ويستخدم كلمة التواضع لتلك الصفات الوهمية، إنما يشكل مثالاً صحيحاً ومناسباً عن الرياء.



وإن أخيار بني البشر من أصحاب العلم والعقل والحكمة هم فقط المتواضعون، وهم أصحاب العطاء والكرم والهبة للناس جميعاً. فهم كالشجرة التي نضجت ثمارها، فأحنت وأمالتْ أغصانها لتقربها لمتناول الناس، فتقدم لهم تلك الثمار الناضجة واللذيذة. لذا على الإنسان أن يحوّل عالمه الداخلي إلى منهل يوفر للبشرية جمعاء الإستفادة الدائمة، بدلاً من أن تغرّه المناصب والشهرة المبنية على الإفتخار والتظاهر بالمظاهر الخارجية الخداعة.

وهناك البعض من الناس يتظاهرون بالتواضع، لإشباع غرائزهم، ولكي يُمدحوا من قبل الآخرين بتواضعهم واتصافهم بالصفات الحميدة. وهذا الرياء ما هو إلا عبارة عن تكبر زُيّن بمظهر التواضع، فهو في الحقيقة «الإفتخار بالتواضع».

فعلى سبيل المثال، إذا قال الشخص: «إنني فقير ولكني تصدقت بكذا، وأحسنت لفلان كذا، وعملت الخير، ونلت الحسنات، وتعبّدت الله ﷻ بكذا وكذا» فإن هذا الكلام ليس إلا عبارة عن تغطية الكبر والغرور بغطاء التواضع».

قال سيدنا حسن البصري:

«من ذم نفسه بين الناس كثيراً، هو في الحقيقة يمدح نفسه، وذلك من علامات الرياء والعياذ بالله».

لذا فإن المبالغة والإفراط في التواضع خطير جداً. لأن التكبر والغرور يقتلان الروح، ويُتعبان النفس، لأنهما عبارة عن ارتقاء خادع وارتفاع ظاهري في المستوى الإجتماعي.



وقال مولانا جلال الدين الرومي، لافتاً انتباهنا إلى ضرورة عدم المبالغة والإفراط في التواضع:

«كن متواضعاً كالعبد، ولكن امش على الأرض كالحِصان. ولا تحاول أن ترتفع كالتابوت الذي يُحمل على الأكتاف. لقد تفرعَنَتْ النفسُ من الإكثار في المديح والتبجيل. فكن ذليل النفس، ولا تتفاخر بالعظمة مهما كنت عظيماً».

والتواضع الحقيقي هو أن تضع نفسك في موضع العبودية لله ﷻ من جهة، وفي موضع الإنصاف مع العباد من جهة أخرى. أي أن تلبي جميع أوامر الله ﷻ، وتعترف في الوقت نفسه بعجزك وتقصيرك وأن ترعى حقوق الآخرين، وتسلم بما يروه مناسباً في اتخاذ القرارات الصحيحة. وأن تتجنب الدخول في بوتقة العناد النفسي في خصوص الحقائق والمسلمات.

وكما قال فضيل بن عياض –رحمة الله عليه–:

«التواضع هو أن تطأطئ رأسك أمام الحقيقة، وأن تتقبلها وتسلّم بها، ولوكانت صادرة عن جاهل أوعن صغير، فلا فرق».

المزيج السحري للتواضع في التربية المعنوية

يقال في المثل:«مثل التواضع هو كمثل الصياد الذي يصطاد الشرف» لصعوبة الأتصاف بالتواضع.

وفي الحقيقة، فإنه لا توجد أية وسيلة مؤثرة كالتواضع في نيل المراتب العليا من العزة المعنوية والشرف والكرامة. وعلى عكس



ذلك، فإن التكبر والأنانية، وإثبات الذات هي من أسوء العادات التي تغضب الله ﷻ غضباً شديداً.

قال الصحابي الجليل سيدنا أبوبكر الصديق ﵁ في هذا المضمار: «عندما يتكبر العبد بنعمة من نعم الدنيا، فيبغض الله ﷻ هذه النعمة عليه حتى تزول عنه».

وأول خطوة للتربية المعنوية هي البداية بتزكية النفوس. وإن أصعب ما تتخلى النفوس عنها من عادات وخصل هي التكبر والأنانية وإثبات الذات.

قال أبوهاشم الصوفي، الذي يعتبر من أوائل الصوفيين:

«إن كَشط وإزالة التكبر المترسخ في القلوب، لهو أصعب من حفر الجبال بالإبرة».

ولكن، لا يمكن أن نحقق التكامل المعنوي، وأن نصل إلى وصف الإنسان الكامل الذي هدف إليه ديننا العظيم دون أن نحقق ذلك.

كما قال مولانا جلال الدين الرومي -قدس سره-:

«يصلُ الإنسان إلى العدم مروراً بنفسه. وإذا صار العدم زينة معنوية لشخص، فلا يبقى لهذا الشخص ظل من كثرة تواضعه، كما هو حال ظل الرسول ﷺ [٣]. أي أنه يتخلص من وجود الظل والخيال له.

ومن أسوء الأمور التي تمر بالإنسان هي إصراره على أفكار الأنانية وإثبات الوجود، على الرغم من أن أصل البشرية هو العدم

٣. حيث كان لا يرى لظله ﷺ أثر. السيوطي، الخصائص الكبرى، ص.١٨٦

واللاشيء. وكل الملذات النفسية والشهوات الدنيوية هي عبارة عن امتحان مليء بالكمائن التي تجعل العبد يهوي إلى تلك الغفلة والضلالة. ومن يقع في تلك الكمائن من الناس، فهوكالسمك الذي يتلذذ بطعم الطُعم الموجود في حافة صنارة الصيد.

ما أجمل ما يعبر عن ذلك سيدنا جلال الدين الرومي، حيث قال:

«إن الأنانية تسكر الإنسان سكرة جميلة، وتوصله إلى النشوة، وتأخذ عقله من رأسه، وتأخذ شعور حيائه من صدره.

لهذ انقاد الشيطان خلف نشوة هذه السكرة فقال: (لماذا يكون آدم أعلى شأناً مني؟ لماذا يكون رئيساً لي؟)، ولُعن من قبل الله ﷻ».

لذا، ومن هذا المنطلق، يتوجب علينا واجب ضروريٌ جداً أن نزيل آفة التكبر من صدورنا، ونتخلص منها في أقرب فرصة ممكنة.

قال سيدنا حسن البصري:

«التواضع هو أن تتقبل وتسلّم بأن كل مسلم تصادفه أمامك هو أعلى منك درجة».

وكان سلطان العارفين سيدنا النقشبند في بداية حياته وترعرعه ينظف الطرق والشوارع التي يمر فيها الناس. وقام بتقديم الخدمات للمرضى والعاجزين وحتى الحيوانات الجريحة. وبذلك وصل إلى مرتبة عالية ورفيعة من التواضع. وصرّح بنفسه أنه نال كثيرا من الدرجات المعنوية ببركة تلك الخدمات التي قدمها، والأعمال التي قام بها. وهذان البيتان يعبران عن حالته ويعكسان سره في وصوله



إلى المراتب الرفيعة، حيث قال:

العالم قمح، وأنا تبن

العالم جيد وأنا سيء

بهذا، فيُعتبر الشخص أنه دخل بداية طريق الترقّي المعنوي بعد أن يصل إلى مرتبة العزة القلبية والروحية. ويعبّر سيدنا جلال الدين الرومي عن هؤلاء الناس الذين وصلوا إلى مرتبة العزة والقوام القلبية والروحية بالشكل التالي:

«إذا سلكت طريقاً، فيفتحون لك الطريق، وإن تعدم، يوصلونك إلى الوجود. وما هي مرآة الوجود؟، لا مرآة للوجود. أيها العاشق لله سبحانه وتعالى، إن كنت عاقلاً فخذ العدم معك إليه».

ومن المستحيل قطع مسافة في طريق التربية المعنوية بثقل وغفلة كالتكبر. وكما قال ولي الله الحاج بايرام[٤]:

«التكبر كالحجر الثقيل المربوط على ظهر الإنسان، ولا يستطيع الانسان أن يسبح به ولا يطير».

لذا فإن أولياء الحق ﷻ يخلعون بداية ثوب الأنانية وإثبات الذات والوجود، ويلبسون بكل صدق وأمانة وإخلاص ثوب العدم واللاشيء، لكي يستطيعوا أن يزكوا أنفسهم.

---

٤. ان ولي الله الحاج بايرام كان مرشداً من رجال التصوف المرشدين الذي قام بوظيفة الأرشاد والوعظ والتدريس في أنقرة ودفن فيها بعهد السلاجقة(د.آدم آقين)

وبعد هذه المرحلة فقط يستطيعون أن ينالوا مرتبة السلطنة المعنوية والروحانية، حتى يصلوا إلى عزة القلب والروح، وعندما انتسب سيدنا الهدائي إلى مدرسة سيدنا أُفْتاده، ليتلقى التربية المعنوية، طُلب منه أن يتخلى عن حياته الدنونية والنفسية.

وفي هذا الصدد أُمر[٥] ببيع الكبد في سوق مدينة بورصة الخضراء -وهو قاض فيها- بزي القضاء المرصع بالزينة، ثم عهد اليه تنظيف بيت الخلاء في الزاوية التي انتسب إليها، وبذلك أصبح سيدنا الهدائي هو من يوجه بعلمه وأخلاقه حكماء وملوك العالم آنذاك.

وهناك أيضاً أحد أولياء الحق ﷻ، سيدنا خالد البغدادي، الذي كان كالشمس في عالم العلم والمعرفة والحكمة. ومع أنه كان في هذه المرتبة العليا، خرّ جاثياً أمام سيدنا الدهلوي. وقام بالوظيفة التي كُلّف بها آنذاك كما يجب. حيث كان ينظف بيت الخلاء في المدرسة. وبذلك لبس ثوب العدم والفقر واللاشيء، وبالنتيجة، صار مظهراً من مظاهر الإكرام المعنوي، وبهذ نال محبة وتقدير مربيه ومعلمه.

لذا يجب علينا أن لا نخلع ثياب التواضع في أي وقت كان. وذلك للنضوج المعنوي. وإن العبودية لله ﷻ دون تواضع، هي

---

٥. الشيخ عزيز محمود هدائي المدفون في أسكدار في اسطنبول والذي كان يرشد السلاطين العثمانيين ويقوم بتوجيههم وُجهة الإسلام (د.آدم آقين).



عبودية ناقصة وعليلة. والتكبر والأنانية هما من أخطر الآفات التي تؤدي بالإنسان إلى مرحلة الكفر والعياذ بالله. كما ذكرنا في مثال الشيطان الرجيم-عليه اللعنة-.

لقد وصل أولياء الحق ﷻ باتخاذهم خصلة التواضع دستوراً ومنهاجاً لهم في حياتهم ومعيشتهم، إلى مرتبة النجوم في سماء المعنويات والروحانيات. وصاروا مظهراً من مظاهر نعم الله ﷻ الكبيرة والتي لا تُعد ولا تُحصى.

وصاروا بنيلهم الصلاحية المعنوية، مركزاً لإرشاد الناس طوال حياتهم. بل وتابعوا إرشادهم حتى بعد موتهم وفناء أجسادهم وبلائها تحت التراب.

اللهم ارزق قلوبنا حصةً من إقليم قلوب أحبائك وأوليائك الذين وصلوا إلى أعلى المراحل والمراتب بالتواضع والعدم والفقر.

اللهم اجعلنا ممن عرفوا حدهم فوقفوا عنده، وعرفوا وظائفهم وواجباتهم فقاموا بأدائها كما ينبغي عليهم، برحمتك يا أرحم الراحمين.

آمـــــــــــــين



الصبر على جهل الجهلاء والمغفلين

أنه من المعروف أن الشجرة المثمرة تتعرض لقذف ورَمْي الناس لها بالحجارة. فكما أن الشجرة عندما تثمر تهيئ نفسها لذلك، فيجب على المؤمنين الحقيقيين أن يكونوا مُهيئين لأي أذى يتعرضون له من قبل الجهلاء والناس غليظي القلوب. وان تَتَحمّل أذى الناس في سبيل إرضاء الله ﷻ، هو مرتبة رفيعة من مراتب الإيمان.

وكما عبر عن ذلك سيدنا جلال الدين الرومي، الذي تأمل وشاهد بعين الحكمة؛ التجلي الإلهي على جميع المخلوقات. حيث قال:

«لقد حصلت الوردة على رائحة عطرة وشكل جميل جداً، لأنها صبرت على صداقة الشوك الذي من حولها، وتحملت أذاه...».

الصبر على جهل الجهلاء والمغفلين

هناك بعض المصطلحات المتضادة كالخير والشر، والحق والباطل، والقيّم والمعوجّ، والتي تصل إلى معناها الصحيح والدقيق في ذهن الإنسان عن طريق توضيحها بالأمثلة التي تُطرح عليها. وإن أولياء الحق ﷻ الذين يعيشون على هدي نور القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يشكلون لنا دستوراً يجب أن نتّبعه في حياتنا ومعيشتنا. أي أنهم أمثلة حية بالنسبة لنا. فيجب علينا دائماً أن نَزِن أحوالنا بأحوالهم، وأن نسعى ونجهد لكي نكون أصحاب قلوبٍ مليئة بالروحانيات والمعنويات المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

لأن أولياء الحق ﷻ وورثة النبي الكريم محمد ﷺ هم عبارة ٌعن قمم موزعة على مدى العصور والأزمان، وتدل على كمالية التصرف والإرشاد النبوي. أي أنهم يمثلون الشخصيات المهمة والرفيعة، والقدوة لمن لم ينالوا شرف رؤية النبي الأكرم محمد ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم. وهم بنصائحهم التي تحيي القلوب، وإرشاداتهم التي تنطق بها ألسنتهم التي تعكس صدقهم وإخلاصهم، عبارة عن انعكاس معنوي صادق للمنبع النبوي الرئيسي.



ومن أهم صفات أولياء الحق ﷻ الفارقة والمتميزة هي: تحملهم وصبرهم على إيذاء وجفاء الجهلاء والمغفلين وفظي القلوب الذين لا يمتّون إلى اللباقة وحسن المعاشرة بصلة. ويبقى أولياء الحق ﷻ هؤلاء في محاولة دائمة لإرشاد الناس وتوجيههم إلى طريق الهداية وطريق الصواب.

وكما هو الحال في جميع الصفات الحميدة والأخلاق الرفيعة، ففي هذه الميزة أيضاً، فإن المرجع الأساسي، والشخصية القدوة، والمَدرسة التي تُدرّسُ فيها هذه الخصلة الحميدة أفضل تدريس، وهي بدون شك شخصية سيدنا محمد ﷺ.

الصبر والجلَد عند سيدنا محمد ﷺ

لقد تعرض سيدنا محمد ﷺ الذي أرسل كشخصية قدوة للبشرية جمعاء لكثير من الأذى، وواجه الكثير من المتاعب والصعوبات طوال حياته المباركة. ولكن كل تلك المصاعب والمتاعب التي واجهها صبرً عليها وجَلَد في سبيل الله ﷻ. ولم تجعله يتأفف أويمل ويكل، أويفقد اتزانه واعتداله، لأن قلبه اللطيف كان في طلب دائم لرضاء الله ﷻ. وعندما تَطْمَئِنُّ نفسه بأنه قد نال رضاه، فلا بأس في كل ما عاناه من إيذاء وتعذيب من قبل الناس. وكما قال الله ﷻ في الآية الكريمة:

﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا﴾ (الأحزاب، ٤٨).

وقد ورد هذا الموضوع في الكتب السماوية السابقة، وبُشر بأنه سيأتي رسول تميز بجلده وصبره على الأذى صبراً منقطع النظير، وذلك من علامات النبوة. حيث أن زيد بن سعنة الذي كان سابقاً علاّمةً من علماء اليهود، قرأ ما ورد في الكتب السماوية التي أُنزلت قبل نزول القرآن الكريم بأن النبي الأخير المنتظر محمد ﷺ يتصف بهذه الصفات الحميدة.

وكان زيد بن سعنة كلما نظر إلى النبي محمد ﷺ، رأى جميع علامات النبوة وقد بانت عليه. فأثاره الفضول، وحاول أن يختبره مرات عدة محاولاً إيجاد أجوبة عن الأسئلة التي كانت تدور في ذهنه كالأسئلة التالية: «هل يسبق حلمه جهله و لا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً فكنت ألطف به لئن أخالطه فاعرف حلمه» ومع مرور الزمن وبعد أن امتحن سيدنا محمداً ﷺ، استنتج أنه في الحقيقة متميز بهذه الصفات الحميدة، فحاز على شرف الدخول في الإسلام بقلب مطمئن ومقتنع. (الحاكم، ٣، ٧٠٠ / ٦٥٤٧).

ولم يبدِ سيدنا محمد ﷺ صبره وحلمه وجلده على الكفار والمنافقين فحسب، بل حتى المسلمين الذين لم يتذوقوا بعدُ حلاوة ورقَّة الإسلام ونعومة التعامل، فكان يبدي حلمه وصبره عليهم أيضاً. وكل ذلك لإرضاء الله سبحانه وتعالى.

فكلما كان الأعراب المتصفون بالفظاظة والغليظون في المعاملة يخاطبونه بجلافة وقساوة على الشكل التالي: «يا محمد، يا محمد..»، وكان رسول الله ﷺ رحيماً رقيقاً فرجع إليه فقال (ما شأنك؟) عدة مرات (مسلم، النذر، ٨؛ ابو داود، الأيمان، ٢١/ ٣٣١٦؛ الترمذي، الزهد، ٥٠؛ أحمد، ٤. ٢٣٩)



أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ فقال النبي ﷺ:

"دعوه وهريقوا على بوله سجلاً من ماء أوذنوباً فإنما بُعثتم مُيسرين، ولم تبعثوا مُعسّرين" (البخاري، الوضوء، ٥٨، الأدب، ٨٠).

وصارت حالة النبي الأكرم ﷺ بذرة للهداية والتقوى بالنسبة لكثير من الناس. وكما قال الله ﷻ في الآية الكريمة:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران، ١٥٩).

ولم يفكر سيدنا محمد ﷺ، وحتى في الأوقات التي وهب الله ﷻ القوة والاِنتصارات المتتالية، ووصلت الدعوة الإسلامية مواصل جيدة في سيرها وانتشارها، لم يفكر أبداً أن يكف عن الصبر على إيذاء الناس وإزعاجهم له. بل استمر على تحمل جميع المصاعب في سبيل إرضاء الله ﷻ.

كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَصْعَةٌ يُقَالُ لَهَا الْغَرَّاءُ يَحْمِلُهَا أَرْبَعَةُ رِجَالٍ فَلَمَّا أَضْحَوْا وَسَجَدُوا الضُّحَى أُتِيَ بِتِلْكَ الْقَصْعَةِ يَعْنِي وَقَدْ ثُرِدَ فِيهَا فَالْتَفُّوا عَلَيْهَا فَلَمَّا كَثَرُوا جَثَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ:

"مَا هَذِهِ الْجِلْسَةُ؟!" قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

"إِنَّ اللَّهَ جَعَلَنِي عَبْدًا كَرِيمًا وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا عَنِيدًا"

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللّٰه ﷺ:

"كُلُوا مِنْ حَوَالَيْهَا وَدَعُوا ذِرْوَتَهَا يُبَارَكْ فِيهَا" (أبو داود، الأطعمة، ١٧/ ٣٧٧٣).

أي أنه أظهر بأنه لا يمكن في أي وقت من الأوقات أن يتصرف بعادات الناس المتكبرين والمغرورين. وأشار عليه الصلاة والسلام - بصفته تمثالاً لرقة القلب وحسن الخلق وقدوة للبشرية جمعاء - إلى أن الصفات والميزات القبيحة كالفظاظة والعناد لا تليق بشخصية المؤمن ولا تتوافق مع طبيعته الحساسة ووا اللطيفة.

وكان سيدنا العباس ﵁، عم الرسول ﷺ، ينزعج كثيراً من أن ابن أخيه كان يعيش بين العامة من الناس، ويتعرض لإيذائهم، وتصرفاتهم الجلفة والغليظة.فقال العباس ﵁ لَأَعْلَمَنَّ ما بقاء رسول الله ﷺ فينا فقال يا رسول الله اني رأيتهم قد آذوك وآذاك غبارهم فلو اتخذت عريشاً تكلمهم منه فقال ﷺ:

"لا أزال بين أظهرهم يطؤون عقبي وينازعوني ردائي حتى يكون الله هو الذي يريحني منهم" قال فعلمت ان بقاءه فينا قليل (الدارمي،مقدمة، ١٤؛ ابن ابي شيبة، مصنف، ٥، ٩٠؛ ابن سعد، ٢، ١٩٣)

وحذر سيدنا محمد ﷺ المؤمنين قائلاً:

"المسلم إذا كان مخالطاً الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم" (الترمذي، القيامة، ٥٥/ ٢٥٠٧).



وكما قال سيدنا جلال الدين الرومي:«إن صبر القمر على الظلام، وعدم هروبه منه، يجعله منيراً. وصبر الوردة على صداقة الشوك، يهبها رائحة زكية، ولوناً جذاباً، وشكلاً لطيفاً».

وقال سيدنا جلال الدين الرومي أيضاً:

«إن جميع الأنبياء عليهم السلام صبروا على إيذاء الجهلاء من قومهم ومن الذين لم يؤمنوا بهم، وتحملوا تعذيبهم. وبذلك وصلوا إلى مرتبة أحسن العباد عند الله ﷻ. وصاروا معنوياً كالملوك الذين انتصروا وعادوا غانمين من معاركهم».

وقال أيضاً:

«إن استطعت أن تعيش حياتك مُطَبِقاً خصلة الصبر كما يجب، فسوف يكون الصبر جناحاً لك، وستصلَ به إلى القمم العالية. تأمل وتفكر يا أيها المؤمن بالنبي المصطفى محمد ﷺ، الذي تحول صبره إلى بُراق، وإلى مِعراج، وإلى سدرة المنتهى. وارتقى به إلى ما وراء السماء. وجعله يلقى وجه ربه ﷻ».

وقد كان حب سيدنا محمد ﷺ لأمته وولعه بها، يُنسيه كل الصعوبات والمشقات التي كانت تواجهه. ولم يكن بمقدور شيء أن يحول بينه وبين أمته ونجاتها. ولم يكن سيدنا محمد ﷺ يتأفف أويشتكي من تلك الصعوبات والمشقات التي كانت تواجهه، ولوكان مصدرها أمته بذاتها. بل كان دائماً يتضرع ويتوسل إلى الله ﷻ بقوله:«أمتي، أمتي». لأنه ﷺ قد تخلى عن راحته مقابل سعادة أمته الأبدية وراحتها.



الصبر والجلد عند أولياء الحق ﷻ

وإن أولياء الحق ﷻ وورثة النبي محمد ﷺ، لا يأبهون بتصرفات الناس الجلفة والغليظة تجاههم وبأخطائهم وعثراتهم. بل يعملون جاهدين وبكل ما يملكون من قوة وإمكان مادي ومعنوي على إصلاح هؤلاء الناس وإرشادهم إلى الطريق الصواب والأخلاق والصفات الحميدة، متحملين جميع أنواع المشقات والمتاعب لتحقيق ذلك، آملين بذلك كسب رضاء الله ﷻ. لأن التصرف بهذا الشكل هو ما يقتضيه العلم والحكمة والعقل السليم.

وكما قال سيدنا إبراهيم حقي الأضروسيّ[1]:

«أن يكون الإنسان راضياً بكل ما قُسم له من مصائب، وأن يكون صبورا على كل الشدائد التي تواجهه، ويكون ذا وقار أثناء اللحظات العسيرة التي يمر بها، إنما ذلك من عادات الأولياء».

وقال أيضاً: «إن رأس العلم هو الخلق الحسن واللين، أما رأس الحكمة فهو معاملة الناس معاملة حسنة».

لذا فإن عدم الصبر والجلد على أذى الناس، والتأفف والتشكي عوضا عن ذلك، إنما هو نتيجة محتمة للجهل والحرمان من الحكمة والعقل السليم. فكما أن أصحاب العلم والحكمة يتميزون بالحلم،

١. أرض الروم أو أرضروم محافظة كبيرة وقديمة جداً تقع في شرق تركيا



والمعاملة الحسنة والرقة في الأحاسيس، فبالمقابل فإن الجهلاء والناس الذين حُرموا من الحكمة والعقل السليم يتصفون بالفظاظة وغلظ القلب، ولا ينالون أي نصيب من الأدب والأخلاق الحسنة.

وإنه أبشع شكل من أشكال الجهل أن يكون الإنسان بعيداً عن نعومة ورقة الدين الإسلامي. وقد فسّر سيدنا ابن العباس رضي الله عنه ما قاله الله ﷻ في الآية الكريمة:

﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت، ٣٤)

على الشكل التالي:

«{ادفع بالتي هي أحسن} الصبر عند الغضب والعفو عند الإساءة فإذا فعلوه عصمهم الله وخضع لهم عدوهم { كأنه ولي حميم}» (البخاري، التفسير، ٤١/ ١).

وأخرج ابن المنذر عن أنس في قوله : {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الذين صَبَرُواْ} قال: الرجل يشتمه أخوه ، فيقول: إن كنت صادقاً ، فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً ، فغفر الله لك» (الشوكاني، فتح القدير، فصلت، ٣٤)

وكما قال الله ﷻ في الآية الكريمة:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ (الفرقان، ٦٣)

ولا يعطي أولياء الحق ﷻ الجاهلين الذين لا يعرفون حدودهم

أية أهمية، ولا يعتبرونهم، ولا يدخلون معهم في نقاش في أي موضوع كان. لأنهم يعرفون أن مناقشتهم وجدالهم مع هؤلاء الناس سيولد لديهم العناد الذي لا جدوى منه، بل ويتسبب في أضرار اجتماعية ومعنوية عديدة.

لذا فقد لفت سيدنا علي كرم الله وجهه وﷺ انتباهنا في هذا المجال إلى أن نكون حذرين ومتيقظين لكي نتفادى الوقوع في الضرر، حيث قال:

«لا تشرع أبداً في الرد على كلام قيل لك بنذالة ووضاعة، فإن لدى صاحب هذا الكلام كلمات أوضع وأنذل وأحقر مما قاله. وسيرد بالعبارات التافهة على أجوبتك إن أجبته. وحذار أن تمزح مع الجاهل، لأنه سيجرح قلبك ومشاعرك بكونه يمتلك لساناً مسموماً».

وقال مولانا جلال الدين الرومي:

«كن صامتاً كالكتاب أمام الجهلاء».

وقال أيضاً:«إن الشخص اللين الأخلاق هو من يتحمل كلام الناس عنه، والذي يتصرف كالأعمى والأطرش أمام أعمال الناس وتصرفاتهم السيئة».

عَنْ قَتَادَةَ قَالَ أَيَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ أَبِى ضَيْغَم - أَوْ ضَمْضَمٍ شَكَّ ابْنُ عُبَيْدٍ - كَانَ إِذَا أَصْبَحَ قَالَ اللَّهُمَّ إِنِّى قَدْ تَصَدَّقْتُ



بِعِرْضِى عَلَى عِبَادِكَ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ أَبِى ضَمْضَمٍ". قَالُوا وَمَنْ أَبُو ضَمْضَمٍ قَالَ "رَجُلٌ فِيمَنْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ". بِمَعْنَاهُ قَالَ "عِرْضِى لِمَنْ شَتَمَنِى" (ابو داود، الأدب، ٣٦)

أن حكيماً صنف ثلثمائة وستين مصنفاً في الحكمة حتى وُصِفَ بالحكيم فأوحى الله تعالى إلى نبيهم قل لفلان قد ملأت الأرض نفاقاً ولم تردني من ذلك بشيء وإني لا أقبل من نفاقك شيئاً فندم الرجل وترك ذلك وخالط العامة في الأسواق وواكل بني إسرائيل وتواضع في نفسه فأوحى الله تعالى إلى نبيهم قل له الآن وفقت لرضاي (إحياء علوم الدين، ٢، ٦١٠-٦١١ في آفات العلم)

فكم هو من أفق معنوي وروحاني عظيم تميز به أبوضَمْضَمْ... حيث أضاف على الحب اللامتناهي في قلبه تجاه الخالق ﷻ، مشاعر الرحمة والشفقة والعفووالتسامح تجاه عباده. ولم يُرد لعباد الله ﷻ أن يُحرجوا يوم الحساب وينالوا العقاب بسببه، فأراد أن يتنازل عن حقوقه لهم لكي يُريحهم من ذلك الهم. ويأمل بذلك الوصول إلى الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء.

وقص لنا سيدنا الإمام الغزالي هذه القصة التي تتحدث عن فضائل تحمّل فظاظة الناس وغلظ قلوبهم، فقال:

«كتب قاض من القضاة ثلاث مائة وستين كتاباً عن الحكمة. وظن بفضل ذلك أنه قد تقرب من الله ﷻ. فأوحى الله ﷻ لأحد

أنبيائه آنذاك بأن (قل لفلان بأنه ملأ وجه الأرض بالنفاق، ولن أتقبل شيئا من أعماله). وبناء على ذلك انعزل ذلك القاضي وأخذ يعبد الله لوحده في كهف بعيد ومنعزل عن الناس.

وقال: (لقد نلت الآن رضاء ربي)، فأوحى الله ﷻ لنبيه بأن: (إن لم يعش مع الناس، ولم يصبر على أذاهم، فلن ينال رضاي). فنزل القاضي إلى السوق، ودخل بين الناس، ومشى معهم، وجلس إليهم، وأكل مما يأكلون، وشرب مما يشربون. فأوحى الله ﷻ لنبيه بناء على ذلك أن: (أخْبر ذاك الرجل بأنه قد نال الآن رضاي)» (الإحياء، ٢، ٦١٠-٦١١)

وفي التصوف أيضاً، فعلى الرغم من أن الانعزال لفترة عن الناس، وعن الحياة ومشاغلها، والتفرغ لعبادة الله ﷻ، يُعتبر تدريباً وتمريناً ضرورياً للتكامل الروحي، فبالمقابل فقد مُنع تحويل الحياة إلى حياة الرهبان، والإنعزال تماماً عن الناس وعن المعيشة.

والقاعدة المعروفة عند الصوفيين «الوحدة في الكثرة» هي عبارة عن أهم قواعد الدين وهي أدب من آداب العبودية، تدل على مستوى المؤمن المعنوي ودرجة إيمانه. وتعني هذه القاعدة أن يكون الإنسان مع الله ﷻ حتى ولوكان بين الناس.

وقد استُخدم المثل القائل: «اليد مشغولة بالكسب والقلب معلق بالحبيب» للتعبير على قدرة الإنسان على أن يكون في خلوة مع الله ﷻ، ولوكان جميع الناس حوله، فلا يشكل ذلك عائقاً أبداً.



قال مولانا جلال الدين الرومي: «لا يوجد مكان في الدنيا بدون مصائب، ولا يمكن أن يخلومن الكمائن. ولا خلاص ولا طمأنينة ولا راحة بال إلا عن طريق البحث عن الله ﷻ في القلوب وفي الصدور، والاِلتجاء إلى العيش بالرخاء والسكينة معهﷻ».

وقال أيضاً:

«أقسم بالله العظيم أنه من لم يعش حياة الصبر لن يتخلص من مخالب القط حتى ولواختبأ في جحر الفأر».

وحدثنا محمد إقبال هذه القصة التي تعبر عن فضيلة العيش بين الناس، والصبر والجلد على أذاهم وتعذيبهم:

«جلس غزال جاهل مع غزال ناضج وذووعي وخبرة وتجربة في الحياة وبدؤوا يتحدثون، فقال الغزال الصغير: (سأعيش بعد اليوم في الكعبة-حيث أن الصيد ممنوع في منطقة الحرم-، لأن الصيادين نصبوا كمائنهم في كل مكان في السهول والجبال والمراعي، ويلاحقوننا دائماً. سأتخلص من الصيادين وأُريح بالي من ذلك الهم، لأصل إلى الطمأنينة والسكينة). فأجابه الغزال الناضج: (يا صديقي العاقل !! إذا أردت أن تعيش فافعل ذلك مع وجود الخطر. عش في الجبال بين الحجار والصخور. عِشْ أمضى من السيف الحاد. فإن مستوى الإيمان لا يظهر إلا أثناء الصعوبات والمشقات التي تواجهك. والخطر هو ما يختبرك ويمتحن قوتك ومتانتك. وذلك ما يعكس قوة صبرنا وجلدنا على ما نواجهه من الظروف القاسية) ».



ومن إحدى ميزات عباد الله ﷻ وأحبائه الأولياء هي تفضيلهم على أن يكونوا مظلومين عندما يكونون مخيرين في أن يكونوا في وضع الظالم أوالمظلوم.

أن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان بن عفان أشهد أن رسول الله ﷺ قال إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي والماشي خير من الساعي قال أفرأيت إن دخل علي بيتي وبسط يده إلي ليقتلني قال:

" **كن كابن آدم**" (الترمذي، الفتن، ٢٩/ ٢١٩٤)

أي أن أولياء الحق ﷻ يتحلون بالأخلاق الحميدة مثل: «الصبر على أذى الناس في سبيل إرضاء الله ﷻ».

وكم هو مليء بالعبر والمعاني حال معروف الكرخي، أحد أولياء الحق ﷻ. فقد ورد عنه القصة التالية:

«استضاف سيدنا معروف الكرخي مريضاً في بيته. وكانت حالة المريض يُرثى لها، وكان على فراش الموت. وقام بخدمته وتلبية حوائجه ومتطلباته. وكان المريض يتألم ألماً شديداً، فيتأوه بشكل مستمر، فلا تستطيع نفسه أن ينام ولا يجعل أحداً من أهل البيت يستطيع أن ينام ولولحظة واحدة. بالإضافة إلى أنه كان يعامل سكان المنزل بفظاظة وجلافة، ويخاطبهم بكلمات وألفاظ قاسية وبذيئة. ولم يستطع أهل المنزل الصبر على ذلك أكثر، فبدأ الواحد تلوالآخر بالهروب إلى أماكن أخرى بعيدة عن إزعاجات ذلك المريض. ولم يبق في الدار سوى سيدنا معروف الكرخي وزوجته.



واستمر سيدنا الكرخي بخدمة الرجل المريض وتلبية حوائجه دون أن ينام الليل. وفي يوم من الأيام غلبه النعاس، وغفا غفوة بسيطة بشكل لا إرادي.. فبدأ المريض المغفل عندما رأى الرجل المبارك قد غفا، بالتوبيخ وتوجيه التهم الثقيلة إليه، بدلا من أن يشكره على العمل الذي قدمه إياه، بتهيئة حضن دافئ يحتضنه ويحميه في فترة مرضه ووهنه، فقال:

«ما هذا؟ أيتصرف الأولياء بهذا الشكل؟ أم أنهم يخدعوننا بالمظاهر الخارجية على أنهم صالحون يحبون الخير ويقدمونه للناس، مع أنهم في الحقيقة لا يتميزون إلا بالرياء والكذب. ويأمرون الناس بالتقوى وعمل الحسنات، أما عن أنفسهم فلا يطبقون شيئاً من ذلك. وهذا أحد هؤلاء الناس، لقد نام وتركني وحدي دون أن يعبأ بي ولا بمرضي. لأنه لا يحس بحالتي، بل يأكل ويشبع ويتنعم بالنعم كلها، ثم يذهب في سبات عميق غير مكترث بما حوله من الناس، ولا يتفهم أحوال المرضى الذين لا حول لهم ولا قوة».

فصبر سيدنا معروف الكرخي أيضاً على هذا الكلام المر كالعلقم الذي صدر عن الرجل المريض. أما زوجته فلم تتحمّل ذلك، وطلبت من زوجها أن يلقي به خارج المنزل، لأنه ناكرٌ للجميل. فقال سيدنا معروف الكرخي:

«لماذا جرحتك هذه الكلمات التي تفوّه بها هذا المريض؟ فإنه إن وبّخ أحداً فقد وبّخني أنا، وإن تجاوز حدود الأدب والأخلاق فقد



فعل ذلك تجاهي أنا. وإن جميع ما نطق به من كلمات بذيئة تبدولي وكأنها حسنة ولطيفة. وإن ألمه شديد ودائم، ألا ترين أنه لا يستطيع أن يغفوولا لحظة واحدة. واعلمي أن الرحمة والشفقة الحقيقية هي أن يتحمّل الإنسان ويصبر على أفعال الناس وتصرفاتهم القاسية».

ولقد نصحنا الشيخ السعدي الذي نقل هذه القصة وكتبها في كتابه (البستان) ونَقَلَ لنا النصيحة التالية:

«يتصف القلب المليء بالحب بالعفو والتسامح، وإذا كنت في حياتك عبارة عن صورة جافة فحسب، فعندما ترحل من الدنيا إلى الدار الآخرة، فإن اسمك سيموت مع موت جسدك. أما إذا كنت من أصحاب الكرم وأهل الحكمة، فستبقى حياً في أفكار الناس بعد موتك، بقدر القلوب التي دخلتها وبقدر الأعمال الخيّرة التي قدمتها لهم. ألم تلاحظ شهرة قبر سيدنا معروف الكرخي وكثرة زواره من بين كل الأضرحة العديدة الموجودة في مدينة الكرخ في بغداد؟».

وما أروع هذه الأبيات الشعرية التي ألقاها سيدنا يونس أمرة حيث قال:

فليكبت الصالح شهواته..

وليتصرف كالأطرش عندما يُشتم..

وكعديم اليدين عندما يضرب..

أي مسامحة الناس والعفو والصفح عنهم مقابل أذاهم وتعذيبهم، ومقابلتهم بالصبر وبرودة الأعصاب، وهذا أفضل كسب يكسبه



الأولياء والصالحون وأولياء الحق ﷻ، الذين لديهم القدرة على التمعن في النظر إلى المخلوقات بعين الخالق ﷻ. أما الذين يتصرفون كعامة الناس، وينفعلون مقابل أبسط الأمور وأصغر أصناف الأذى الذي يواجههم، بل ويقابلون الأذى بالأذى والشر بالشر، أولئك هم الذين فقدوا حلاوة ونشوة التحلي بالصفات الحميدة التي أمرنا بها ديننا العظيم. ولوأنهم يكونون آنذاك قد دافعوا عن حقوقهم ولم يسمحوا لأحد بإذلالهم، إلا أنهم لم ينالوا شرف التحلّي بالأخلاق الحسنة التي تتطلبها الآداب الصوفية كالعفووالصفح والتسامح والصبر. ويكونون في النتيجة قد غفلوا عن الحكمة المراد نيلها من هذا الإِمتحان الذي يمتحن الله ﷻ به عباده في الحياة الدنيا. إضافة إلى أنَ التحلّي بالخصل الحسنة في التعامل مع الناس له قيمة لا مثيل لها في اكتساب محبة ورضاء من حوله. ومن هذا المنطلق فإن هذه الخصل الحميدة تعتبر كالغنائم في الأدب الصوفي.

وكما يعبر عن ذلك سيدنا جلال الدين الرومي بالشكل التالي:

«إن الصبر على السيئات والمصاعب والشدائد، وسيلة المؤمن الصالح في رفع مستواه المعنوي والروحاني عند الله ﷻ، لأن الصبر يُحيي القلوب ويُنعش الصدور». عدا عن أن هذه الأخلاق والخصل الحسنة تُشكل وسيلة في إصلاح الناس الفظين والجلفين. أما إذا لم يحاول من يتصرف بأن يُصلح نفسه، نادماً على ما فعل سابقاً، فسوف يقع في خسائر كبيرة جداً على الصعيد المادي والمعنوي.



بل وسيكون ذلك هو السبب في هلاكه. لأن الله ﷻ يحق الحق، فيأخذ بنفسه حقوق من تعرضوا للأذى وسوء المعاملة من ذلك الأشخاص الفظين الذين أساؤوا التعامل معهم. وإن أخذ الله ﷻ حقوق عباده الأحباء الأصالحين من هؤلاء الظالمين السيئين، يكون أحيانا قاسياً وشديداً، وعلى شكل انتقام قوي جداً، وذلك بتسليط جبروته وجلاله عليهم. وهذه القصة تبين لنا هذه الحقائق بشكل واضح وبسيط:

«ذهب في يوم من الأيام سيدنا إبراهيم حقي، خادم سيدنا إسماعيل فقير الله إلى مورد الماء ليعبئ إناءه. وعندما هم بتعبئة الماء جاء رجل على حصان. فصرخ الرجل في وجهه ووبّخه قائلاً: (ابتعد يا غلام، ابتعد عن وجهي). واقترب من مورد الماء موجهاً حصانه نحوه. وبينما كان إبراهيم حقي يحاول أخذ إنائه والإبتعاد عنه، حاصره الرجل بحصانه الذي كان قد هيجه. فحاول إبراهيم حقي أن ينجو بنفسه، فوقعت الجرة من بين يديه على الأرض، فداس عليها الحصان فتحطمت وتحولت إلى فتات. فبكى إبراهيم حقي وذهب إلى أستاذه وأخبره بما حدث. فسأله سيدنا إسماعيل فقير الله:

«هل قلت شيئاً للرجل الذي كسر إناءك؟».

فقال: «لا، لم أقل له شيئاً».

فقال له الشيخ آمراً: «فاذهب إذاً بسرعة إلى ذاك الرجل، ووبّخه بكلمة أوكلمتين».



ذهب إبراهيم حقي، وعندما اقترب من الرجل الذي كان يُهيّئ حصانه للرحيل، انتظر لفترة، ولكنه بسبب أدبه وأخلاقه الحميدة لم يستطع أن يوبخه ويقول له:

«يا أيها الظالم، لم كسرت إنائي؟». فرجع إلى أستاذه. وسأله سيدنا فقير الله:«هل قلت له شيئاً؟».

فقال إبراهيم حقي:«لا يا سيدي، لم أستطع أن أقول له شيئاً، لقد نويت ولكني لم أستطع أن أحرك لساني وأنطق بكلمات قاسية».

فكرر أستاذه أمره بالذهاب، وصرخ بصوت عال قائلاً:

«لقد أمرتك بأن تذهب وتقول شيئاً لذلك الرجل، وإلا فإن نهايته وخيمة ولا يُحسد عليها أحد».

فذهب إبراهيم حقي راكضاً إلى مورد الماء، فرأى الرجل الذي كسر جرته ممدداً على الأرض دون حراك، وقد رُكل من قبل حصانه عدة ركلات. فركض إلى أستاذه وأخبره بنهاية الرجل الوخيمة.

فانزعج الشيخ على هذه الحال وقال:«وا أسفاه... رجل مقابل جرة».

فقال الناس من حوله بأنهم لم يفهموا شيئاً مما حدث، فشرح سيدنا إسماعيل فقير الله ذلك قائلاً:

«إن الرجل صاحب الحصان قد ظلم إبراهيم حقي. ولم يرد



عليه المظلوم ولوبكلمة واحدة. وبذلك تركه مع تصرف ربه. وهذا التصرف قد أغضب الله ﷻ فناول الظالم جزاءه. ولوأن إبراهيم حقي واجه الرجل على ظلمه ولوبكلمة واحدة، لتعادلوا ولأخذ كل ذي حق حقه. ولكنه فضّل أن يكون مظلوماً تماماً. أما أنا فكنت أجادله في أن يأخذ حقه بيده، فينجو ذاك الرجل من هذا الوضع العصيب. ولكني ومع الأسف الشديد لم أُوفق في تحقيق ذلك».

وبذلك نرى أن أولياء الحق ﷻ، أصحاب العلم والحكمة والمعرفة، والذين اطّلعوا على سر الأمور، كانوا يواجهون من ظلمهم أوآذاهم بكلمة بسيطة، حتى لا يَدَعُوهم في موقف حرج مع خالقهم ﷻ، فينالون العقاب بسببهم. فكانوا يفضلون أن يكونوا عوناً لهم في النجاة من تسليط سخط الله ﷻ عليهم.

وبالنتيجة.. فإن المؤمنين الحقيقيين يعتبرون أن الأذى والتعذيب الذي يتعرضون له من قبل الناس – أوالذي يبدوظاهرياً كذلك – أنه في الحقيقة امتحان لهم من قبل الله ﷻ. فيحاولون دائماً أن يتحملوا الشدائد ويصبروا عليها دون أن يّظهروا علامات التأفف أوقلة الصبر.

وكما قال مولانا جلال الدين الرومي:

«إن الجبل الذي يحتوي في داخله على المعادن الثمينة، يتعرض للكسر والتفتت بسبب ضربات المعول والفأس التي يضربها الناس».



وإنه من المعروف أن الشجرة المثمرة تتعرض لقذف ورَمْي الناس لها بالحجارة. فكما أن الشجرة عندما تثمر تهيئ نفسها لذلك، فيجب على المؤمنين الحقيقيين أن يكونوا مُهيئين لأي أذى يتعرضون له من قبل الجهلاء والناس الفظين غليظي القلوب. وإن تحمل أذى الناس في سبيل إرضاء الله ﷻ، هو مرتبة رفيعة من مراتب الإيمان.

اللهم ارزق قلوبنا نصيباً من الفراسة والبصيرة والحكمة واللطافة التي تفضَّلت وتلطفت بها على عبادك الأولياء.

واحفظنا اللهم جميعاً من غلظة وجلافة الجهلاء وقساة القلوب، وأبعدنا اللهم عن الدخول معهم في نقاش وجدال.

واجعلنا اللهم من أصحاب العقل السليم، بشكل يليق بالمؤمنين الحقيقيين، لكي نلقى وجهك الكريم بوجه نقي وقلب سليم..

آمـــــــــــــــــــــــــــين





مقابلة الشر بالخير

يجب على المؤمن الحقيقي أن يكون عزيزاً كالماء. وعميق التفكير كالبحر. ويجب عليه أن ينشر بين الناس سكينةَ وطمأنينةَ الإسلام ووجهه البشوش، بقلب شفاف يعكس اللطافة والكياسة وحسن الخلق.

ولا يليق بالمؤمنين الحقيقيين أن يحصروا تطبيق العادات الجيدة كالعفووالصفح عن الآخرين، على الأعياد والمناسبات الرسمية أوالدينية. لأن الوصول إلى مرتبة استحقاق عفوالله ﷻ ورحمته، لا يتم إلا عن طريق العفوعن الناس مرات ومرات. وتلك المرتبة هي الأفق الذي لا مثيل له، والذي يجب على المؤمنين بذل جهودهم وطاقاتهم للوصول إليه.

مقابلة الشر بالخير

إن ديننا العظيم بكل قاعدة من قواعده هو عبارة عن منظومة شعرية التي تحتوي على كافة الأخلاق الحميدة التي تنعكس من نور الإيمان على جميع مجالات الحياة.

وكما قال سيدنا محمد ﷺ في الحديث الشريف:

"**بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ حُسْنَ الأَخْلاَقِ**" (موطأ مالك، حسن الخُلق، 8).

فإذا أردنا أن نكون من المؤمنين الحقيقيين فيجب علينا أن نتعمق في مقاييس الأخلاق التي أمرنا الإسلام التحلي بها، وأن نستفيد من انعكاس بريق هذه الأخلاق على كل صفحة من صفحات حياتنا. وإن لم نفعل ذلك فسوف نزعزع كرامتنا ونفقد سعادتنا الأبدية.

لقد أعطى سيدنا محمد ﷺ - بما تميز به من أخلاق رفيعة وعظيمة - هدية للبشرية جمعاء، وهي حضارة التخلق بالأخلاق الحميدة وحسن المعاملة مع الناس. وإن أولياء الله عز وجل وأحباءه هم ورثة الأنبياء والرسل عليهم السلام. لأنهم تابعوا وبكل صدق وإخلاص طريق الفضيلة التي مشوا فيه، وحرصوا على أداء سننهم المباركة.



وإن أهم الفضائل في الأخلاق المثالية للأنبياء والرسل، والصالحين والأولياء هي: العفووالصفح لوجه الله ﷻ عن الأذى والتعذيب الذي يواجهونه في سبيل الله أيضا. ومقابلة الشر والأفعال القبيحة بالخير والحسنة.

وبذلك يكون أولياء الحق ﷻ قد نقلوا الناس من حولهم إلى قصور قلوبهم التي امتلأت بالرحمة والعطف، لكي يوقظوا عقولهم ويُحيوا صدورهم التي تحولت إلى أماكن مهجورة وخالية من الخصل الحميدة، وبعيدة عن لباقة ولطافة ورقة الإسلام. وهذا الخلق هو في نفس الوقت أسعد خبر يتلقاه الإنسان في رمقه الأخير.

وكما قال الله ﷻ في الآية الكريمة:

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد، ٢٢)

فمن أراد أن ينال عفو الله ﷻ ورحمته، فعليه أن يعفوويصفح عن الناس على أخطائهم وعثراتهم، وأن يقابل الشر الذي يواجهه من الآخرين بالخير. وعليه أن يتخذ ذلك دستوراً له في حياته. حيث أن جميع الشخصيات القدوة التي أرسلها اللهﷻ كالأنبياء والرسل والصالحين والعلماء والمرشدين، كانوا يتحلون بهذه الأخلاق الحميدة والرفيعة.



لا تثريب عليكم اليوم

إن تعامل سيدنا يوسف عليه السلام مع إخوانه حسب ما ورد في القصة التي وردت في القرآن الكريم، إنما هو نموذج مثالي عن إصلاح من يعمل السوء وردعه عن عمله بمقابلته بفعل الخير والحسنات.

لقد أحس سيدنا يعقوب عليه السلام بالميزات المعنوية والروحانيات التي تميز بها ابنه يوسف عليه السلام عدا عن إخوته الإثني عشر. فكان قلبه يشعر بالتقرب إليه أكثر من بقية أولاده. وذلك ما كان السبب في نُمُوِّ شعور الغيرة عند الإخوة تجاه سيدنا يوسف عليه السلام. لدرجة أنهم بدؤوا بالتفكير بكيفية الخلاص منه، فألقوه في بئر للماء.

وقد نجا سيدنا يوسف عليه السلام من البئر على يد أناس في قافلة تجارية مرت من ذلك المكان. وأُخذ إلى مصر، وبيع على أنه عبد رقيق. فاشتراه ملك مصر آنذاك. وبعد عدة مواقف وامتحانات مر بها سيدنا يوسف عليه السلام، ارتقى إلى منصب أمين السر في بيت مال الدولة. وكانت وظيفته هي توزيع الطعام والمواد الغذائية على الناس في سنوات القحط. وجاء إخوته لكي يأخذوا نصيبهم من الغذاء. فعرفهم سيدنا يوسف عليه السلام وحجب شخصيته عنهم حتى لا يعرفوه.

وكان في وضع يسمح له بسهولة القدرة على الاِنتقام منهم على ما فعلوه له سابقاً. ولكنه لم يعاقبهم ولم يوبخهم، بل قام



بتقديم عدد لا متناه من المساعدات والتسهيلات لهم. فبُهت إخوته أمام هذه الفضائل التي قدمها لهم وأقروا معترفين بحقيقة الخجل والإحراج الذي أصابهم قائلين:

«إنك أنت يوسف. وقد أعلى شأنك ورفع مستواك ومنصبك»

فأبدى لهم سيدنا يوسف عليه السلام فضيلة أخرى بما تكلم معهم بأسلوب لين وأنيق ومعزز لعلاقات الأخوّة المبنية على التسامح والعفووالصفح، وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

(يوسف، ٩٢)

وثبّت إحسانه إليهم بقوله: «لقد دخل الشيطان بيننا في تلك الأيام التي خلت». وهذه هي الفضيلة الحقيقية، وهي أن تعفووتصفح عن الآخرين بنية كسب الأجر والثواب في الآخرة. وخاصة إذا كنت في وضع المقتدر على المعاقبة او الأتقام. إن الأنتقام من أي شخص، أو الأنفعال لأي أمر شخصي هو إشباع للغريزة النفسية. وهو وسيلة لأِستعراض القوة والمباهاة والأفتخار بها. والمؤمن الذي حصل على هذا الإمكان وهذه الفرصة لوأنه استطاع أن يكبت غضبه وفورانه، ويعفوويصفح عن من أغضبه، ويحسن إليه، فإن ذلك يدل على الأصالة الروحية التي لا مثيل لها. لأن كبت الإنسان لمشاعر الأنتقام والغضب، والعفووالصفح من بعد ذلك، ليس بالأمر السهل أبداً.



وإن قسم الغضب في كتاب الحياة هو عبارة عن أكثر الأقسام المليئة بالحوادث والنتائج المؤلمة والمروعة على مر العصور والأزمان. فالغضب هوحالة جنون قصيرة ومؤقتة يكون العقل فيها خارجاً عن السيطرة. وإن أفضل طريقة للخلاص من هذه الحالة هي أن يتحلى الشخص بالأخلاق التي تجعله يكسب الأجر الكبير والثواب الوفير عند الله ﷻ، كالعفووالصفح والحِلم.

ومن يتميز بهذه الصفات الحميدة والرفيعة فقد بشرهم الله ﷻ وقال عنهم كما ورد في الآيات الكريمة:

﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران، ١٣٣-١٣٤)

أي أن المؤمن الذي يريد أن يقابل الشر الذي واجهه بأخلاق الإسلام الرفيعة، عليه أن يتبع الخطوات الثلاث التالية:

١- التغلب على الغضب.

٢- العفووالصفح عن من أَخْطأَ.

٣- الإحسان إليه.



إني لم أبعث لعانًا

إن حياة سيدنا محمد ﷺ حافلة بقمم مظاهر القدرة على مقابلة الشر بالعفووفعل الخير. وبإمكانه ﷺ بعطفه ورحمته وحبه أن يحيط العالم بأسره بالخير والهناء. لأنه قد أُرسل رحمة للعالمين. وطُلب يوماً من النبي ﷺ أن يلعن المشركين الذين بالغوا جداً في إيذائه وتعذيبه. فقال ﷺ:

"إني لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمة". (مسلم، البر، ٨٧)

لأن روحه الزكية بكونها منجم لا مثيل له للعطف والرحمة والشفقة ورقة القلب. وكان هدفه الأكبر ﷺ هو نجاة البشرية بأكملها.

وعندما ذهب سيدنا محمد ﷺ إلى الطائف لتبليغ الرسالة، قابله أهل هذه المدينة الجهلاء وعَبدة الأصنام برميه بالحجارة حتى أدموا قدمه الشريفة. فبينما كان ﷺ في طريق العودة ويمشي حزيناً ومهموماً، أرسل الله ﷻ جبريل عليه السلام مع ملَك الجبال ليخففوا عليه ويهدّئوا من روعه. فقال ملك الجبال أنه إذا أراد النبي ﷺ فإنه باستطاعته أن يطبق الجبلين على رؤوس أهل الطائف جميعاً. ولكن الرسول ﷺ الذي أرسل رحمة للعالمين رفض وقال:

"لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا"

(البخاري، بدء الخلق، ٧؛ مسلم، الجهاد، ١١١)

وقاوم أهل الطائف واستمروا على الإلحاد حتى السنة التاسعة للهجرة. وكبّدوا المسلمين خسائر كبيرة، مادية ومعنوية. وفي النهاية لم يستطع المسلمون الصبر عل ذلك أكثر، فناشدوا النبي ﷺ قائلين:

قالوا يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم قال:

"اللهم اهد ثقيفاً وَأْتِ بِهِمْ".

وبعد فترة من الزمن جاء أهل الطائف إلى المدينة المنورة، ونالوا شرف الدخول في الإسلام. (انظر: الترمذي، المناقب، ٧٣/ ٣٩٤٢؛ ابن هشام، ٤، ١٣٤)

وقد شكل رسول الله ﷺ نموذجاً مثالياً عن إحدى أكبر مظاهر الفضيلة الرفيعة والخلق الرائع يوم فتح مكة المكرمة. حيث كان المشركون قد ظلموا المسلمين لسنوات طويلة ظلماً وقهراً لا يُحتملان. وأَروْهم جميع ألوان العذاب بدون رحمة. ثم جاء ذلك اليوم الذي وقع فيه مشركومكة المكرمة أسرى في يد المسلمين. وكانت الكلمة التي ستخرج من بين شفتي رسول الله ﷺ كافية لأن ينالوا العذاب الشديد والعقاب الذي يستحقونهُ. ولكن النبي ﷺ سألهم: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا ترَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخ كَرِيم. فإني أقول لكم كما قال أخي يوسف لإخوته: **{لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}** (يوسف، ٢٩)

اذهبوا فأنتم الطلقاء) (ابن هشام، ٤. ٣٢؛ الواقدي، ٢، ٨٣٥؛ ابن سعد، ٢. ١٤٢-١٤٣)



فتلاشى البغض والحقد في قلوب أهل مكة المكرمة، تجاه المسلمين بسبب هذه الفضيلة الرفيعة والأخلاق الحميدة التي أبداها رسول الله ﷺ والتي تعبر عن العطف والرحمة. وبذلك عَمَّت في قلوبهم مشاعر الحب والأخوة والصدق والإخلاص.

ونال الكثيرون منهم شرف الدخول في الإسلام، وامتلأت قلوبهم بحرارة الإيمان. وكأن الآية الكريمة التالية قد تجلّت على أهل مكة المكرمة ذاك اليوم:

﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت، ٣٤)

وفي الحقيقة فإن ابن آدم يتأثر بالإحسان والفضيلة ويضعف أمامهما. وهذه الصفات الحميدة كافية لإصلاح نفوس أكثر الأعداء شراً وبغضاً، ولنشر المحبة والأحترام بين الناس في جميع المجتمعات.

أفضل وسيلة لدفع البلاء

ليس من الحكمة أن تحسن لمن أحسن إليك وتظلم من ظلمك. بل الحكمة الأساسية هي أن تحسن لمن ظلمك وآذاك. لأنه إذا أحسن الشخص لمن ظلمه فسيكون سبباً في زوال وتلاشي البغض والحقد والكره والعداوة بينهما. فإذا كانوا أعداء سابقا فسيصبحون أصدقاء متحابين نتيجة ذلك التصرف الناضج. وإذا

كانوا في الماضي أصدقاء ولكن لعب الشيطان دوره بينهما وأبعد كُلاً منهما عن الآخر، فسوف تزول كل المشاكل وسيتقربون إلى بعضهم البعض بعد ذلك التصرف. أما إذا كانوا حميمين متحابين سابقا، فسوف تزداد المحبة والصداقة والإخلاص بينهما. ويصبح الخير والإحسان بمثابة الستارة التي تمنع الشخص من العودة إلى الظلم وعمل الشر عندما يُقابل عمله السيئ بالعمل الخيّر والإحسان من قبل الآخرين.

وشرح سيدنا جلال الدين الرومي هذا الخلق النبوي الرفيع شرحاً جيداً ووافياً، حيث قال:

«اعلم أن رحمة الله ﷻ هي وبشكل دائم غالبة على عذابه وسخطه. ومن هذا المنطلق فقد تغلب جميع الأنبياء والرسل على أعدائهم الذين كانوا ضدهم».

وقال أيضاً:

«ليس الظلم هو الوسيلة لدفع البلاء، بل الوسيلة الفعالة والمؤثرة هي العفووالصفح وإظهار الكرم والإحسان. وليكُنْ الحديث الشريف "إن الصدقات تدفع البلاء" دائماً في نصب عينيك. وافهم جيداً بعد ذلك أساليب معالجة البلاء والأمراض الأِجتماعية».

وقد عرض سيدنا محمد ﷺ فضيلة العفو والصفح في كثير من المواقف التي كان بإمكانه فيها أن يعاقب المجرمين بكل سهولة. بل فضل ﷺ أن ينجّيهم نجاة أبدية في السعي في إصلاحهم بقيامه



بهذه التصرفات الرفيعة المبنية على الأخلاق الحميدة. لأن العظمة الحقيقية والحكمة هي أن تستطيع أن تسيطر على نفسك أثناء الغضب. وأن تعفووتصفح عن غريمك وتحسن إليه في وقت تملك فيه القدرة والفرصة للأِنتقام مِنه ومعاقبته. وكما قال سيدنا محمد ﷺ في الحديث الشريف:

"ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب" (البخاري، الأدب، ٧٦)

وقد بشر الله ﷻ من تحلى بهذه الصفات الحميدة فقال كما ورد في الآية الكريمة:

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى، ٤٠)

ومن صفات سيدنا محمد ﷺ المميزة، عدا عن عفوه وصفحه عن الغير على تقصيراتهم وأخطائهم وعثراتهم، أنه يقابل الشر بعمل الخير، وذلك لتأسيس وغرس مفاهيم الأخوة والصداقة والطمأنينة بين الناس. ويجب علينا بصفتنا أمة لهذا النبي العظيم ﷺ، أن نتحلى بهذه الصفات الحميدة.

ولا يليق بالمؤمنين الحقيقيين أن يجعلوا المسامحة والعفووالصفاء بين القلوب وقفاً على الأعياد وأيام المناسبات



فحسب. بل إن اتخاذ تلك الصفات نمطاً طبيعياً ونهجاً أساسياً في الحياة، هو علامة الإيمان الحقيقي والمتكامل.

وهذه الأحاديث الشريفة التالية تقدم لجميع المسلمين معايير ومقاييس لا مثيل لها عن الأخلاق التي تبين لنا عظمة أُفق النبي الكريم محمد ﷺ في هذا المضمار، فورد في الحديث الشريف:

"لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا" (الترمذي، البر، ٦٣)

وورد في حديث شريف آخر:

"...صِلْ من قطعك، وأعطِ من حرمك، وأعرض عمن ظلمك" (أحمد بن حنبل، مسند، ٤، ١٤٨-١٥٨)

وورد في حديث شريف آخر:

"اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ" (الترمذي، البر، ٥٥/ ١٩٨٧)

وفي حديث آخر:

قال رسول الله ﷺ: "رأيت ليلة أسري بي قصوراً مستوية مشرفة على الجنة فقلت : يا جبريل لمن هذه ؟ فقال : للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين" (علي بن المتقي، رقم ٧٠١٦؛ العوارف، ص ٢٥٣)



وجوب العفو في المكان والزمان المناسبين

يجب التذكير بأنه علينا أن لا نظن أنه من الحكمة والفضيلة أن نميل إلى العفوعن الآخرين على جميع الأخطاء والتقصيرات. فموضوع العفووالصفح هو ما يهم شخصية وكرامة الشخص الذي أخطأ الناس بحقه أوظلموه. وهناك أخطاء وتقصيرات بمثابة التهجم على المقدسات الدينية والوطنية التي يحترمها ويقدسها المجتمع بكافة أفراده. فيجب في مثل هذه المواقف أن نلجأ إلى العقاب والجزاء للإصلاح، بدلاً من العفووالتجاوز عن تلك الأخطاء.

وذلك لإعلان الحق والباطل لتحقيق العدالة. لأنه من الوارد في مثل هذه الحالات إذا عفي عن مجرم، أن يُسبب ذلك تجاوزاً ًعلى حقوق الآخرين، وظلم الناس وظلم المجتمع بأسره. وكما ورد في الحديث الشريف عن سيدتنا عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها شارحة أسلوب الرسول ﷺ ونمطه في هذا المضمار، فقالت:

«ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن يُنتهك شيء من محارم الله فينتقم لله ﷻ» (مسلم، الفضائل، ٧٩)

وكما أن الغضب في الوقت والمكان الغير المناسبين يسبب الفساد والفتنة، فإن عدم الغضب في الوقت والمكان الذي يجب أن يغضب فيهما الإنسان يسبب نفس النتيجة أيضاً. وهذه النتيجة



إنما هي تحلل أخلاقي وضعف في التربية الأِجتماعية. فالبغض في سبيل الله ﷻ عند الضرورة هو أيضاً من مقتضيات الإيمان.

ففي الحروب على سبيل المثال، فكون المسلم شديد وقاس تجاه عدوه، هو تعبير أصيل وصحيح عن الغيرة الإيمانية، والغضب في الله ﷻ. وهذا هو علامة التمسك بالدين وحب الوطن في نفس الوقت. وإظهار الشدة والغيرة نفسها تجاه الذنوب التي تُرتكب بحق المفاهيم والقيم المعنوية والوطنية، وبحق حقوق المجتمع، إنما هي علامة تشير إلى أصالة الإيمان وترسخ العقيدة في النفوس.

وحياه سيدنا محمد ﷺ مليئة بالأمثلة القيّمة والرفيعة عن المعايير والمقاييس الأخلاقية التي تدل على الفضيلة وحسن الأخلاق. وشكل ﷺ نموذجاً مثالياً لأمته ليس بالعفووالصفح عن من يخطئ بحقه ومن يتجاوز على حقوقه الشخصية فحسب، بل وكان يبدي قمة الفضيلة بالإحسان إليه أيضاً.

أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُم؟!

وقد عرض لنا سيدنا أبوبكر الصديق رضي الله عنه الذي كان متفانياً في التضحية في سبيل رسول الله ﷺ، عرض أمثلة لا تعد ولا تحصى عن مقابلة الشر والظلم بالعفووالصفح والإحسان. كما ورد في هذه القصة المليئة بالعبر:



كان سيدنا أبوبكر الصديق رضي الله عنه يساعد وبشكل مستمر فقيراً يُدعى مسطح. وعندما عرف بأن مسطح هو أحد المفترين على بنته السيدة عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك، فأقسم أنه لن يحسن إليه وإلى عائلته بعد ذلك اليوم. فصارت حالته في الحضيض بعد انقطاع مساعدات سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه. فنزلت بناء على ذلك هذه الآيات الكريمه:

﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور، ٢٢)

ونزلت أيضاً الآية الكريمة التالية:

﴿وَلاَ تَجْعَلُواْ اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة، ٢٢٤)

وبعد نزول هذه الآيات الكريمه قال سيدنا أبوبكر الصديق رضي الله عنه:

بَلَى وَاللَّهِ إِنِّى لأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِى. فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِى كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَقَالَ وَاللَّهِ لاَ أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَداً. (البخاري، المغازي، ٣٤؛ مسلم، التوبة، ٥٦؛ الطبري، التفسير، ٢، ٥٤٦)

حيث أن العفوعن عباد الله ﷻ مرة تلوالأخرى بهدف الوصول إلى مرتبة استحقاق عفوالله ﷻ ورحمته، هو أفق وهدف لا يمكن الاِستغناء والتخلي عنه بالنسبة للمؤمنين الحقيقيين.

كم من الإحسان مقابل الظلم ؟!

سأل في يوم من الأيام الصحابة الكرام ﭫ سيدنا محمداً ﷺ عن سبب شدة حبه لسيدنا علي كرم الله وجهه ورضي عنه. فأمر سيد الكون ﷺ بأن ينادوا سيدنا علياً. فذهب أحد الصحابة ليناديه. فقال سيدنا محمد ﷺ لأصحابه قبل أن يأتي سيدنا علي:

"يا أصحابي... إذا أحسنتم لأحد من الأشخاص فظلمكم. ماذا تفعلون؟".

فقال الصحابة الكرام ﭫ بأنهم يقابلون ذلك بالإحسان أيضاً.

فقال سيدنا محمد ﷺ لأصحابه مرة أخرى:

"وإن ظلمكم أيضاً بعد ذلك.. ماذا تفعلون؟!"

فكرر الصحابة الكرام ﭫ بأنهم يقابلون ذلك بالإحسان أيضاً.

فقال سيدنا محمد ﷺ لأصحابه:

"وإذا ظلمكم مرة أخرى.. فما أنتم فاعلون؟!".

فطأطأ الصحابة الكرام رؤوسهم ولم يستطيعوا الرد بكلمة.

وعندما جاء سيدنا علي كرم الله وجهه سأله النبي ﷺ قائلاً:

"يا علي.. ماذا تفعل برجل أحسنت إليه فظلمك؟"

فقال سيدنا علي كرم الله وجهه بأنه يقابل الظلم بالإحسان. وعلى الرغم من تكرار سيدنا محمد ﷺ نفس السؤال لسبع مرات، فلم يتغير جواب سيدنا علي، وكان في كل مرة يقول: «أقابل الظلم بالإحسان».



وورد عن سيدنا علي كرم الله وجهه ما يلي:

«من قابل إحساني بالسوء وبالظلم، فإني سأحسن إليه أكثر».

وورد عنه أيضا ما يلي:

«إن أسوء الناس هو من يقابل الإحسان بالظلم وبالسوء. وأفضل الناس هو من يقابل الظلم بالإحسان والخير».

وقال أيضاً رضي الله عنه: «أحسن بدون أن تفكر أنك ستُقابل بالظلم والشر».

الإنسان عبْدُ الإحسان

ورد في الأخبار بشكل متواتر أن أحداً ما شتم علياً حفيد سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. فقام بدوره بخلع عباءته الباهظة والمرصعة بالحلي، وأعطاها لذلك الرجل الذي شتمه. وأمر بإعطائه ألف درهم فوق ذلك. وبذلك التصرف الذي بدر عنه يكون قد حقق خمسة فضائل في نفس الوقت:

الفضيلة الأولى: الحلم، حيث أنه لم يغضب.

الفضيلة الثانية: أنه أزال الأذى.

الفضيلة الثالثة: أنه نجّى الرجل من الأِبتعاد عن الله ﷻ.

الفضيلة الرابعة: أنه كان السبب في ندم الرجل وتوبته.

الفضيلة الخامسة: أنه جعل الرجل يمدحه ويثني عليه بعد أن كان يشتمه ويذمه.



وشتم أحد الأشخاص سيدنا ابن العباس ﵁، فلم ينطق ابن العباس بكلمة واحدة. ثم التفت إلى عكرمة الذي كان بجانبه وقال له: «لنسدّ حاجة هذا الرجل إن كان بحاجة».

عندها طأطأ الرجل رأسه من الخجل.

العيون التي تستطيع أن تذرف الدموع من أجل عدوها

إن قصة سيدنا فضيل بن عياض أحد أولياء الحق ﷻ هي مثال جميل ومعبّر عن معدن الروح الطيب الذي يتحلى به المؤمنون الحقيقيون. حيث يحكى عنه القصة التالية:

رأى الناس سيدنا فضيل بن عياض يبكي، فسألوه عن سبب بكائه، فقال:

«أبكي من ألمي وحسرتي على مسلم مسكين قد ظلمني. وكل حزني وألمي بسبب الحالة التي سيؤول إليها يوم القيامة بسببي».

وعندما قيل لسيدنا فضيل بن عياض أيضاً:

«إن فلاناً يغتابك، ويتكلم عنك وعن كرامتك بكلام بذيئ».

فقال فضيل: «إني والله لا أغضب منه. بل أغضب من الشيطان الذي جعله يتكلم بتلك الكلمات البذيئة». ودعا لله ﷻ بالدعاء التالي:

«اللهم إن كان فلان يقول الحق فاعف عني. أما إن كان يكذب فاعف عنه».



وكما كان سيدنا حسن البصري، فبدلاً من أن يغضب على أحد اغتابه، كان يشكره بإرسال الهدايا. لأنه كان خير العالمين بأن من يغتاب أحداً أخذ جميع ذنوبه وأضافها إلى ذنوبه. وأعطى بالمقابل حسناته للرجل الذي تعرض للغيبة من قبله ليضيفها على حسناته.

وسيدنا حلاج المنصور... الرجل الصالح الذي حاز على المكان الرفيع في قلوب العلماء وقلوب محبيه. وقد عرض إيثاراً معنوياً وفضيلةً روحانيةً كبيرة، حيث أنه عندما كان يُرجم، كان يدعوالله ﷻ بالدعاء التالي:

«اللهم اعف عن من يرجمني قبل أن تعفوعني».

وكان لسيدنا ربيع بن الهيثم حصان أصيل، وكانت قيمته تعادل خمسةً وعشرين ألف درهم. فسرق الحصان يوماً من أمام عينيه وهو يصلي. فبدلاً من يُلاحِقَ اللّصَّ ويحاول القبض عليه، تابع أداء صلاته بكل خشوع. فهرع أصدقاؤه الذين سمعوا بالخبر إليه لكي يهدؤوا من روعه ويواسوه على ما تكبده من ضرر كبير وخسارة فادحة. فقال سيدنا ربيع بن الهيثم: «لقد أحسست باللص بينما كان يحل عقدة الحصان. ولكنني كنت آنذاك منشغلاً بعمل أحبه كثيرا، وهو أهم من ذلك العمل. لذا لم أترك العمل المهم وألاحق اللص».

فشرع أصدقاؤه بعد ذلك بالدعاء على اللص. فأسكتهم سيدنا ربيع بن الهيثم وقال لهم:



«هوّنوا عليكم.. لم يظلمني أحد، بل ظلم ذلك الرجل نفسه. فلا تدعوا عليه وتظلموه فوق ظلمه لنفسه»[1]

كلٌ يبيع ما عنده من متاع

ذهب سيدنا عيسى عليه السلام إلى بعض اليهود لكي يبلغهم. فبدأ اليهود بالتكلم إليه بكلمات بذيئة، أما هو فخاطبهم بأسلوب جميل ولطيف. فقال له بعض الناس: «إنهم يخاطبونك بكلمات بذيئة، أما أنت فتستمر على الحديث اللطيف والحسن معهم».

فأجابه سيدنا عيسى عليه السلام قائلاً:

«كلٌ يبيع متاعه». أي أن كل تصرفات الشخص وأحواله وميزاته هي عبارة عن مرآة تعكس عالمه الداخلي. وكما أنه من المستحيل رسم خط مستقيم بواسطة مسطرة معوجة، فإنه من العبث انتظار تصرف جيد وخلق حسن من شخص شقي لم يَبْقَ في مرآة عالمه الداخلي أي بريق أولمعان يدل على النظافة.

فعلى هذا الأساس فإن مقابلة الشر بالشر هو من عادات الناس البدائيين الذين لم تنضج عقولهم، ولم يكتسبوا الخبرة الكافية في الحياة. والإحسان في أي مكان كان إنما يعكس المستوى الرفيع الذي وصله عالم الشخص الداخلي.

١. بابان زاده أحمد نعيم، الأساسيات في أخلاق الإسلام، ص ٨٥ –٨٦.



وهناك ثلاث درجات للفضيلة بالنسبة للإحسان الذي يقدمه الشخص للآخرين:

الدرجة الأولى: هي أن يقابل الشخص الإحسان بالإحسان. أي أن الشكر والثناء لشخص عل عمل خيّر قام به، هو من أهم وأبسط الواجبات التي يجب أن نؤديها. والأفضل من ذلك هو مقابلة العمل الخيّر بعمل خيّر أكبر منه.

الدرجة الثانية: هي الإحسان دون انتظار مقابل. وإن من يتصرف بهذا التصرف، ينال ثواباً أوفر من الثواب الذي يناله أصحاب الدرجة الأولى.

أما الدرجة الثالثة: الأهم والأفضل هي الإحسان لمن ظلم. لأن ثواب كل عمل حسن هو بقدر صعوبته. وإنه لعمل صعب جداً أن تطلب الخير لأحد قام بظلمك وبعمل السوء تجاهك. وكما ورد في المثل: «إن مقابلة الإحسان بالإحسان هو تصرف عامة الناس. أما مقابلة الظلم بالإحسان هو من ميزات الأخيار الذين يتحلون بالأخلاق الحميدة والرفيعة».

وكما قال مولانا جلال الدين الرومي:



«إن للماء مئات الصفات الحميدة، كالكرم، فهو يقبل القذرين وينظفهم من أوساخهم ويطهرهم. فعلى المؤمن الحقيقي أن يكون عزيزا كالماء، ومتواضعاً كعمق البحر. ويجب عليه أن يسعى ويجهد لكي تنضج شخصيته نضوجاً كاملاً، يستطيع من خلالها أن يوزّع الرحمة على الآخرين مهما واجه من الأمور التي تغضبه وتزعجه. ويجب أن يتميز بلمعان القلب الذي يعكس اللطافة ورقة القلب وجميع الأخلاق والصفات الحميدة».

وقال سيدنا جلال الدين الرومي أيضاً:

«كن كالتراب.. حيث أن التراب كريم وسخي جداً تجاه جميع الكائنات الحية على الرغم من أنها تدوسه بأسفل أرجلها. فيقدم لها ألذ وأشهى الأطعمة وأكثرها فائدة، بعد أن ينظفها من أوساخها بنفسه».

فكم من أمثلة رائعة يجب أن نقتدي بها إذا تأملنا في النعم التي رزقنا إياها ربنا سبحانه وتعالى، كالتراب والماء. فيجب علينا أن نضع الماء والتراب اللذيْن يشكلان أصل البشرية نصب أعيننا، ونتعمق في حكمة خلق هذين المخلوقين، لكي نستفيد منهما ونتخذ خصلاتهم الحميدة نموذجاً لنا في معيشتنا وأُفُقَاً لحياتنا.



اللهم ارزقنا المعدن النفسي النظيف، والبطانة الروحية الطاهرة.

ويسر لنا اللهم طريقنا في أن نكون كعبادك الصالحين الذين أرادوا الخير والإحسان للبشرية جمعاء. والذين استحقوا نيل عفوك وصفحك بعد أن عفوا عن الناس مراراً وتكراراً.

وارزقنا اللهم نيل نصيب من أحوال أوليائك، لكي لا ينتهي شعورنا بلذة تقربنا إِليك كالمنجم الذي لا يفنى من الكنوز...آمـين





الإبتسامة

إن غاية الدين الإسلامي هي تربية جيل من الناس يتصفون باللطف وجمال الأخلاق ورهافة الأحاسيس. والمؤمنون الحقيقيون بوجوههم البشوشة والمتبسمة هم دائماً في حالة نشر السلام والطمأنينة على الكون بأسره. وقد فتحوا نافذة في عالمهم الداخلي المليء بالروحانيات والمعنويات، لكي تتمكن جميع المخلوقات بالدخول والشعور بالطمأنينة والراحة النفسية.

حيث أن المؤمنين الحقيقيين قد غاصوا في التأمل والتفكر إلى أعماق حكمة تفتح الأزهار الجذابة، وتغريد الطيور الجميلة، وإثمار الأشجار المتنوعة. فاكتسبوا العادات الحميدة من الطبيعة الخلابة، فأصبحوا كالورود المرهفة في رقة الإحساس، وكالأشجار المثمرة في الكرم والعطاء...

الإبتسامةُ

إن الحياة الدنيا تمضي وكأنها عدد هائل من ظواهر المد والجزر. فأحياناً تمضي الأيام بالسعادة والفرحة والسرور، وأحياناً بالحزن والتشاؤم. وإن قلب الإنسان كمضافة يستضاف فيها العدد اللانهائي من المشاعر والأحاسيس. والألم والحزن والفرح والسعادة والسرور وما شابه من المشاعر والأحاسيس هي زوار وضيوف الإنسان الذي يستضيفها في هذه المضافة. ولا أحد من هؤلاء الزوار يبقى في المضافة إلى الأبد، بل يبقون لفترة ثم يذهبون. فيجب على المؤمن أن يتبدل في إظهار ردود فعله على المؤثرات والعوامل الخارجية، حسنة كانت أم سيئة. فيجب عليه أن لا يبالغ في الفرح، ولا في الحزن على الحوادث والأمور التي تمر به في حياته. وكانت حياة سيدنا محمد ﷺ الذي أرسل هدية قيّمة للبشرية جمعاء، وقدوة للناس بأخلاقه الحميدة التامة، كانت عبارة عن منظومة شعرية تجسد الألم والعذاب في أبياتها. وقد عبر بنفسه عن ذلك، كما ورد في الحديث الشريف عن النبي ﷺ أنه قال:

"لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ" (الترمذي، القيامة، ٣٤/ ٢٤٧٢)



ولكن الألم كله والعذاب الذي واجه الرسول ﷺ لم يزعزعه عن طريق الحق، ولم يقضِ على توازنه ومتانته. بل واجه كل الصعوبات برضاء كامل ونضوج بدني وعقلي رائع. وعلى الرغم من أن قلبه عانى الكثير من الأسى والألم، فإن البسمة لم تفارق وجهه المبارك أبداً. ولم يره أحد وهو غاضب أو عاقد الحاجبين أو بوجه عبوس، لأنه كان في تبسم دائم ضمن طمأنينة وسكينة الشعور بأنه مع الله ﷻ. وكان ﷺ يعكس في كل مكان وزمان وجه الإسلام البشوش المتبسم.

وقد انعكست جماليات الحياة المعنوية على وجوه الصحابة الكرام ﵃، الذين ضحوا بحياتهم في سبيل الله ﷻ وفي سبيل نبيه الأكرم محمد ﷺ، وعلى وجوه الأولياء والصالحين. فكانوا متبسمين دائماً. وكما قالت أم الدرداء ﵂:

«كَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَا يُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ إِلَّا تَبَسَّمَ فِيهِ فَقُلْتُ لَهُ إِنِّي أَخْشَى أَنْ يُحَمِّقَكَ النَّاسُ فَقَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ إِلَّا تَبَسَّمَ» (مسند أحمد، ٥، ١٩٩)

وكان تبسم سيدنا محمد ﷺ الدائم كزهرة تفتحت ورُسمت على وجهه المبارك الذي شكل أجمل وأفضل مثال معبر عن طمأنينته وسكينته وفرحته بوجوده مع الله ﷻ. إن جميع الناس يشعرون بنشوة عندما يفرحون، ولكن، وبما أن لكل شيء حداً، فإن للفرحة مقياساً وحداً يليق بها. فكما أنه من الخطأ أن يدفن الإنسان

نفسه في الألم والحزن لدرجة المرض، بسبب مصيبة مرت عليه، أوحادث حدث له، فإبداء مشاعر الفرح والسعادة بشكل مبالغ فيه لدرجة أن يفقد صوابه هو أيضاً من الخطأ، وهو من الأحوال التي تجعل الإنسان يفقد كرامته وكبرياءه وعزة نفسه في المجتمع.

ويجب على المؤمن أن يكون دائماً ذوقلب رقيق ولطيف ومرهف الإحساس. ويجب عليه أن يحافظ على الأبتسامة الحلوة على شفتيه. لأن الإبتسامة هي وقار للمؤمن بخفتها واعتدالها، بينما تتسبب المبالغة في الضحك بالقهقهات في فقدانه لذلك الوقار. وتكسبه أيضاً بحلاوتها ورقتها جاذبية فريدة من نوعها.

وقد نوه سيدنا جلال الدين الرومي إلى أن الضحك الذي يعتقد الناس أنه تصرف عابر، أنه في الحقيقة ردة فعل صادقة تعبر عن شخصية الإنسان وتكشف عن طريقة تفكيره ونمطه في الحياة. فقال في صدد هذا الموضوع:

«إنني أعرف أخلاق الشخص عن طريق أسلوبه في الضحك. وأعرف عقله وطريقة تفكيره عن طريق السبب الذي يُضحكه ».

ويجب أن لا ننسى أن الضحك بالقهقهات أكثر من اللزوم، وإبداء مظاهر الفرح والسعادة بشكل مبالغ فيه، يوقع الإنسان في الغفلة والضلالة، ويُنسيه بأنه معّرض للأَمتحانات في هذه الحياة، وأن السعادة الحقيقية لا تكون إلا في الآخرة. وسبب هذه الحالة السيئة هو وقوع القلب في أسر الفرحات الفانية والسطحية المؤقتة.



وفي حال استمرار هذه الحالة لفترة طويلة من الزمن، فتصبح القهقهات السعيدة والمرحة سُمّاً يسمُّ الروح، ويُفقد القلوب نعومتها ورقتها، فتميل إلى القسوة، فتصبح جلفة وفظة.

وقد نبهنا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خصوص خطورة الضحك بإفراط، والأضرار التي تسببها معنويا للشخص، فقال:

(من كثر ضحكه قلت هيبته ومن كثر مزاحه استخف به ومن أكثر من شيء عرف به ومن كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه و من قل ورعه مات قلبه) (البيهقي، شعب الإيمان، ٤، ٢٥٧)

والغفلة التي هي أهم سقم ومرض معنوي، تخدع الشخص وتجعله يؤمن بأن السعادة التي يعيشها هي دائمة وباقية من أجله. وتنسيه الأمور الأساسية والجدية كالموت الذي سيلاقيه، والبعث الذي ينتظره، والصراط وما إلى ذلك من الأمور والمواضيع التي يجب أن يتفكر ويتأمل فيها كثيراً. وبذلك يكون قد غفل عَمَّا يجب أن لا يغفل عنه. وقد ورد هذا الوصف لابن آدم على العموم في القرآن الكريم. فكما قال الله ﷻ في الآيات الكريمة:

﴿**وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ، وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ**﴾ (النجم، ٦٠-٦١)

وكما قال سيدنا محمد ﷺ في هذا المضمار:

"**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**" (البخاري، التفسير، ٥/ ١٢)

وقد نصحنا سيدنا جلال الدين الرومي موضحاً تلك الحقائق بنصيحة مليئة بالعبر، حيث قال:

«يبكي العقلاء في البداية. ثم يُغمرون بالإبتسامات في النهاية. أما الحمقاء، ففي البداية يُغرقون أنفسهم بالقهقهات، وفي النهاية يضربون رؤوسهم بالحجارة من شدة الندم. فيا ابن آدم.. كن صاحب فراسة ونباهة، وحاول أن ترى نهاية الأمور وهي في بدايتها. لكي لا تحترق نفسك بنار الندم يوم الجزاء العظيم».

ويقص لنا سيدنا الإمام الغزالي القصة التالية:

(قال رجل لأخيه يا أخي هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم. قال فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال: لا. ففيم الضحك قيل فما رؤي ضاحكاً حتى مات) (الإحياء، ٣، ٢٨٨)

حيث أنه لا يوجد عبد عدا الأنبياء متأكد من أنه سيدخل الجنة.

رأى وهيب بن الورد قوماً يضحكون يوم الفطر فقال:

«إن كان هؤلاء تقبل عنهم صيامهم فما هذا فعل الشاكرين و إن كان هؤلاء لم يتقبل منهم صيامهم فما هذا فعل الخائفين» (الإحياء، ٣، ٢٨٨)

وقال محمد بن واسع:

«إذا رأيت في الجنة رجلاً يبكي ألست تعجب من بكائه؟ قيل بلى. قال: فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصير هو أعجب منه» (الإحياء، ٣، ٢٨٩)



وتحتوي هذه الحال على مقياس مهم للمؤمن في كسب شخصية مبنية على أخلاق الإسلام وخصائله الحميدة. أي أنه يجب على المؤمن رسم السكينة والطمأنينة على وجهه ليبدوكمرفأ هادئ ورائق، مع أنه في الحقيقة يغلي كالبركان بسبب التردد الدائم والعظيم الذي يعيشه في عالمه الداخلي، والناتج عن عدم معرفته المكان والمستقر الذي سيذهب إليه في الآخرة. فيجب عليه أن لا يفرح كثيراً لدرجة أن يفقد نفسه، وبالمقابل أن لا يحزن كثيراًلدرجة الإكتئاب.

ويجب على المؤمن أن يتخذ موقفاً لقلبه بين الخوف والرجاء. أما موقف الخوف؛ فلكي لا تنغرّ نفسه بالأعمال التي يقوم بها، فيكون في حالة الاِلتجاء الدائم لله ﷻ خوفاً من عذابه. وأما موقف الرجاء؛ فلكي يكون في أمل دائم من رحمة الله ﷻ، وبهذا الأمل يكون قد تخلص من القنوط من رحمته. ويكون قد نجا من الوقوع في شباك الإكتئاب.

وقال خالد البغدادي في رسالة كتبها لطلبته:

«أقسم بالله العظيم أني لا أظن أني قد عملت خيراً - منذ ولدت وحتى الآن - سيحاسبني الله ﷻ ولا أظن أنَّه سيقبله مني. ولكني أرجو رحمته فحسب. فلا تحرموا هذا العبد الفقير من الدعاء بالتوفيق وحسن الخاتمة».

ومن وجهة نظر أخرى، فإن الاِبتسامة تعبر عن موقف الاِعتدال ذاك. حيث أن الاِبتسامة هي جزء من طبيعة المؤمن الأساسية.



ولكن هناك آفة وكارثة لمثل هذا التصرف الجميل، وهي أن يبتسم الإنسان بنية سيئة وغير سليمة. والإبتسامة المبنية على سوء النية، والتي لا تنال اهتمام أحد، إنما هي في الحقيقة سبب من أهم أسباب العذاب في الآخرة، إذا كان الهدف منها هو الغرور والتكبر واستحقار الآخرين والاِستهزاء منهم.

وقال سيدنا ابن العباس ﵁ في تفسير الآية الكريمة:

﴿... يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا...﴾ (الكهف، ٤٩)

إن الصغيرة التبسم بالإستهزاء بالمؤمن والكبيرة القهقهة بذلك وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر.

(الإحياء، ٣، ٢٩٤)

ابتسامة المؤمن على وجهه، وحزنه في قلبه

وعلى ضوء جميع هذه الحقائق نرى أن المؤمن بحاجة لقدر معقول من الحزن والتردد في قلبه، لبناء الموقف المعنوي والروحي الذي يليق به. إضافة إلى أنَّ وجهه يجب أن يكون منوراً بابتسامة لطيفة دائماً، حتى ولوكان قلبه مهموماً ومغموماً.

وكما قال سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه:

«ابتسامة المؤمن على وجهه، وحزنه في قلبه».



أي أن حزن المؤمنين الحقيقيين بسبب تفكيرهم بالأخطاء والنقائص التي يرتكبونها بحق العبودية لله ﷻ، يظهر عندما يَخْتَلُونَ بأنفسهم بعيدين عن الناس، فتنسكب دموعهم، وخاصة في أواخر الليل وعند الفجر.

فبمحاسبتهم لأنفسهم وبتفكرهم بأخطائهم ونقائصهم، وبتنظيفهم لمرآة قلوبهم وصدورهم بدموعهم، يكونون في نفس الوقت قد شكلوا منبعاً قوياً للنور الذي ينعكس على وجوههم.

وكما شرح لنا سيدنا جلال الدين الرومي عن حكمة النور على وجه أولياء الحق ﷻ:

«إني لا أستطيع أن أرى وجهي، بل أستطيع أن أرى وجهك. وإنك لا تستطيع أن ترى وجهك، بل تستطيع أن ترى وجهي. فالذي يستطيع أن يرى وجهه، هو الشخص الذي طغى نوره على نور بقية الناس. فأحد أسباب نور الوجه، هو أن يكون بمقدور الشخص أن ينظر إلى نفسه، ويستطيع أن يرى ويلاحظ نواقصه وأخطاءه قبل أخطاء ونواقص غيره. وهذا هو منبع النور المضيئ من وجه العلماء والصالحين الذين وصلوا إلى نشوة الشعور بحكمة «**من عرف نفسه فقط عرف ربه**». ولهذا السبب يقال أن «لا حكمة ولا عرفانَ أكبر من أن يعرف الشخص نقائصه وتقصيراته».

وكما قال مولانا عبد القادر الجيلاني:

«يظهر المؤمن وجهه البشوش للناس على أنه سعيد، ولكنه في



الحقيقة حزين بينه وبين نفسه... إن تفكّر المؤمن وتفكيره وبكاءَهُ كثير، أما ضحكه قليل. لأنه يُخْبِئُ الحزن الذي في قلبه بالأِبتسامة التي يرسمها على شفتيه. ويظهر للناس خارجياً على أنه منشغل بتأمين قوته وعيش عائلته، مع أنه منهمك داخلياً بذكر الله جَلَّ جَلَالُهُ. ويبدوعليه بأنه منشغل بالأمور الدنيوية، مع العلم أنه داخلياً مرتبط ومنشغل بالله عَزَّ وَجَلَّ. فابتعد يا هذا عن الأنخداع بالدنيا وملذاتها، وابتعد عن الفحشاء والمنكر والبغي، وقلل شيئاً بسيطاً من سعادتك وفرحتك، وكن حزيناً نوعاً ما. واعلم أن الرسول الأكرم ﷺ كان يبتسم لإسعاد الآخرين» وكان يأمر بالأِبتسامة.

إن مبالغة الإنسان في الضحك هي حالة الإفراط، أما حزنه الشديد وظهوره على أنه متشائم ويائس هو حالة التفريط. وكلا الحالتين عبارة عن كوارث وآفات تؤثر سلبيا على القلوب المؤمنة. أما الإعتدال في كِلْتي الحالتين والموقف المعقول والمقبول هو التبسم.

حالة التبسم عند سيدنا محمد ﷺ

التبسم هو الضحك الخفيف والصامت، والذي يظهر فيه قسم من الأسنان. وكان سيدنا محمد ﷺ يضحك كذلك. ولم يكن في ضحكه أي مبالغة أوإفراط كالضحك بالقهقهة.

وكما قالت سيدتنا عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

«مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ مُسْتَجْمِعًا قَطُّ ضَاحِكًا حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ» (البخاري، الأدب، ٦٨ ؛ مسلم، الاستسقاء، ١٣)



وحسب ما روى الكثير من الصحابة الكرام ﭫ، أن الرسول الأكرم محمداً ﷺ كان أفضل الناس خلقاً، وأكثرهم لطافة في التعامل مع الآخرين. وكان مبتسماً دائماً، وكان في وجهه نور وإشعاع لامعٌ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ قَالَ:

«لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَقِيلَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ فَلَمَّا اسْتَثْبَتُّ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ **عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ** وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»

(الترمذي، القيامة، ٤٢/ ٢٤٨٥؛ ابن ماجة، الأطعمة، ١، الإقامة، ١٧٤)

إن وجه الإنسان ومظهره الخارجي هو مكان العرض الذي يستطيع الناس رؤيته. وهناك لسان الجسد المختلف تماماً عن الألسنة الموجودة عند جميع المخلوقات. أي أن الإنسان يعبر عن مشاعره وتفكيره، حتى وإن لم ينطق بلسانه. وهناك علامة تدل على الوضع النفسي والروحي للإنسان تظهر على وجهه. وإن كل الوجوه عبارة عن مترجم للعالم الداخلي لدى الإنسان. فتترجم للعيون التي ترى ما يدور في ذلك العالم الداخلي. لذا فإن الأِبتسامة الخفيفة والرقيقة المرتسمة على الوجوه هي أصدق وأفضل انعكاس للعالم الداخلي للإنسان. وقال مولانا جلال الدين الرومي:



«إذا أردت أن تشتري رماناً، فانتق الرمان الذي قد تشققت قشرته الخارجية من كثرة الضحك. لكي تخبرك هذه الضحكة عن الحبيبات الموجودة بداخل الرمان. وإن ضحك العلماء والصالحين هو ضحك مبارك لدرجة أنه يشبه علبة المجوهرات، المليئة بالألماس واللؤلؤ. كلما ضحكوا وفتحوا أفواههم ظهر بريق المجوهرات التي تعكس نصاعة قلوبهم وبريقها. إن الرمان الضحوك يضحك بمرحه الحقل والحديقة ويُدخل السرور على قلوب الجميع. وكلام العلماء والصالحين والأولياء يجعلك تحس بأنك جالس بينهم، ويشدك إليهم. فلوكنت حجراً قاسياً أوقطعة رخام، فستصبح جوهرة لامعة إذا وصلت لصاحب القلب المبارك».

وكان سيدنا محمد ﷺ يَمُرُّ من جانب الناس مبتسماً، مروراً ممتلئاً بالوقار والنور المرتسم على وجهه المبارك الذي يكفي لإنارة الدنيا بأكملها.

وكان ﷺ يستمع بدقة إلى حديث الناس وذلك لكي يسعدهم ويُدخل الفرحة إلى قلوبهم. وكان يبتسم لدرجة أن أسنانه التي تشبه اللؤلؤ كانت تظهر. وكان الصحابة الكرام ﷺ أثناء تحدثهم إلى النبي ﷺ يكتفون بالأِبتسامة الخفيفة مقتدين به.

قال سيدنا جرير بن عبد الله رضي الله عنه:

«مَا حَجَبَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْذُ أَسْلَمْتُ وَلَا رَآنِي إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي» (البخاري، الأدب، ٦٨)



وقال سيدنا عبد الله بن الحارث ﵁:

«مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» (الترمذي، المناقب، ١٠)

وورد في الأحاديث النبوية الشريفة ما يلي:

قال رسول الله ﷺ: **"لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق"** (مسلم، البر، ١٤٤)

وورد في حديث شريف آخر:

"كُلُّ مَعْرُوف صَدَقَةٌ وَإِنَّ مِنْ الْمَعْرُوفِ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ وَأَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ أَخِيكَ" (الترمذي، البر، ٤٥/ ١٩٧٠؛ مسند أحمد، ٣، ٣٤٤؛ البخاري، الأدب المفرد، رقم: ٣٠٤)

كان النبي ﷺ إذا سأله فقراء الصحابة ولم يكن عنده ما يعطيهم أعرض عنهم حياء منهم وسكت وهو قوله: {وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك} انتظار الرزق من الله تعالى يأتيك {فقل لهم قولا ميسوراً} ليناً سهلاً وكان إذا سئل ولم يكن عنده ما يعطي قال: يرزقنا الله وإياكم من فضله (الواحدي، الوجيز، الإسراء، ٢٨)

وبعد نزول هذا الأمر الإلهي فصار النبي الكريم يعامل الناس بالكلمة الطيبة لكي يدخل الفرحة والسرور إلى قلوب الفقراء والمحتاجين إن لم يجد ما يتصدق به عليهم.

إذاً فإن تبسم المسلم في وجه أخيه المسلم، وقوله كلاماً حسنا ًوجميلاً، وتبادل السلام بين بعضِهِمْ البعض إنما ذلك من العادات الأِجتماعية التي لها قيمة لا يُستَهَان بها. حيث أن التبسم هو سنة نبوية مؤكدة بالنسبة للمؤمنين.

حالة التبسم عند أولياء الحق ﷻ

إن المؤمنين الصالحين الذين عجنت أرواحهم بالأخلاق النبوية الشريفة يتبعون خُطا النبي ﷺ، ويقتدون به في جميع أعمالهم وأفعالهم، بكونهم من الشخصيات الرفيعة التي وصلت قلوبهم إلى مرتبة القلب السليم. فيدخلون السرور والطمأنينة والسكينة والهدوء بابتساماتهم اللطيفة إلى قلوب الناس وصدورهم. مثلهم كمثل فصل الربيع، فتصبح نظراتهم كالهواء العذب اللطيف الذي يدغدغ الأرواح ويهيج المشاعر الجميلة. ووجوههم المضيئة بالنور المبارك تذكّرنا دائماً بالله ﷻ وبالآخرة. لأنهم دائما في حالة استفادة متواصلة من أخلاق رسول الله ﷺ، وانعكاسها على جميع مجالات الحياة.

واللائق بأمة رسول الله ﷺ هو أن يتخلقوا بأخلاق الورد الذي حافظ واستمر على التحلي بالأخلاق الحميدة كاللطف والرقة على الرغم من رياح الحياة العاتية وعواصفها القاهرة والقاسية. كما تخلق بذلك رسولنا الكريم محمد ﷺ والصحابة الكرام ﵃ وأولياء الحق ﷻ. حيث أن الورد بحكمه يتحمّل ويصبر على أذى الشوك الذي في غصنها، فإنها برائحتها العطرة، وشكلها الجميل، ولونها الجذاب، في حالة تبسم دائم، وكأنها ترغب في أن تصرخ وتهتف للناس جميعاً قائلة:

«انظروا إليَّ بعيون قلوبكم وعقولكم، وابذلوا جهدكم لكي تكونوا مثلي».



وإن غاية الدين الإسلامي هي تربية جيل من الناس يتصفون باللطف وجمال الأخلاق ورهافة الأحاسيس. والمؤمنون الحقيقيون بوجوههم البشوشة والمتبسمة هم دائماً في حالة نشر السلام والطمأنينة على الكون بأسره. وقد فتحوا نافذة في عالمهم الداخلي المليء بالروحانيات والمعنويات، لكي تتمكن جميع المخلوقات بالدخول والشعور بالطمأنينة والراحة النفسية. حيث أن المؤمنين الحقيقيين قد غاصوا في التأمل والتفكر إلى أعماق حكمة تفتح الأزهار الجذابة، وتغريد الطيور الجميلة، وإثمار الأشجار المتنوعة. فاكتسبوا العادات الحميدة من الطبيعة الخلابة، فأصبحوا كالورود المرهفة في رقة الإحساس، وكالأشجار المثمرة في الكرم والعطاء...

وقال سيدنا جنيد البغدادي - أحد أولياء الحق ﷻ ومن تلاميذ سيدنا السرّي السقط وابن أخته- بأن أهم شرط من شروط الصداقة مع أخيك المسلم، هوأن تكون دائماً بشوش الوجه تجاهه. وأن تسعده وتدخل الفرحة إلى قلبه في كل وقت.

وقال سيدنا أبوعثمان الحيري أن شرط الصداقة هوأن تبدي بشاشة الوجه لأخيك المسلم بكافة الوسائل ما لم تقع في الإثم وما لم يكونوا في حالة الأِثم.

وقد بين أبوعبد الله سلامة أن بشاشة الوجه هي من الأوصاف المميزة التي يتصف بها أولياء الحق سبحانه وتعالى.

وقال سيدنا أسد بن حارث المحاسبي:

«إن الأخلاق الحميدة ملتزمة مع أربعة أمور..



١- الصبر على أذى الجهلاء والغافلين.

٢- عدم الغضب الشديد (أي أن تقول« سلاماً» لمن يتحرش بك من الجهلاء الذين لا يعرفون قدرهم وحدودهم).

٣ – إظهار وجه الإسلام البشوش.

٤ – أن تمتلك لساناً عذباً يسعد الناس ويشعرهم بالطمأنينة والرخاء.

وقد لخّص سيدنا حسن البصري الأخلاق الحميدة التي يجب على المؤمنين أن يتحلوا بها حيث قال: «إن أصل الأخلاق الحميدة هونشر الخير، وعدم إيذاء الآخرين، وبشاشة الوجه».

إن عجين المخلوقات قد عُجن بخمائر المحبة، وإذا نظرت بعين القلب إلى جميع المخلوقات وتأملت فيها فستلاحظ أن جميع هذه الكائنات الحية تحمل في أصلها إشارة وعلامة تعبر عن شعور المحبة الإلهية. وكل النعم التي رزقنا بها الله ﷻ، التي هي عبارة عن تجلي صفات جماله عليها، من حدائق وبساتين وينابيع، وورود وأزهار وفراشات بأزهى الألوان، وعصافير تغرد أحلى وأعذب الألحان، إنما جمبعها يذكّر الإنسان بالتبسم، الذي هوبمثابة شكر وثناء على كافة النعم الإلهية.

وكم هوحزين وفظيع أن يبقى الإنسان غافلاً عن كل هذه الحقائق الواضحة. وواجب العبد في هذا الخصوص هوإدراك وفهم هذا اللطف الإلهي، وشكره وثناؤه عليه بتبسمه لكافة المخلوقات.



والمؤمن الذي أحيا وأمضى حياته بالأعمال الصالحة وعبادة الله ﷻ، سيلقى أفضل وأجمل ابتسامة في رمقه الأخير في لحظة وفاته. وقد شُرح ذلك في القرآن الكريم، فقال الله ﷻ كما ورد في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت، ٣٠)

وورد أيضاً في آية كريمة أخرى:

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس، ٦٢)

وكم من خزينة من خزائن البسمة سينالها المؤمنون الحقيقيون في الآخرة، لأنهم استطاعوا أن يُظهروا بسمة الحب الإلهي على وجوههم ويقابلون بها جميع المخلوقات في الحياة الدنيا.

وقد قص الشيخ سعدي شيرازي قصة كتبها في كتابه (البستان) حيث قال: «كان رجل ذوأخلاق حميدة يحسن إلى الناس الذين كانوا يظلمونه ويعاملونه بالسوء. وكان يتكلم عنهم أحسن الكلام في غيابهم. وعندما توفي رآه أحد الناس في منامه، فسأله: (أخبرني.. ماذا حل بك بعد الموت؟). فابتسم الرجل الصالح ابتسامة حلوة كوردة تفتحت، ونطق بكلام عذب وجميل قائلاً: (إني لم أعامل أحداً معاملة قاسية وسيئة طوال حياتي، ولم أرِ أحدا وجها عبوساً وغاضباً أبداً، وقابلت جميع الناس بوجه ضحوك وبشوش، لذا لم يعاملوني هنا معاملة سيئة وقاسية أبداً) ».



ولا يمكن رؤية وجه عبوس ومتشائم عند أحد من أولياء الحق ﷻ، الذين ضحوا بقلوبهم وحياتهم في سبيل خالقهم ﷻ، ونبيه الأكرم ﷺ. فوجوههم تضفي الطمأنينة والسكينة على قلوب من يخاطبهم من الناس، وتحملهم إلى عالم روحاني مليء بالمعنويات. وهم أيضاً من يحملون الناس الحزينين والبؤساء، وينقلونهم إلى قصور قلوبهم لمواساتهم والوقوف بجانبهم وتخليصهم من همومهم، وكأن عالمهم الروحاني والمعنوي هذا هوعبارة عن مركز طبي يقصده الناس للنقاهة، ولمعالجة قلوبهم المريضة.

والحكمة الأساسية لهذه الطمأنينة والسكينة عند أولياء الحق ﷻ هي تخليص الناس من الهموم الدنيوية التي ترهق الروح، ومن مشاعر التملك والبغي والاِستيلاء، وحب الشهوات، وذلك بتذكيرهم بوجود الله ﷻ، وبوجود يوم القيامة ويوم الحساب.

بالإضافة إلى أنهم يوجهون الناس ويقنعونَهُمْ بأنه بعبادتهم وعملهم على تهيئة السعادة الأبدية في الآخرة، يكونون قد وصلوا إلى السعادة والطمأنينة والسكينة الحقيقية والراحة النفسية في الحياة الدنيا. وحكمة امتلاك أولياء الحق ﷻ وأوليائه الصالحين على وجوه مبتسمة وناضرة، هي المسؤولية التي قاموا بتوليها في توزيع الفرحة والسعادة على الناس وكافة المخلوقات. لأن التحلي بوجه بشوش، ولسان عذب ورقيق أثناء تقديم خدمة إرشاد الناس وإيقاظهم هوأمر إلهي عليهم أن يتقيدوا به. فالتبسم هو رابط معنوي وروحي بين الشخص وبين من يخاطبه. فعلى هذا الأساس فإنه لا



يوجد في نظر الله ﷻ أية طريقة ضرورية ومؤثرة أكثر من القول الحسن والوجه البشوش في إرشاد الناس ودعوتهم إلى الطريق الصواب. وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران، ١٥٩)

وقص الشيخ السعدي أيضاً قصة كتبها في كتابه (البستان)، وتتحدث عن أهمية الكلام العذب والوجه البشوش واللطافة أثناء تقديم خدمة الإرشاد للناس، فقال:

«كان أحد الشبان يبيع عسلاً. وكان عذب اللسان، وبشوش الوجه، ولطيفاً جداً لدرجة أن الناس كانوا يتأثرون بهذه اللطافة تأثراً كبيراً لدرجة الذوبان. وكان جميلاً حسن المظهر، وطويل القامة، وخصره كقصب السكر الذي أُسند على عود نحيل مستقيم وربط به. وكان لديه عدد كبير جداً من الزبائن. وكان الناس مطمأنين له لدرجة أنه لوباع سماً لاشتروه منه على أنه عسل. فرآه أحد الأشخاص العبوسين، وذُهل به وبعمله الذي يدرّ عليه الربح الوفير، فغار منه. وقرر أن يبيع هوأيضاً عسلاً. فوضع جرار العسل على عربة وبدأ بالتجوال في شوارع المدينة وأزقتها. وأخذ يصيح (عسل للبيع.. عسل للبيع..)، ولكن بوجه عبوس وجبين معقود، وكأنه يبيع الخل المر عوضاً عن العسل الحلو. فلم يقترب منه أحد من



الناس، بل وحتى الذباب لم يحط على عسله. فحل المساء ثم عاد إلى بيته ولم يبع شيئاً ولم يربح قرشاً واحداً. وجلس في زاوية من زوايا منزله كئيبا مهموماً. وكان كالمذنب الخائف من كثرة ذنوبه، وكالشقي الذي سُجن في زنزانة مظلمة في يوم العيد. فقالت له زوجته مداعبة: (إن عسل صاحب الوجه الحامض يكون مراً).

إن الخلق السيئ يوصل الإنسان إلى جهنم وبئس المصير. أما الخلق الحسن فقد جاء من الجنة.

فاحرص يا هذا على أن لا تشرب العصير الحلو واللذيذ والبارد من يد إنسان عبوس ذي وجهٍ حامض ومر. بل اشرب الماء الحار عوضاً عن ذلك، ولواضطررت أن تبقى تحت الشمس وتحترق بحرارتها. ولا تأكل طعام من عقد حاجبيه، فذلك هوظلم للروح والنفس.

ويا سيد !! لا تحاول أن تقضي حوائجك بالغضب والتوبيخ، وإلا فستكون من الأشقياء دائماً. وإن لم يكن لديك ذهب ولا فضة، فهل لا تملك لساناً عذباً أيضاً؟!».

لذا فإن الوجه البشوش واللسان العذب يشكلان أهم رأس مال يمكن للعبد أن يمتلكه في إرشاد المحرومين من حلاوة الإيمان وحلاوة أخلاق الإسلام الرفيعة. وحتى الوجوه العبوسة إن وُجدت في حديقة مليئةٍ بالأزهار والورود الجميلة ذوات الروائح الزكية، والألوان الزاهية فإنها تبتسم بسبب الجماليات التي تنعكِس على روحها في ذلك المكان السحري. فعلى من يسعى لإرشاد الناس



وإيصالهم إلى الطريق الصواب أن يكون كتلك الحديقة يستطيع أن يليّن أكثر القلوب قساوة، وأن يرسم البسمة على أكثر الوجوه تقطباً.

والمؤمنون الحقيقيون هم الذين يتحملون أعباء الناس وهمومهم، وهم صابرون ومبتسمون ضمن حالة روحية جيدة. فمن أهم شروط التبليغ والدعوة، هوأن يمتلك الإنسان قلباً حساساً قد عُجن بحكم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. وأن يمتلك أيضاً وجهاً مبتسماً يعكس وجه الإسلام البشوش. ويجب أن يصبح التبسم عادة طبيعية لدى من يريد تقديم خدمة التعليم والتربية المعنوية للناس.

اللهم اجعلنا من المؤمنين الحقيقيين، ذوي الأرواح الحساسة واللطيفة، والذين يبتسمون بالرحمة والعطف والشفقة على جميع خلقك.

اللهم ولا تحرم قلوبنا من محبة الإيمان، ووجوهنا من بشاشة وجه الإسلام...آمـين





الأدب والرِقَّة

الأدب هو أهم زاد يتزود بها المؤمن في سفره إلى الله ﷻ. فلا يمكن أن يكون الإنسان متمسكاً بدينه من جهة، وغليظ القلب، جلفاً وصعباً في التعامل مع الناس من جهة أخرى.

وعلينا أن لا ننسى أن الشيطان الرجيم قد طرد من رحمة الله ﷻ، لا لتقصيره في العمل أوفي العبادة، ولا بسبب نقص علمه أوفهمه، بل بسبب قلة أدبه. لذا فإن أكثر الأخلاق الحميدة إزعاجاً للشيطان هي الأدب.

وإن غاية التربية المعنوية هي تعليم الناس وإيصالهم إلى درجة من المعرفة يدركون فيها بأنهم تحت مراقبة دائمة من قبل الله ﷻ. وبذلك الشعور يسعى الإنسان لاكتساب الخصل الحميدة كالأدب والرقة حين المعاملة مع الآخرين، وذلك ما سيكون من العناصر الأساسية التي تشكل شخصيته الطبيعية.

الأدب والرِقَّة

الأدب هو من الخصائص التي تميز الإنسان عن بقية المخلوقات. ويكتسب الإنسان قيمة عند الله ﷻ بتقواه وأدبه ورقته وتعامله الحسن مع الآخرين. لذا فإن للأدب والرقة مكاناً مستثنى لا مثيل له بين أوصاف أولياء الحق ﷻ وأخلاقهم الحميدة. حيث أن كثيراً من كبار المتصوفين يعتبرون أن التصوف هو عبارة عن الأدب والرقة في التعامل. وقد تلقى سيدنا الشاه النقشبند - قُدّس سره - تربية معنوية كاملة مبنية على أساس الأدب والرقة وحسن الخلق، على يد سيدنا حضرة الشيخ أمير كُلال. وقد وُظّف في السنوات الأولى التي التحق فيها بالمدرسة، في تنظيف الطرق والأزقة التي يمر بها الناس. وفي خدمة المرضى والمصابين، وخدمة الحيوانات الجريحة لكي يعيش حالة العدم ويحس بها تجاه الله سبحانه وتعالى، ولكي يتغلب على التكبر وغرور النفس. وقد شرح بنفسه حالته تلك في ذلك الوقت بالشكل التالي:

«مشيت في طريق خدمة الناس وإرشادهم لفترة طويلة من الزمن، كما أمرني أستاذي أن أفعل. واكتسبت شعور الاِحترام لدرجة أنني إذا صادفت أي مخلوق من المخلوقات في طريقي، أقف جامداً في مكاني وأنتظر مروره، ولا أخطو بخطوة واحدة قبل أن يعبر. واستمرت خدمتي هذه سبع سوات. وبالمقابل فقد امتلكت



إحساساً مرهفاً تجاه تلك المخلوقات، حيث أصبحت وكأني أحس بكيفية تعبدهم والتجائهم إلى اللهﷻ، ورجائِهم رحمته وعطفه عليهم عن طريق إصدار أصوات حزينة مكبوتة ».

وبذلك، نستنتج أن كل شيء في الكون هو عبارة عن تجليات القدرة الإلهية والعظمة على القلوب التي استمدت نورها وضياءها من الحكمة. وإن الشرط الأساسي للوصول إلى تلك المرتبة هو أن اكتساب الروح اللطافة والرقة واللياقة في معاملة الآخرين، ومشاهدة المظاهر الروحانية والمعنوية، والوصول بذلك إلى مرحلة الأستفادة وأخذ العبر، ومن ثم التعمق في أعماق وتفاصيل الحكمة. حيث أن كثيراً من الأسرار المعنوية التي لا يستوعبها العقل البشري لا يمكن لها أن تظهر وتنكشف إذا لم يتم التعمق فيها والتأمل بها عن طريق الحكمة.

إن الأدب هو أهم زاد يتزود بها المؤمن في سفره إلى الله ﷻ. فلا يمكن أن يكون الإنسان متمسكاً بدينه من جهة، وغليظ القلب، جلفاً وصعباً في التعامل مع الناس من جهة أخرى.

حيث أن أصل الإسلام بنظر الروح هو التوحيد في الأعتقاد، و الأدب والرحمة والأستقامة في العمل. فعلى هذا الأساس يمكننا القول بأن الدين الإسلامي بكل أساسياته هو عبارة عن الظرافة واللطافة والرقة في التعامل، أي بمعنى أنه من بابه إلى محرابه عبارة عن الخلق الحسن الذي يتمثل بالأدب.

وقد عبر مولانا جلال الدين الرومي عن هذه الحقائق على النحو التالي:



«افتح عينيك جيداً، وانظر بكل ما ملكت من طاقة وقدرة إلى كلام الله ﷻ، فستلاحظ أن القرآن الكريم من أول آية فيه إلى آخر آية؛ عبارة عن مدرسة لتعليم الأدب. ولم يستحق أولياء الحق ﷻ الدرجات الرفيعة التي وصلوها إلا عن طريق أدبهم وتميزهم بالأخلاق الحميدة.

وكما قال سيدنا الإمام الرباني أحمد الفاروقي:

«لا يمكن لأحد لم يُعطِ الأدب اهتماماً، أن يتقدم ويسير في الطريق التي تؤدي إلى الله ﷻ، أي أنه ليس بإمكانه أن يكون من أحبائه. وإن الطريق الذي سار فيه عظماء الدين الصالحون هو عبارة عن الأدب والأخلاق الحسنة.ويجب أن لا ننسى أن أهم موضوع في الأدب هو تأدبنا تجاه الخالق ﷻ».

الأدب تجاه الله ﷻ

علينا أن لا ننسى أن الشيطان الرجيم قد طرد من رحمة الله ﷻ، لا لتقصيره في العمل أوفي العبادة، ولا بسبب نقص علمه أوفهمه، بل بسبب قلة أدبه. لذا فإن أكثر الأخلاق الحميدة إزعاجاً للشيطان هي الأدب. وقد شرح سيدنا جلال الدين الرومي هذه الحقيقة شرحاً وافياً، حيث قال:

«عندما عصى إبليس أمر الله ﷻ ورفض أن يسجد لسيدنا آدم ﵇، بقوله: (لقد خلقتني من نار عظيمة متألقة، وخلقته من طين



وضيع. فهل من المعقول أن يسجد أحد ذو مستوى ومقام رفيع لأحد أقل منه شأناً!!). إذاً لقد لُعن إبليس وطُرد من الرحمة الإلهية بسبب قلة أدبه تجاه الله ﷻ، واعترض على أمره. أي أنه تجرأ على جدال ربه ﷻ مغروراً بنفسه» (فيه ما فيه، ص: ١٥٩)

وقال أبوعلي الدّقاق – رحمة الله عليه –:

«إن التخلي والاِبتعاد عن الأدب يُوجِب اللعنة والطرد من الرحمة الإلهية. فمن قلل أدبه مع السلطان، طُرد إلى عتبة الباب. ومن قلل أدبه وهو في عتبة الباب، طُرد إلى حظيرة الحيوانات».

وقد نصحنا أجدادنا بأن نأخذ العْبرةَ من أحوال وعواقب الذين لم يتأدبوا ولم يعطوا تلك الخصلة الحميدة أي اهتمام. حيث ورد عنهم المثل التالي: –تعلم التأدب من قليل الأدب–.

فعلينا بدورنا أن نأخذ العبر ونستخلص دروساً من الحال الذي آل إليه الشيطان الرجيم عندما قلل أدبه مع الله ﷻ، وعصى أمره.

والعبد المثالي الذي يتميز بالأخلاق الرفيعة وأهمها الأدب تجاه الله ﷻ كما يجب، يتجنب التصرف بتصرفات تدل على اللامبالاة. وبهذه الوسيلة يكون على حذر دائم من الوقوع في غفلة في تعامله وفي عبادته. ولا يصاب بداء الاِعتماد على أعماله.

ويجب أن لا ننسى أنه مهما عملنا الأعمال الحسنة والصالحة، فكل هذه الأعمال والحسنات هي كدلو الماء عندما يسكب في محيط كبير. ويجب علينا أن ندرك قلة وصغر عباداتنا وخدماتنا



مقابل لطف الله ﷻ ورحمته التي وسعت كل شيء. ويجب أن نقارن ونزن أحوالنا في العبادة بأحوال الصحابة الكرام ﷺ وأحوال أولياء الله ﷻ وأحبائه، لا أن نقارنها بوضعنا في المجتمع.

وقد ضرب الله ﷻ لنا أمثلة في الأنصار والمهاجرين لكي نستخلص العبر والدروس ونستفيد منها لنطبقها في جميع مجالات الحياة.

ومن جانب آخر، فمن طبق أدب العبودية بالشكل المناسب، فهو يدرك أن ما جاءه من حسنة فهي من الله ﷻ، وما أصابه من مصيبة وتقصير فهو من نفسه.

إن من يرغب عن عبادة الله ﷻ، ويقع في الخطأ والسفاهة قائلاً: «ماذا أفعل؟ إن ذلك قدري أن أكون كذلك»، إنما هو تعبير عن الغفلة والضلالة الشيطانية والنفسية. فلنأخذ موضوع الصلاة مثالاً، فمن أراد أن يصلي فإن الله ﷻ يهيئ له الأسباب والظروف التي تجعله يقيم صلاته. أما من لا يريد أن يصلي، فيهيئ الله ﷻ له أسباباً تمنعه عن أدائها. وعلى هذا الاِعتبار.. فإن إيجاد الأعذار والحجج، وتبريء النفس من الذنوب التي يرتكبها الإنسان إنما هو بهتان وافتراء على القضاء والقدر. وذلك هو قمة الحماقة وقلة الأدب تجاه الله ﷻ.

وما أزلّ قدم الشيطان الرجيم عن الرحمة الإلهية إلا قلة أدبه التي بدرت عنه تجاه خالقه ﷻ في هذا الخصوص.



لذا فإن أكثر ما يُزعج الشيطان هو أن يتحلى المؤمن بالإطاعة والرضاء والتسليم تجاه الله ﷻ. أي أن يتحلى بأدب العبودية، لأن ذلك هو بعينه ما أوقعه في الخطأ.

ومن أهم أهداف الصوفية هي رفع مستوى الإنسان وإيصاله إلى درجة إدراكه بوجوده الدائم ضمن رحمة الله ﷻ. وذلك هو ما يسمى بـ: «شعور الإحسان». وبذلك يمكن أن نلخص أهداف الصوفية بجعل الإنسان يتميز بخلق الأدب تجاه الله ﷻ ظاهراً وباطناً. وكما قال أحد كبار رجال الصوفية:

«الزم الأدب ظاهراً وباطناً فما اساء أحد الأدب فى الظاهر الا عُوقب ظاهراً ولا أساء أحد الأدبَ فى الباطن الا عوقب باطناً ومن ضيع الادب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يظن القبول» (اسماعيل حقي، روح البيان، النحل، ٤٧)

أي أنه يجب علينا أن نتحلى بالرضاء والتسليم، وأن نطيع أوامر الله ﷻ ونبتعد عن نواهيه مباشرة دون مناقشة أوجدال يدل على التكبر والغرور كما فعل الشيطان الرجيم - لعنة الله عليه -. ويجب علينا أن نقتنع ونؤمن بأن ما قدره الله ﷻ، هو أفضل وأخيَر شيء بالنسبة لنا. وكل ذلك هو من جملة الأدب الباطني الذي يجب على المؤمن أن يتحلى به.

وفي أحد الأيام التي قد خلت أُعجب عالم من علماء الحديث بهيئة أبا يزيد البِسْطامي وتصرفاته. فعندما رأى ذلك الشاب أراد أن يختبر ذكاءه وحِكمته، فسأله:



«يا أيها الشاب الوسيم، هل تعرف أداء الصلاة بالمعنى التام ؟».

فأجاب أبا يزيد البِسْطامي قائلاً:

«نعم.. إني أعرف بإذن الله ﷻ ».

فسأله العالم: «فكيف إذاً؟».

فقال: «يا رب.. وقفت بين يديك لأداء الصلاة قائلاً الله أكبر.. ثم أقرأ القرآن بتأنٍ وتمعن وتفكر، ثم أركع بخشوع وتعظيم، ثم أسجد بتواضع، ثم أسلم مودعاً».

فأعجب العالم بإجابة الشاب إعجاباً شديداً فقال:

«أيها الشاب الذكي.. لِم تسمح للناس أن يمسحوا على رأسك، مع أنك تمتلك كل هذه المعلومات القيمة والعميقة ؟».

لأن العالم كان يعتقد بأن المجاملات والمداعبات التي يبديها الناس لذلك الشاب، بإمكانها أن تؤدي بنفسه إلى الغرور والتكبر. فعليه أن يضع حداً لذلك.

فأجابه أبا يزيد البِسْطامي بهذه الإجابة التي تدل على علمه وحكمته:

«إنهم لا يمسحون رأسي، بل يمسحون الجمال الذي زينني الله ﷻ به. وكيف أمنعهم من لمس شيء لا أمتلكه !».

إذاً، فالخلق الآخر الذي يجب علينا أن نصل إليه ونتخلق به هو أن نقرّ ونؤمن بأن جميع المحاسن والأمور الجميلة هي من الله ﷻ، وأن لا نُقنع أنفسنا بأن لنا الفضل في الحصول عليها.



وإن أعلى درجة من درجات الأدب هي تعظيم وتقدير الله ﷻ. وإن أجمل مظهر لذلك هو إبرازه أثناء أداء العبادات والواجبات التي أُمرنا بها.

وكما قال أحد أولياء الحق ﷻ:

«توصل العبادة الشخص إلى الجنة. أما التعظيم والتقدير والأدب في العبادة توصله إلى الله ﷻ، وتجعله من المقربين إليه».

وقال سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه:

«الأدب في العمل علامة قبول العمل».

وقد نصحنا سيدنا الخضر عليه السلام بقراءة الدعاء التالي:

«اللهم ارزقني أدباً جميلاً لكي أستطيع أن أعبدك».

وقد أبرز أولياء الحق ﷻ اهتمامهم واعتناءهم الذي لا مثيل له بالأدب الظاهري، إضافة إلى ما قاموا به من تعظيم وتقدير للأدب الباطني. لأنهم عاشوا حياتهم مدركين حلاوة ونشوة التواجد ضمن حدود الرحمة الإلهية. ويمكننا التعبير عن ذلك بأنه القدرة على المحافظة على حالة الخشوع والتأدب، حتى خارج أوقات العبادة. وكما قال الله ﷻ في الآية الكريمة:

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (المعارج، ٢٣)

وقال في آية كريمة أخرى:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (المعارج، ٣٤)

وقد شرح سيدنا جلال الدين الرومي هذه الآيات الكريمة،

معطياً إياها معنى إشارياً، حيث قال:

«يحافظ المؤمن على وضعه في الصلاة حتى ما بعد الصلاة. وبذلك تكون حياته كلها قد مضت في الأدب والخشوع، واستمر قلبه ولسانه على التحفظ وعدم السهو والوقوع في الخطأ. وهذا هو حال المحبين الحقيقيين. أي حال أولياء الحق ﷻ».

وإن غاية التربية المعنوية هي تعليم الناس وإيصالهم إلى درجة من المعرفة يدركون فيها بأنهم تحت مراقبة دائمة من قبل الله ﷻ. وبذلك الشعور يسعى الإنسان لاكتساب الخصل الحميدة كالأدب والرقة وحين المعاملة مع الآخرين، وذلك ما سيكون من العناصر الأساسية التي تشكل شخصيته الطبيعية.

وقال سيدنا داود الطائي:

«بقيت لمدة تقارب العشرين عاماً مع سيدنا أبي حنيفة. ولاحظت خلال هذه الفترة الزمنية على أنه لم يجلس أبداً مكشوف الرأس، ولم يبسط ساقيه ولو بهدف الراحة، وتلك كانت حالته إن كان وحيداً أو مع غيره من الناس. فسألته يوماً:

(ما المانع أن تبسط ساقيك عندما تختلي بنفسك؟). فأجابني قائلاً:

(الأفضل أن نكون أكثر أدباً تجاه الله ﷻ)».

ولم يُرَ سيدنا محمود سامي رمضان أوغلو- الذي يُعتبر من أحد أولياء الحق ﷻ وهو شيخُ والد المؤلِف الشيخ موسى طوبّاش وقد دفن في البقيع- طوال عمره أنه يجلس وهو باسط ساقيه وأنه مُسند ظهره على



مُتّكأ أو على جدار أثناء تناوله الطعام. وكان سامي أفندي - قدس سره - الذي كان مثالاً رفيعاً للأدب والرقة طوال حياته - كان يردد بيتي الشعر التاليين كثيراً:

يقال أن الأدب هو تاج من نور الهدى

فالبس ذاك التاج لتنجو من كل البلاء

وقد تولى مصطفى أوكوتان غسل جُثمان المُتوفى سيدنا حسين أفندي الصامصوني. وكان حسين أفندي أحد عاشقي الله ﷻ، وقد تُوّجت حياته بالظرافة واللطف والرقة والأدب. فحدثنا أخونا مصطفى أوكوتان ما رآه بأم عينيه في تلك الجنازة قائلاً:

«عندما كنت أغسل جسد حسين أفندي، كانت فخذه الأيمن منطويةً على صدره، ولم نستطع على الرغم من جميع محاولاتنا. وعندما وضعناه في القبر، استلقى مباشرة على جنبه الأيمن».

ولا شك في أن هذه القصة هي تذكير لا مثيل له لنا، وهي عبرة تعبر عن الحقيقة التالية: «يموت المرء على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه» (المناوي، فيض القدر، شرح الجامع، جـ٥، ٦٦٣)

ويكشف الله ﷻ أحياناً بعض الأسرار بهذه القصص والأحداث لكي تكون عبرة لمن يعتبر.

ومن تواجد في حضرة سلطان كبير يحكم العالم بأسره، أو في حضرة شخص ذو مقام رفيع ومرتبة عليا، فإنه لا يستطيع أن يتصرف



براحة واسترخاء عندهم كما يتصرف في أماكن ومواضع أخرى. وإن أولياء الحق ﷻ هم الذين يملكون القلوب العالمة والحكيمة والتي لا تحتاج لأي دليل بأنهم دائماً بين يدي الله ﷻ في كل مكان وزمان. أي أنهم يعيشون كل لحظاتهم بشعور البقاء مع الله ﷻ .

وهم من الذين اتخذوا الجملة التالية: «وهو معكم أين ما كنتم» (الحديد، ٤)، نمطاً لهم في حياتهم ومعيشتهم. ولهذا السبب ينعكس وضعهم المتميز بالأدب على جميع تصرفاتهم وأعمالهم. وإن أولياء الحق ﷻ في تأدب كامل تجاهه حتى ولوكانوا في خلوة وبعيدين عن أنظار البشر. فعلى سبيل المثال؛ فإن تغطية الرأس أثناء الصلاة هو تعبير عن الإحترام تجاه الخالق ﷻ. وقد حرص أولياء الحق على إبداء هذا المظهر من مظاهر الإحترام حتى خارج أوقات الصلاة.

وعندما سأل أحد الصحابة الكرام سيدنا محمداً ﷺ عن ما إذا كان بوسعه أن يتصرف براحته أثناء تبديل وارتداء ملابسه إن لم يوجد أحد في ذلك المكان ؟. فقال الرسول ﷺ:

"اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ مِنَ النَّاسِ" (أبي داود، الحمام، ٢/ ٤٠١٧)

وقد أبرز أجدادنا الذين عُجنت طبيعة قلوبهم بالتربية الإسلامية والمعنوية، مستوى رفيعاً من الأخلاق الحميدة، والتي نالت إعجاب العالم بأسره في خصوص الأدب والعفة والحفاظ على العار. فقد كتب الراهب النصراني سالومون شويغر - أحد أكثر الرهبان تعصباً دينياً للنصرانية - مذكرات عن المسلمين أثناء تجواله في بلادهم، حيث قال:



«يستخدم المسلمون غطاء لتغطية أجسادهم، حتى وهم في الحمام. فكم هم أناس مؤدبون! ويجب علينا أن نتعلم الأدب من هؤلاء الناس الذين نظن أنهم من البربر» (إ.د. ألِبَرْ أورتايلي، استكشاف الدولة العثمانية من جديد، ص. ٨٨)

والتستر هو شعور لذيذ يخص الإنسان. فليس من الوارد تستر بقية المخلوقات. والتستر هو أدب فطري يدل على العبودية ويعبر عنها، حيث أن سيدنا آدم عليه السلام وسيدتنا حواء قد استحيا في الجنة عندما ظهرت عوراتُهما، مع العلم أنه لا أحد سِواهما في الجنة. فحاولا أن يضعا أوراق الشجر على عَوراتُهما ليسترهُما. وهُما في حالة الخجل والتوتر. إذا نستنتج أن التستر وما ساق إليه من الخصل والصفات كالأدب والحياء هو ميزة هامة جدا من الميزات المترسخة في فطرة بني آدم.

والأدب الذي يتحلى به الإنسان تجاه الله ﷻ، إنما يشمل جميع الخلائق حسب درجة التقرب من خالقه ﷻ. والتأدب الأكثر أهمية بعد التأدب تجاه الله جل جلاله هو التأدب تجاه نبيه وحبيبه سيدنا المصطفى ﷺ.

الأدب تجاه سيدنا محمد ﷺ

لقد قدم الصحابة الكرام رضي الله عنهم أفضل الأمثلة المعبرة عن شعور الأدب والاِحترام الواجب تجاه الرسول الكريم ﷺ. وقد عبروا عن أدبهم وخشوعهم أثناء جلوسهم مع النبي ﷺ كما في الجملة التالية: «كأنما على رؤوسنا الطير» (أبي داود، السنة، ٢٣-٢٤/ ٤٧٥٣؛ ابن ماجة، الجنائز، ٣٧)

وكان تأدب الصحابة الكرام ﭫ تجاه سيدنا محمد ﷺ، واحترامهم له يحتل مرتبة عالية ورفيعة لدرجة أنهم في كثير من الأحيان كانوا يعتبرون أن توجيه سؤال له هو تجرءٌ وقلة أدب تجاهه. لذا كانوا ينتظرون ويتأملون أثناء جلوسهم إليه أن يأتي أحد أعراب البادية، لكي يسأله بعض الأسئلة ويستفيدوا هم من أجوبته ﷺ.

وكان القليل من الصحابة الكرام ﭫ يستطيعون النظر بتمعن إلى جمال نور سيدنا ﷺ، مع العلم أنهم كانوا يقضون معظم أوقاتهم معه. وذلك بسبب أدبهم واحترامهم له.

ويُروى أن الصحابة الكرام ﭫ، عدا سيدنا أبي بكر الصديق وسيدنا عمر بن الخطاب، كانوا ينظرون إلى الأرض أثناء التحدث مع النبي ﷺ. وكان هذان الصحابيان هما الوحيدان اللذان يستطيعان النظر إليه والتمعن في عينيه. (الترمذي، المناقب، ١٦/ ٣٦٦٨).

وقد تكلم عن هذا الوضع سيدنا عَمْرو بن العاص ﭬ، الذي سجل اسمه في التاريخ بلقب فاتح مصر، في أرذل عمره، قائلاً:

«وما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه» (مسلم، الإيمان، ١٩٢)

ونحن بدورنا نلجأ إلى بحر رحمة الله ﻷ ونطلب منه أن يعفوويصفح عنا بسبب تجرئنا على الحديث عن فخر الكائنات سيدنا محمد ﷺ، ومحاولتنا التعبير عنه وعن شخصيته المثالية



بالكلمات القاصرة والمحدودة. ونرجوالله ﷻ أن يغفر لنا زلات ألسنتنا، وعجزنا وتقصيرنا في إبداء أعلى وأسمى تعابير الأدب واللطافة تجاه حبيبنا المصطفى ﷺ.

ومن جهة أخرى، فإنه من الأدب ومن الواجب أن نطيع أمر الله ﷻ في الصلاة والسلام على حبيبه ونبيه محمد ﷺ كلما ذُكر اسمه الشريف، فكما ورد في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب، ٥٦)

ومن حِكم القرآن الكريم أن الله ﷻ خاطب جميع الأنبياء والرسل بأسمائهم، ما عدا سيدنا محمداً ﷺ، فإنه لم يخاطبه باسمه على شكل « يا محمد»، بل خاطبه عل شكل: « يا نبي، أو يا رسول». وأمر الله ﷻ جميع المؤمنين بأن يتحلوا بهذه الميزة. فكما ورد في الآية الكريمة:

﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور، ٦٣)

وقال سيدنا ابن العباس رضي الله عنه في تفسير هذه الآية الكريمة:

كانوا يقولون «يا محمد يا أبا القاسم» فنهاهم اللّٰه ﷻ عن ذلك إعظاماً لنبيه ﷺ قال: "فقولوا: يا نبي اللّٰه، يا رسول اللّٰه" (ابن كثير، تفسير، النور، ٦٣ ؛أبو نعيم، دلائل النبوة، ١، ٤٦).

أي بمعنى أنه لا يتناسب مخاطبة رسول الله ﷺ باسمه مع كوننا تابعين لأمته، وعلينا أن نتحلى بالآداب والأخلاق التي تليق بهذه الأمة. بل ويجب علينا عندما نذكر اسمه المبارك أن نتلفظ أوصافه وأخلاقه الرفيعة والمثالية مع اسمه الكريم. إضافة إلى أنه يجب أن نبدي احترامنا وتقديرنا لِكُلّ شيء يمت للنبي ﷺ بقرب أوصلة.

وكم هو مثال جميل ومليء بالعبر حال ولي الله السلطان العثماني ياوُوز سليم خان، عاشق النبي ﷺ - كما ورد في هذه القصة:

فتح السلطان ياوُوز سليم خان مصر في عام ١٥١٧ ميلادي. وعين عليها سلطاناً في عهدة مقام الخليفة. وفي يوم الجمعة الواقع في ٢٠ شباط، وأثناء خطبة الجمعة التي كان يلقيها خطيب جامع الملك المؤيّد، قال الخطيب مادحاً السلطان سليم:« يا حاكم الحرمين الشريفين».

أي حاكم المدينتين المشرفتين مكة المكرمة والمدينة المنورة. فقاطعه السلطان سليم مباشرةً وعيونه تدمع قائلاً:« لا.. لا.. بل قل خادم الحرمين الشريفين». ثم أزال السجاد وسجد على التراب شكراً وثناء لله ﷻ. ولكي يعبر فعلاً أنه خادم للحرمين الشريفين وضع ريشاً على هيئة المِكنسة على عمامتة وهو رمز الخدمة والتواضع.

وإن إحدى المظاهر الأخرى المعبرة عن الأدب والإحترام الذي لا مثيل له، هو إبداء الإحترام تجاه مدينة رسول الله ﷺ، المدينة المنورة. فحسب ما ورد في الرواية عن السلطان العثماني



المظلوم والشهيد عبد العزيز خان، أنه كان مستلقياً على فراش المرض في حالة يرثى لها. فقيل له: «هناك عريضة جاءت من سكان المدينة المنورة» فقال السلطان عبد العزيز خان: «أوقفوني مباشرة على قدميَّ، ودعوني أستمع إلى الطلبات القادمة من الحرم النبوي وأنا واقف على قدميَّ. لأنها طلبات جيران رسول الله ﷺ. ولا يليق بي أن أتصرف بقلة أدب وأستمع إليها وأنا مستلق على فراشي وباسطا ساقي».

وكلما جاءه بريد من المدينة المنورة كان يقوم بتجديد وضوئه، ويُقبّل الرسائل ثم يضعها على جبينه، قائلا: «إن في هذه الرسائل ذرات من غبار المدينة المنورة». ثم يعطيها للكاتب الأول لديه قائلاً: «هيا افتحها واقرأ».

الأدب تجاه أولياء الحق ﷻ

قال أبوالليث - رحمة الله عليه - بعد تفسير الآية الكريمة:

﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور، ٦٣)

قال ما يلي:

«وفى الآية بيان توقير معلم الخير فأمر الله تعالى بتوقيره وتعظيمه . وفيه معرفة حق الأستاذ . وفيه معرفة حق أهل الفضل»

وقال إسماعيل حقي بروسوي:

«أقول ولذا يطلق على اهل الارشاد عند ذكرهم الفاظ دالة على تعظيمهم على أى لغة كانت لانه اذا ورد النهى عن التصريح بأسماء الآباء الصورية لكونه سوء أدب فما ظنك بتصريح اسماء الآباء المعنوية» (روح البيان، التوبة، ٧٣)

أي أنه من الواجب علينا أن نقدر ونحترم العلماء وأصحاب الحكمة، أولياء الحق ﷻ. لأن ذلك من أهم مظاهر الأدب والأخلاق التي يجب أن نتحلى بها تجاه رسول الله ﷺ، بكونهم ورثته الحقيقيين في الحياة الدنيا.

وللإنشراح المعنوي، يجب علينا أن نسعى جاهدين في أن نتابع ونستمر في محاولة اتخاذ أولياء الحق ﷻ وورثة الأنبياء من العلماء وأصحاب الحكمة، قدوة لنا في حياتنا ونمطاً لمعيشتنا لكي يوصلنا ذلك إلى بَرّ الأمان. ويجب علينا أن نعتبر أن وجودنا بجانبهم ، وبقائنا في ظل تربيتهم وإرشاداتهم هي نعمة كبيرة أنعم بها الله ﷻ علينا. لأن من قَصَدهم وجاء إليهم بأدبه، تركهم وفارقهم وقد اكتسب من اللطف والأدب ورقة الإحساس. وكما ورد عن سيدنا محمد ﷺ في الحديث الشريف، حيث قال:

"اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّه" (الترمذي، التفسير، ١٥)

ومعنى كلمة «اِتَّقُوا» في الحديث الشريف هو أن «لا تذهبوا إلى المؤمنين الحقيقيين بقلب غير صاف ونقي، أوبأعمال وأفعال خفية. فهم بفراستهم القوية يستطيعون رؤية ما حاولتم إخفاءه عنهم».لذا



يقال: «حافظ على لسانك عند رجل العلم، وحافظ على قلبك عند أولياء الحق».

فعلى هذا الأساس، علينا أن نبدي اهتماماً خاصاً في التحلي بالأدب والأخلاق الحميدة تجاه أولياء الحق ﷻ الذين هم من نالوا رحمة إلهية خاصة، وارتقوا إلى المراتب العليا والرفيعة عند الله ﷻ. وإن التصرف بتصرفات لا تليق بالأدب كالتكلم والجلوس دون أخذ أذن، لا يضعف الإستفادة المعنوية من علم ونور أولياء الحق ﷻ فحسب، بل ويجلب عذاب الله وسخطه.

وكان السلطان العثماني ياوُوز سليم خان، إذا دخل إلى حضور ولي من أولياء الله ﷻ أبدى احتراماً وأدباً وتواضعاً مبالغاً فيه. وكان لا ينطق بكلمة واحدة إلا عند الحاجة. كما فعل عندما ذهب لزيارة أحد كبار الأولياء الصالحين في مدينة دمشق وهو سيدنا محمد بدخشي. فعندما دخل إلى مجلسه لم ينطق بأي كلمة، بل استمع وأنصت إليه ثم خرج من عنده. فاستغرب رجال الدولة الذين كانوا بصحبته من هذا التصرف الذي بدر عنه فسألوه:

«يا سعادة السلطان.. لقد استمعت فقط.. فما الحكمة من أنك لم تنطق بكلمة واحدة ؟».

فأجابهم قائلاً: «عندما يتكلم أولياء الله ﷻ، في مجالسهم، فإنه ليس من الصواب لأحد غيرهم - ولوكان حاكم العالم بأسره - أن يتكلم ولو بكلمة واحدة. فحتى لوكنا سلاطين وحاكمين في البلاد، فإننا نبقى بحاجة ماسة لهؤلاء الأولياء الذين هم بمثابة السلاطين



المعنويين الحقيقيين. ولوكان علي أن أتكلم، لَبَيَّن وأظهر لي ذلك حضرة الولي، وأعطاني فرصة لذلك».

وهكذا كان السلطان ياوُوز سليم خان يتحلى بأعلى وأسمى درجات الأدب والأحترام تجاه أهل القلوب. وقد عبر عن إعجابه بأولياء الحق ﷻ في هذين البيتين الشعريين، حيث قال:

"إن الوصول لمرتبة حكم العالم هو عبارة عن ضوضاء لا جدوى منهاوإنما الوصول إلى مرتبة الأولياء هو أسمى من كل شيء".

وقد اسمترت الدولة العثمانية حتى آخر أيامها محافظة على التحلي بالأدب والأحترام تجاه أولياء الحق ﷻ من قبل جميع طبقات المجتمع، بما فيهم السلطان. حيث كان البحارة الذين يعملون في النقل البحري، يحثون الراكبين في سفنهم على قراءة سورة الفاتحة على أرواح الأولياء كلما مروا من مقاماتهم وقبورهم. وكانوا يوجهون الناس إلى تلك القبور المباركة والمقامات الشريفة. فعندما تمر السفينة من منطقة أسكدار باسطنبول، كانوا يتوجهون إلى مقام سيدنا محمود عزيز هدائي - قُدّس سره -. وكلما مرت السفينة بمنطقة (بشِكْطَاشْ)، كانوا يتوجهون إلى مقام سيدنا يحيى أفندي. وعندما يمرون من أمام منطقة (بَيقُوز)، كانوا يتوجهون إلى مقام النبي يوشع عليه السلام. وهكذا كان احترام أهل اسطنبول للأولياء العظماء الذين دُفنوا في مدينتهم، في زمن من الأزمان...

إن خلاصة الكلام هي الأدب. وهو موضوع مهم جداً، هَدَفَ الإسلامُ إلى تعليمه، وترسيخه في أذهان المسلمين، وأعطاه أهمية



عظمى. وتمتد هذه الواجبات من التحلي بالأدب والأحترام على شكل سلسلة، بدايتها هي الإحترام والأدب تجاه الله ﷻ، ثم تجاه نبيه وحبيبه محمد ﷺ، ثم تجاه أحبائه وأوليائه، ثم احترام الأب والأم، وثم احترام كافة المسلمين وكافة الناس وكافة المخلوقات.

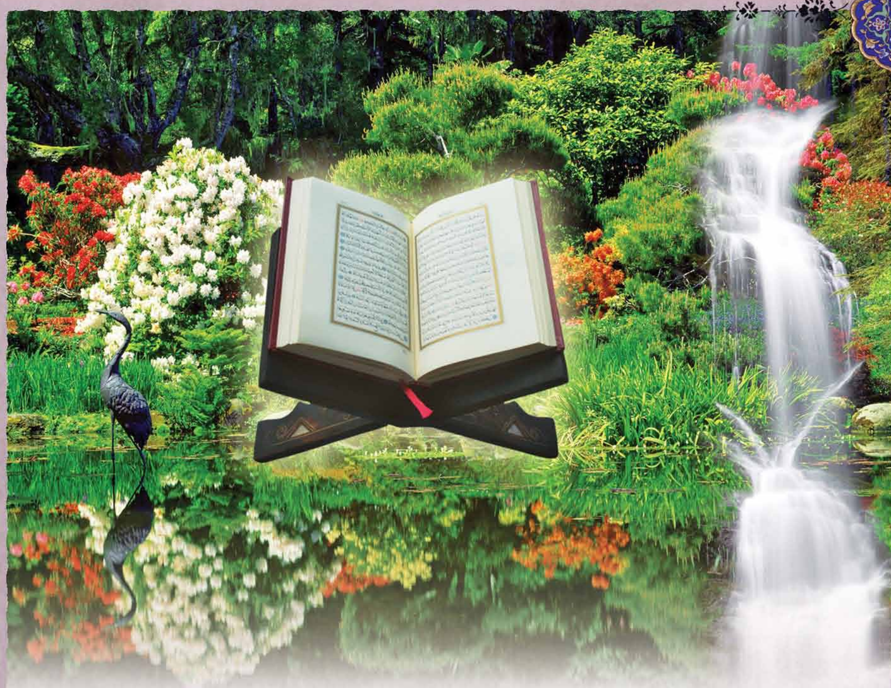
إن غنى الذهب والفضة يفنى ويزول. ولكن غنى الأدب والأخلاق الحميدة يظل باقياً. لذا يجب علينا كوننا مسلمين، أن نتعلم قواعد الأدب وأن نسعى جاهدين أن نحييها دائماً. وأن نكون قدوة حسنة للآخرين، وذلك عن طريق تطبيقنا لها ابتداء بأنفسنا.

ولتحقيق ذلك يجب أن نتعلم كيفية تحسين وتهذيب أحوالنا وأخلاقنا، عن طريق اللجوء إلى كتب آداب التعامل والمعاشرة والأخلاق الحميدة. والأهم من ذلك هو أن نعمل على جعل أخلاقنا وأحوالنا كأحوال وأخلاق المؤمنين الصالحين أهل الأدب. والذين هم بمثابة كتاب حي يجب أن نستفيد منه ما استطعنا.

اللهم اجعلنا نتحلى بالأخلاق والصفات الحميدة التي تحلى بها نبيك وحبيبك محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وَهَبْنا اللهم حصة من النسيج المعنوي الذي تميزت به قلوب أحبائك العلماء وأصحاب الحكمة. وبهذه الحصة نكون من المؤمنين المتميزين باللطف والرقة والظرافة. ونكون من أهل الأدب أهل الأخلاق الحميدة...آمــين.





أسلوب الكلام الذي لقّننا به القرآن الكريم

إن القرآن الكريم، بصفته لا مثيل له في الفصاحة والقدرة على التعبير، وبكلامه وأسلوبه العظيم، يطلب منّا أيضاً أن نتكلم بكلام مميز وجميل وعذب وأنيق. لأنه يجب علينا أن نعرض جمال الإسلام المتميز باللطافة والظرافة ورقة الإحساس، وذلك بتزيين ألسنتنا بأجمل وأحلى الكلام.

إن حِكم القرآن الكريم وأسراره عميقة كالمحيطات. وإن لكل شخص أسلوبه وقدرته على الأستفادة من هذه المحيطات العميقة، بقدر تعمقه العقلي والمعنوي. فإذا كان استيعاب الشخص القلبي والمعنوي صغيراً كإبرة الخياط، فإن استفادته من هذا المحيط الهائل في الكبر والعظمة، سيكون قليلاً بهذا القدر الصغير.

أسلوب الكلام الذي لقّننا به القرآن الكريم

إن معنى الإيمان هو الإرتباط بالله ﷻ بمشاعر الحب الصادق. وإن حب المؤمن لخالقه ﷻ هو أكبر رأس مال له في طريقه إلى لِقَائِه والوصول إلى رضاه. والمحبة التي تبقى نظرياً وفي الكلام فقط، ولا تنعكس على الأفعال، هي محبة غير كافية وغير قادرة على التعبير عن المشاعر الصادقة. والنتيجة الكاملة التي يجب أن نصل إليها، هي التي تُستخلص من الإهتمام بالأدب والتخلق بالأخلاق الحميدة تجاه الله ﷻ ونبيه الكريم محمد ﷺ.

والأدب هو كرائحة الورد التي تعطي نشوة للقلب، فيجب على المؤمن أن يفسح مجالاً لهذه الرائحة لأن تتغلغل في نسيجه القلبي والمعنوي. ويجب عليه أن يحس بها في جميع مجالات حياته. وعندما يصبح الأدب هو الخلق المسيطر على أخلاق المؤمن وتصرفاته، فإن ذلك في نفس الوقت هو الشهادة له بكمال إيمانه وصدقه وإخلاصه.

وكما قال أحد أولياء الحق ﷻ، سيدنا جلال الدين الرومي:

«سأل عقلي قلبي وقال: (ما هو الإيمان؟)، فاقترب قلبي من عقلي وقال هامساً: (الإيمان هو عبارة عن الأدب)»



لذا فإن كل تصرف من تصرفات المؤمن الحقيقي وكل حال من أحواله هو عبارة عن درس من دروس الأدب واللطافة وحسن الخلق.وقد أمرنا الله ﷻ بالتأدب بآداب العبودية، بقدر ما ورد في القرآن الكريم.

وإن أهم التصرفات البشرية التي يجب علينا أن نُخضعها لقواعد الأدب وقوانين اللطافة هي «الكلام» والكلام هو كالمرآة الصافية التي يعكس مستوى الشخص العقلي والقلبي، وتبين وتحدد وضعه الإيماني والأخلاقي والإجتماعي. فكما يقول أجدادنا: «الإنسان مُخَبّأٌ تحت لسانه» لذا فإن الرهيف في الإحساس واللطيف في التعامل، يكون كلامه أيضاً مؤدباً ولطيفاً.

وهذه القصة هي من أكثر القصص تعبيراً عن هذه الحقائق:

عن المطلب بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن أبيه عن جده قال ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل وسأل عثمان بن عفان رضي الله عنه قباث بن أشيم أخا بني يعمر بن ليث:

أأنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟

فأجابه الصحابي الجليل بإجابة تعد مثالاَ عن قمة الأدب، حيث قال:رسول الله ﷺ أكبر مني وأنا أقدم منه في الميلاد ولد رسول الله ﷺ عام الفيل ورفعت بي أمي على الموضع قال ورأيت حذق الفيل أخضر محيلاً (الترمذي، المناقب، ٢/ ٣٦١٩)

وإن هذه الحالة هي انعكاس رقة الروح على اللسان في ذلك الجيل المبارك الذي يجب أن نتخذه القدوة والمثل الأعلى لنا في حياتنا. ويطرح السؤال التالي نفسه؛ في أي مدرسة نال الصحابة الكرام التعليم والتربية، اللتين بواسطتهما اكتسبوا رقة الروح والقلب، التي لقنتهم ووهبتهم القدرة على التكلم بلسان لطيف وعذب بهذا الشكل؟!.

وإن جميع المخلوقات - صغيرها وكبيرها - منهمكة ومنشغلة بذكر الله ﷻ وتسبيحه دائماً، كل حسب طريقته وحسب لسانه. وقد وُهب بنو البشر نعمة أكثر الألسنة تطوراً وتكيفاً. وكما ورد في الآيات الكريمة:

﴿**الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الإِنسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾ (الرحمن، ١-٤)

وكم من الحِكم المليئة بالعبر التي يجب أن نتعمق في التفكير بها، في موضوع تعليم الله ﷻ القرآن الكريم لعباده، ومن إعطائِهم قابلية البيان، أي القدرة على الكلام والتوضيح والشرح والتعبير.

ويأمر الله ﷻ من عباده بداية كل شيء أن يتحلوا بالتربية الإسلامية - أثناء التحدث إلى بعضهم البعض - في اتخاذ أسلوب لطيف في الكلام، مبني على مقاييس حددها القرآن الكريم.

ومن جانب آخر؛ فإن أهم صفة من صفات القرآن الكريم هي الفصاحة والبلاغة، أي قيمته الأدبية والمعنوية التي تعود ألى كونها معجزةً ألِهيّةً التي لا مثيل لها. وإن الشخص يَملُّ من قراءة أي كتاب



إذا قرأه أكثر من مرة، إلا القرآن الكريم، فإنه يزداد من يقرأه لذة ونشوة كلما قرأه. وكما قال الله ﷻ في الآية الكريمة:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر، ٢٣)

وكما أُجبر كثير من الشعراء العرب وعلماء البلاغة، الذين كانوا يحتلون المراتب الأولى دائماً في مسابقات ومبارزات الأدب بشعرهم ونثرهم وأعمالهم الأدبية، أُجبروا على إنزال أشعارهم التي كانوا يعلقونها على جدران الكعبة المشرفة، عندما رأوا قوة لا مثيل لها في البلاغة والفصاحة في أسلوب القرآن الكريم.

لذا يجب على المؤمنين أن يتقربوا من جماليات أسلوب وسرد الآيات الكريمة في القرآن الكريم. وأن يتخلقوا بأخلاقه بصفته معجزة كلامية أدبية أنزلت من قبل الله ﷷ. وقد اعتبَرت هذه المعجزة أن المؤمنين هم المخاطبون الرئيسيون لها. أي أن القرآن الكريم بصفته لا مثيل له في قدرته على التعبير، وبكلامه وبأسلوبه العظيم، يطلب منّا نحن أيضاً أن نتكلم بكلام مميز وجميل وعذب. وإن أهم شرط للكلام والتعبير بشكل مؤثر وذو هدف، هو أن تمتلك لساناً عذباً صحيحاً كالماء الذي يعطي الروح نشوة بسلاسته وصوته المؤثر. لأنه على المسلمين أن يعرضوا جمال الإسلام ورقته ولطافته بجمال اللسان وعذب الكلام.



ترويض النفس على اسلوب الرحمة كما في القرآن الكريم

إن حِكم القرآن الكريم وأسراره عميقة كالمحيطات. وإن لكل شخص أسلوبه وقدرته على الإستفادة من هذه المحيطات العميقة، بقدر تعمقه العقلي والمعنوي. فإذا كان استيعاب الشخص القلبي والمعنوي ضئيل وصغير كإبرة صغيرة، فإن استفادته من هذا المحيط الهائل في الكبر والعظمة، سيكون قليلاً بهذا القدر الصغير.

إن جميع المؤمنين من الخواص والعوام، والأبيض منهم والأسود، والصغير والكبير، والرجال والنساء، كلهم يجلسون أمام نفس الكتاب المقدس، القرآن الكريم، لتلاوته والتمعن في آياته وحكمه. ولكن كل منهم يأخذ نصيباً منه بقدر المستوى القلبي والروحي الذي يتميز به. وتتفتح معاني آيات ذلك الكتاب المقدس أمام العبد بقدر تقربه من الله جَلَّ جَلَالُهُ.

لذا علينا أن نسأل أنفسنا الأسئلة التالية:

(هل القرآن الكريم - الذي أنزله الله عَزَّ وَجَلَّ، **خالقُ وفاطرُ** كل شيء من العدم، وأرسله لنا كرسالة - هل يلفت انتباهنا، ويجذبنا نحوه، لدرجة كبيرة غير قابلة للقياس والمقارنة مع اهتمامنا بالكتب الفانية التي كُتبت من قبل بني البشر؟. وما هي درجة اهتمامنا بمحاولة الوصول إلى حكمه عن طريق قراءته وفهمه جيداً؟ وهل نستفسر عن ما لم نستطع فهمه واستيعابه، ونسأل العلماء والعارفين عن ذلك؟ وهل نشغل أنفسنا بقدر كاف بمحتواه ومضمونه ؟).



ولن نكون من المؤهلين للتميز والتحلي بأسلوب الرحمة الذي اعتمده القرآن الكريم، ما لم نجد أجوبة كافية ومطمئنة عن هذه الأسئلة والإِستفسارات.

ولنتأمل قليلاً ونفكر في المصاريف والقدرات التي نتكلفها في العصر الحالي لتعلم لغة أجنبية ما، بهدف تحسين مستوى المعيشة أو ما إلى ذلك من الأسباب والضرورات. حيث أننا أصبحنا نعيش في عصرنا الحالي في عالم العولمة. ولذلك فإننا نهدر وننفق الأموال الهائلة للاشتراك بدورات تعليم اللغات الأجنبية. وإضافة إلى التكلفة المادية، فإننا نكلف أنفسنا الكثير من التعب الجسدي والفكري في هذا الموضوع. بل ونهدر قسماً مهماً من سني حياتنا بالذهاب إلى دولة أخرى والعيش فيها، لأنها تنطق بتلك اللغة التي نريد أن نتعلمها. وقد تطور هذا المجال كثيراً في أيامنا الحالية حتى أصبح من القطاعات التجارية الهامة في المجتمع المادي.

لا بد أن تَتَعَلّم وتعرِفَ لغة جديدة وهو شيء جيد وضروري، ولكن الله ﷻ خالق جميع اللغات وصاحبها، يأمرنا بداية أن نتعلم لغة القرآن الكريم. لكي نستطيع أن نعيش محافظين على شرفنا وكرامتنا الإنسانية. ويتم ذلك ليس بتعلم اللغة العربية فحسب، بل تعلم القدرة على التكلم والتحدث بلغة الرحمة، التي يعتمدها القرآن الكريم في آياته وأسلوبه. والطريق لتحقيق ذلك هو في بداية الأمر، تربية ألسنتنا وتهذيبها حسب الأوامر القرآنية، ومن ثم تحسينها وتجميلها بالتلقينات الإلهية.



وكثير من المصائب والمشاكل التي نواجهها في هذه الأيام في المناسبات الإجتماعية والمادية، إنما سببها هو الإستخدام الخاطئ والغير مناسب لإسلوب الكلام.

فكما أن اللسان هو مفتاح للخير، فإنه إن لم يُستخدم في موضعه المناسب والصحيح فسيكون مفتاحاً للشر أيضاً. لذا يجب علينا أن نكون حريصين على أن لا يكون لساننا كالشوك الذي يجرح قلوب الناس ويؤذيها.

وكما قال أجدادنا رحمهم الله:

«إن جرح السيف يلتئم، أما جرح اللسان لا يلتحم».

لذا يجب علينا أن نفكر جيداً قبل أن نتكلم، وأن نقدر المكان الذي سيصله الكلام. حيث أن الكلام هو كأن نأخذ حجراً بيدنا ونقذفه. فعلينا أن نقدر النقطة التي سيقع فيها الحجر الذي سنقذفه، وذلك لتجنب إيذاء الآخرين. كما قال سيدنا محمد ﷺ كما ورد في الحديث الشريف، مشيراً إلى هذه الحقيقة:

"ولا تكلم بكلام تعتذر منه" (ابن ماجة، الزهد، ١٥)

والكلام الذي خرج من الفم هو كالرمح الذي انطلق من القوس. ولا يمكن إعادته إلى مكانه. والشخص هو حاكم لكلامه قبل أن ينطق به، ومحكوم لديه بعد أن يخرج من فمه. ولديه الفرصة الدائمة في التكلم بالكلام الذي لم يخرج من فمه أينما شاء ومتى ما شاء. أما الكلام الذي خرج من الفم، فسيكون الإنسان دائماً في وضع المدافع عنه، أو المتهم به وبنتائجه.



ويحرص المؤمنون الحقيقيون قبل أن يتكلَّمُوا بأيةِ كلمة، على أنها هل ستفيد أحداً أم لا. فإذا قدروا أن تلك الكلمة سوف تؤذيهم أو تؤذي أحداً من الناس غيرهم، فيفضلون السكوت. ويحاولون دائما أن يتكلموا بالكلام المناسب في المكان والزمان المناسبين، وحسب المستوى المناسب للمخاطبين.

وكما حذرنا سيدنا أبوبكر الصديق ﵁، حيث قال:

«فكر جيداً فيما سوف تقول، ومتى تقول، ولمن تقول».

ويجب على المؤمن أن يتميز بالفراسة، وأن يكون قادراً على تصنيف كلامه حسب الناس الذي يود مخاطبتهم. فالتصرف الذي يسعد أحداً من الناس ربما يزعج الآخر. لذا يجب أن نخمن الوضع النفسي للشخص الذي نتكلم معه، وبعد تحديد ذلك الوضع نتكلم بالكلام المناسب، غير مهملين التفكير بما سنتكلم وننطق به، وحساب عدة خطوات إلى الأمام.

أي يجب أن لا نتحدث عن شيء في بداية الحديث، كان يجب علينا التحدث به في آخره.

ويحظى من يتميز بالفراسة على إعجاب الناس وتقديرهم دائماً. فيستمعون إلى نصائحهم، ويعتمدون عليهم في جميع أمورهم.

ولهذا السبب، كان النبي الكريم ﷺ يتكلم بالمواضيع التي تنال إعجاب الناس واهتمامهم. وكان ينظم ويرتب كلماته حسب الشخص الذي يتحدث إليه، وحسب مستواه وإدراكه.



فكان يتكلم مع الأعرابي البسيط في أساسيات الواجبات التي تترتب عليه، ورؤوس الأقلام في الأعمال التي يجب عليه القيام بها. أما الصحابة الكرام ﷺ، فكان يتكلم معهم في خواص الأمور، وأسرار الحكم الدقيقة والعميقة.

فعلى الرغم من أن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ كان ذا علم وفير ومعرفة واسعة، فإنه قد قال هذه الجملة بعد أن استمع إلى حديث النبي ﷺ، مع سيدنا أبي بكر الصديق ﷺ، فقال:

«كنت عندهم كالشخص الذي لا ينطق العربية. ولم أفهم شيئاً من كلامهم».

ولكي لا يدَع سيدنا محمد ﷺ مجالاً لذوي الإدراك السطحي أن يفهموا بالمعنى الخاطئ الحقائق والأمور الدقيقة والعميقة، فقال ناصحا كما ورد في الحديث الشريف:

"ما أنت محدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان على بعضهم فتنة" (الديلمي، ٧، ٣٥٩).

وقال سيدنا جلال الدين الرومي ناصحاً، وكأنه يشرح هذا الحديث الشريف:

«لا تبع مرآة في سوق العميان، ولا تنشد في سوق الطرشان».

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه و سلم خرج ذات يوم على راحلته و أصحابه معه بين يديه فقال



معاذ بن جبل : يا نبي الله أتأذن لي في أن أتقدم إليك على طيبة نفس ؟ قال : نعم فاقترب معاذ إليه فسارا جميعا فقال معاذ : بأبي أنت يا رسول الله أن يجعل يومنا قبل يومك أرأيت إن كان شيء و لا نرى شيئا إن شاء الله تعالى فأي الأعمال نعملها بعدك ؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

الجهاد في سبيل الله ثم قال رسول الله ﷺ نعم الشيء الجهاد والذي بالناس أملك من ذلك فالصيام والصدقة قال: نعم الشيء الصيام و الصدقة فذكر معاذ كل خير يعمله ابن آدم فقال رسول الله ﷺ: وعاد الناس خير من ذلك قال : فماذا بأبي أنت و أمي عاد بالناس خير من ذلك ؟ قال : فأشار رسول الله ﷺ إلى فيه قال : الصمت إلا من خير قال : وهل نؤاخذ بما تكلمت به ألسنتنا ؟ قال : فضرب رسول الله ﷺ فخذ معاذ ثم قال : يا معاذ ثكلتك أمك ـ أو ما شاء الله أن يقول له من ذلك ـ وهل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلا ما نطقت به ألسنتهم فمن كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت عن شر قولوا خيرا تغنموا و اسكتوا عن شر تسلموا" (الحاكم، ٣١٩/ ٧٧٧٤)

لذا يجب على المؤمن أن لا ينسى أن كل كلمة ينطق بها، ستُسجّل وتُحفظ بواسطة أجهزة التسجيل والتصوير الإلهية. وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق، ١٨)

وإذا لم نحاسب على ما قلناه في الحياة الدنيا، فإننا وبالتأكيد سنحاسب عليه يوم القيامة. لذا فإنه من الواجب علينا أن نحرص بدقة على الكلمات التي تخرج من أفواهنا، بقدر حرصنا على اللقيمات التي تدخله. وقد أعطى القرآن الكريم أهمية بالغة لآداب الحديث، أي أنه حرص على تعليم المسلمين تلك الآداب والأخلاق الحميدة.

ما هو أسلوب الكلام الذي يحثنا القرآن الكريم على اتباعه؟

بداية، لقد أمرنا القرآن الكريم بأن نستخدم ألفاظاً حسنة ولطيفة في كلامنا. وأمرنا بالتحدث بـ «اَلقَولِ الحَسَنِ»[1] أي بأجمل وأحلى الكلام. وأمرنا أن لا ننطق بأي كلمة بذيئة تجاه الأب والأم، وحتى ولو كانت كلمة أفٍّ، وأن نقول لهم «قَوْلاً كَرِيْمَاً» (الإسراء، ٢٣). وأمرنا أيضا إن لم نجد شيئاً نتصدق به على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل أن نقول لهم «قَوْلاً مَيْسُوْرَاً» (الإسراء، ٢٨) أي كلاماً يواسيهم ويريح بالهم. وورد في القرآن الكريم كلمة «قَوْلٌ مَعْرُوْفٌ» (البقرة، ٢٦٣) أي الكلمة العذبة اللطيفة، أنها أفضل وأخيَر عند الله ﷻ من عمل ضاع أجره بسبب الرياء. وورد أيضاً أنه علينا أن نقول «قَوْلاً مَعْرُوْفَاً» (النساء، ٥، ٨) لليتامى والمساكين والمحتاجين للحماية والرعاية والدفء، كالطير المكسور الجناح، أي أن نتكلم إليهم بلسان عذب وأسلوب لين.

١. انظر الى البقرة، ٨٣؛ الاسراء، ٥٣



وأمرنا أيضاً بأن نقول «قَوْلاً مَعْرُوْفَاً» (الأحزاب، ٣٢) لمن لديه ضعف ومرض معنوي في قلبه، لكي لا نفسح مجالاً للتهمة والفتنة والفهم الخاطئ، أي أن نقول قولاً مناسباً وفي مكانه. وورد أيضا أن نقول «قَوْلاً لَيِّناً» (طه، ٤٤) للظالمين لتطرية قلوبهم. أي أن نقول قولاً لطيفاً وعذباً. ويحذرنا القرآن الكريم من أن الكلام القاسي والحديث الجلف أثناء نشر الدعوة وتبليغ الرسالة، أنه يؤدي إلى نتائج سلبية. لذا ينصحنا أن نتكلم بلسان عذب ووجه متبسم، وبأسلوب مبشر لا منفر، ويزيد المحبة بدلاً من أن ينهيها. وأمرنا القرآن الكريم أيضا أن نقول «قَوْلاً بَلِيْغَاً» (النساء، ٦٣) أثناء التبليغ ونشر الدعوة، أي أن نقول قولا مؤثراً في النفوس والقلوب.

وبذلك يلقننا القرآن الكريم أنه يجب أن يكون كلامنا نابعاً من القلب لكي يكون مؤثراً، وقادراً على الوصول إلى القلوب ودخولها. أما إذا كان كلامنا نابعاً من اللسان فقط دون أن يتصل بالقلب بصلة، فسوف يدخل من أذن ويخرج من الأذن الأخرى. فيخبرنا القرآن الكريم بأن الكلام السطحي والذي مصدره اللسان فقط، أن مصيره كمصير تلك الأزهار التي تتفتح على أطراف الرصيف، والتي لا تعمر طويلاً بل تتلف وتداس تحت الأقدام.

بالإضافة إلى أنه من جملة الأوامر الإلهية أن لا يكون التبليغ والإرشاد بمجرد كلام عابر، بل يجب أن يكون بليغاً، أي مؤثراً في الروح والقلب. ويجب أن يكون عذباً لطيفاً وعبارة عن كلمات أدبية مختارة بعناية، وتنبع منها الحكمة والرزانة.



وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل، ١٢٥)

فالحكمة هي السر التي تَجْذِبُ الروح، والكلام الحكيم هو غذاؤها. وكما قال سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه:

«أريحوا أرواحكم بالأقوال والأفعال الحكيمة والمفيدة، فالأرواح تتعب كما تتعب الأجساد»

أي يجب على المؤمن أن يكون لسانه منبعاً للحكمة، ينبع منه الجمال الروحي والمعنوي للحقائق الإلهية.

ويأمرنا القرآن الكريم بأن نقول «قَوْلاً سَدِيْدَاً» (النساء، ٩ ؛ الأحزاب، ٧٠)، أي أن نتكلم بكلام صحيح وصادق خال من النفاق والكذب. وإذا أردنا أن يعاملنا الناس بعدل وصدق وأمانة، يجب أن نكون مُنصفين في الأمور فندافع عن الحق في كل مجال من مجالات الحياة. وبذلك نكسب رضاء الله ﷻ وعفوه، ونكسب القدرة على أداء أعمالنا بالشكل الصحيح والمطلوب.

حيث أن شرط الإسلام الضروري والذي لا يمكن التخلي عنه، هو أن لا نسكت عن الحق، وأن نتميز بالصدق والإخلاص، وأن لا نخدع أحداً في تعاملنا مع الآخرين. والمسلم هو من يصدق



القول ولوكان مراً أو صعباً، أو معاكساً لمصالحه ورغباته. حيث أن الرسول ﷺ لم يكذب أبداً، بل ولم يقل كلمة واحدة غير حقيقية، حتى في ممازحاته ومداعباته لغيره. وقد وصل شعور الصدق عنده إلى مرتبة رفيعة جداً، لدرجة أنه عندما رأى امرأة تنادي ابنها قائلة: (هَا تَعَالَ أُعْطِيكَ)

فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِﷺ:

« وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيهِ»

قَالَتْ أُعْطِيهِ تَمْرًا. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

« أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِيهِ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَة » (أبي داود، الأدب، ٨٠/ ٤٩٩١ ؛ مسند أحمد، ٣، ٤٤٧)

وهكذا فإن القرآن الكريم - الذي هو قدوتنا في الهداية والإستقامة - بكل آياته يدعونا إلى أن نتكلم بكلمات عذبة ولينة ومناسبة، وصحيحة وصادقة. ويمنعنا منعا باتاً عن ما خالف ذلك.

الأقوال التي حرّمها القرآن الكريم

وقد ورد في القرآن الكريم أن كلام أهل الشرك والكفر الذي لا يمت إلى الصحة والصدق بصلة وأنهم يقولون «قَوْلاً عَظِيمًا» (الإسراء، ٤٠).وأنه «بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ» (الرعد، ٣٣). وأنه «قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ» (الذاريات، ٨)

وقد نهانا بشدة بقوله «وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ» (الحج، ٣٠) بجميع أنواعه، ابتداءً بالنفاق والشرك والكفر الذي يُرتكب بحق الله ﷻ، وإن تهديد القرآن الكريم وتوعده عظيم وكبير جداً لشاهد الزور.

وقد منع الله ﷻ أن يقوم الناس بـ«الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ»(النساء، ١٤٨) ونشره بين جميع الناس ممن لهم علاقة ومن ليس لهم علاقة. واستثنى بعض الحالات الخاصة كإفشاء المظلوم أو المتهم للقاضي بكل ما حدث له أو ما قيل له من كلام سيئ وجارح. وعلينا أن لا ننسى أن إفشاء السيئات ونشرها بين الناس بحيثُ تكون سبباً في انتشارها في المجتمع وتعلمها من قبل أفراده. ويشمل ذلك أيضاً الكلام الذي فيه قلة أدب وحياء.

وكما قال النبي ﷺ في الحديث الشريف:

"الحياء والعي شعبتان من الإيمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق" (الترمذي، البر والصلة، ٨٠)

ويجب علينا أن نحرص على أن لا يعتاد لساننا على قول الكلام البذيء دائماً. فالقصة التالية تشرح وتوضح هذه الحقيقة على أحسن حال:

وحدثني مالك عن يحيى بن سعيد ان عيسى بن مريم لقي خنزيراً بالطريق فقال له انفذ بسلام فقيل له تقول هذا لخنزير فأجابهم معبراً عن حرصه على عدم إيذاء الحيوان بالقول الغليظ والقاسي، وخوفه من مخاطبته بكلمة فظة ككلمة الخنزير حيث قال: (اني أخاف ان أعود لساني النطق بالسوء) (موطأ مالك، الكلام، ٤).



ومن البديهي أن الكلمات التي يكررها اللسان لعدة مرات، تشكل ضعفاً لديه، فيعتاد على قولها دائماً. فيا للكارثة أن تكون الكلمة التي اعتاد اللسان أن يقولها قذرة وبذيئة وغير لائقة بالشخص وبمستواه الإِجتماعي. وهذه عادة لا تليق بالمؤمنين أبداً، بل تؤذي الصالحين وتنفرهم.

وكما قال النبي ﷺ في الحديث الشريف:

"إن شر الناس من تركه الناس أو ودعه الناس اتقاء فحشه"

(البخاري، الأدب، ٤٨)

وكان الرسول المصطفى ﷺ لا يحب استخدام الكلمات القذرة والبذيئة في كلامه. وأوصانا عليه الصلاة والسلام أنه إذا وُجدت عدة كلمات تفيد نفس المعنى أن نختار الكلمات التي تتناسب مع الأدب واللطافة والرقة.

وقد نهى القرآن الكريم أسلوب الكلام الذي يعتمد على تحوير الكلمات وتحريفها، وعلى الإطالة في الحديث والمبالغة فيه باستخدام «**زُخْرُفَ الْقَوْل**» بهدف إخفاء بعض الحقائق، ومحاولة إظهار حقائق أخرى. ويجب على المؤمن أن يحرص على أن يكون كلامه بسيطاً وسهل الفهم والإِستيعاب. وأن لا ينسى أن هدفه وغايته من التكلم هو التعبير عن مقصده وهدفه بشكل واضح وصريح.

وإن التصنع في الحديث - أي محاولة تزيينه بشكل مبالغ فيه -



ومحاولة إقناع الناس بأساليب أدبية معقدة وغير واضحة، تزعزع اعتبار الشخص، فيخسر اعتمادهم عليه وثقتهم به. ويولد التكلم بكلام فارغ دون أي هدف أو مرام نفس الشعور عند مخاطبي الشخص.

وقد أخبرنا سيدنا محمد ﷺ أن هذا النوع من الكلام يجلب غضب الله ﷻ. فقال عليه الصلاة والسلام كما ورد في الحديث الشريف:

"مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلاَمِ لِيَسْبِىَ بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ أَوِ النَّاسِ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً" (أبي داود، الأدب، ٨٦/ ٥٠٠٦)

فلهذا السبب، ينبغي علينا أن نتكلم ونعبر عن مرادنا وطلبنا دون الإطالة في الحديث. ويجب أن يكون كلامنا ذو شفافية ووضوح كالماء النقية، وأن يكون سلساً وسهل الفهم والإستيعاب.

وكما قال مولانا جلال الدين الرومي:

«إن الحديث الطويل هو أسلوب يتبعه من لا يستطيع توضيح مراده ومطلبه»

وإطالة الحديث بلا مغزى، وإعادة وتكرير نفس الكلام مراراً ومراراً، إنما ذلك من العادات السيئة التي تصيب مخاطب الكلام بالملل والضجر، وتضعه في موقف قليل الفهم. ويسمى ذلك في الأدب بـ «الإطناب» أي الثرثرة في الحديث بدون معنى .



ولكي نتكلم بشكل جيد وعذب وسلس، يجب علينا بداية أن نتعلم أن نستمع جيداً وننصت لمن يتكلم. فقد وهب الله ﷻ الإنسان أذنين ولساناً واحداً، لكي يستمع كثيراً ويتكلم قليلاً. والكلام الكثير والثرثرة في غير مكانها تُقلل من قيمة الإنسان وقدره، وتُسقطه من عيون الناس.

ويجب على المؤمن أيضاً أن يتجنب إسراف الوقت بإطالة الحديث والثرثرة في الجدال العقيم الذي لا فائدة منه ولا جدوى منه على الإطلاق.

وكما قال الإمام الأوزاعي الذي (توفي عام ١٥٧هـ):

«إذا أراد الله سبحانه وتعالى بقوم سوءً، فتح لهم باب الجدل الذي لا فائدة منه، ومنعهم عن العمل»

لذا فإن الغيبة والنميمة والثرثرة الفارغة هي من جملة الإسراف في الكلام.

وكما قال النبي ﷺ في الحديث الشريف:

"كلام ابن آدم عليه لا له إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذكر الله ﷻ" (ابن ماجة، الفتن، ٦٤)

وورد أيضاً في حديث شريف آخر:

"يا حفصة إياك وكثرة الكلام فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله



تميت القلب وعليك بكثرة الكلام بذكر الله فإنه يُحي القلب " (علي المتقي، رقم: ١٨٩٦)

وورد أيضاً في حديث شريف آخر:

"واملاء الخير خير من السكوت و السكوت خير من إملاء الشر" (الحاكم، المستدرك، ٣، ٣٤٣/ ٥٤٦٦؛ البيهقي، شعب الإيمان، ٤، ٢٥٦/ ٤٩٩٣)

لذا يجب علينا أن نقدر جيداً أين ومتى نتكلم، ونحسب مقدار الكلام الذي يجب أن نتكلم به دون إطالة أومماطلة.

وكما قال الشيخ سعدي الشيرازي:

«شيئان يدلان على خفة العقل، السكوت عند ضرورة الكلام، والكلام عند ضرورة السكوت»

بالإضافة إلى أنه يجب علينا أن ننظم مستوى الصوت أثناء الكلام على حسب الشخص الذي نخاطبه وحسب ظروفه. وقد منعنا القرآن الكريم من التكلم بصوت عال وقبيح يسبب الإزعاج لأذن السامعين بغلاظته وفظاظته.

وكما قال الله ﷻ كما ورد في الآية الكريمة:

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان، ١٩)

وكان بعض الصحابة الكرام ﷺ يتكلمون بصوت عال في مجلس النبي ﷺ، فجاءهم إنذار إلهي في هذا الخصوص، وكما ورد في الآية الكريمة:



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات، ٢)

ويعني ذلك أنه يجب علينا أن نخفض من أصواتنا أدباً في مجالس الكبار ومن يستحق الإحترام والتقدير.

بالإضافة إلى أنه يجب علينا أن لا ندع مجالاً لألسنتنا أن تتسخ بالقبائح والصفات الرديئة كالغيبة والنميمة وسوء الظن والإفتراء على الآخرين. وتلك القبائح هي آفات وكوارث اللسان والتي تدل على فساد القلب.

وبالنتيجة، فإن المؤمن الذي تخلّق بأخلاق القرآن الكريم هو كالوردة المتفتحة. فيجب عليه أن يؤثر في الروح والقلب بجماله وبرائحته العطرة. وأن يكون كلامه مكوناً من الكلمات العذبة والجذابة التي تغذي الروح. وأن ينشر اللطافة والرقة والرحمة على ما حوله بلسانه الحلووالعذب. وأن لا يحرم وجهه من الإبتسامة الدائمة التي ستكون عنصراً هاماً في نشر السعادة والسرور. وأن يتصف بالصفات والخصل الحميدة لكي يكون «الأحسن، والأجمل، والأكمل».



الأحسن: أي أن تكون جميع أعماله حسنة، وأن يكون مصدراً للحسن يوزعه على من حوله.

الأجمل: أي أن يكون في درجة عليا من الظرافة واللطافة تعطيان نشوة وطمأنينة وسكينة للروح والقلب.

الأكمل: أي أن يكون ناضجاً نضوجاً تاماً، وأن يكون كامل الأوصاف.

والمؤمن المثالي الذي يتميز بهذه الصفات الحميدة تكون أعماله كمرآة تعكس وجه الإسلام وجماله وعظمته، وما يعطي الناس من طمأنينة وسكينة وراحة.

وحسب ما ورد عن أوصاف النبي ﷺ أن وجهه عبارة عن نور مشع، وأن في قوله سلاسة، وفي تصرفاته لطافة ورقة، وفي لسانه طلاقة، وفي كلماته فصاحة، وفي بيانه بلاغة فائقة. وأن كلامه لذيذ لأبعد الحدود ويدغدغ الروح ويؤثر فيها تأثيراً إيجابياً. وكلماته كانت على قدر، أي لم تكن زائدة أوناقصة.

وكانﷺ يتكلم بتأنٍّ كلمةً بكلمةً، وتُفهم جميع جمله من قبل مستمعيه بكل سهولة. ولم يكن يتكلم بسرعة. أي باختصار، إن النبيَّ ﷺ هو أفصح الناس وأكثرهم طلاقةً، وأكثرهم حكمةً، وأكثرهم بداهةً وبياناً. فكان يتكلم باختصار ويعبر عن مراده ومقصده بالشكل الصحيح.



وعن أبي قرصافة قال:

لما بايعنا رسول الله ﷺ أنا وأمي وخالتي ورجعنا من عنده منصرفين قالت لي أمي وخالتي يا بني ما رأينا مثل هذا الرجل أحسن منه وجهاً ولا أنقى ثوباً ولا ألين كلاماً ورأينا كأن النور يخرج من فيه) (الهيثمي، ٨، ٢٧٩-٢٨٠).

اللهم اجعلنا من عبادك الذين يستحقون شفاعة رسولك وحبيبك محمداً ﷺ ، الذي أرسلته رحمةً للعالمين.

ويسّرْ اللهم أمورنا في التخلق بأخلاق القرآن الكريم، وفي تنظيم تصرفاتنا وأعمالنا حسب ما ورد فيه....آمـين.







* ﴿وأحسن كما أحسن الله اليك﴾ (القصص، ٧٧)

* أن أولياء الحق ﷻ يتسوقون من المحلات التي يقل زوارها (سعدي شيرازي)

الجُودُ والأنفاقٌ

يجب على المؤمن أن يكون رؤوفاً بالآخرين كالهواء العذب. وأن يكون كريماً كالأمطار الغزيرة. وأن يبحث في كل زمان ومكان عن رضا الله ﷻ. وأن يكون مصدراً ومنبعاً للطمأنينة والسكينة والسرور في قلوب من حوله.

وعلى هذا، فإن أولياء الحق ﷻ يُشعّون نوراً وضياء كالبدر الذي ينعكس نوره على وجه مياه البحار في الليالي الظلماء. وقد تحلوا بأجمل الصفات التي تليق بالمؤمن كالرحمة والعطف والشفقة على الآخرين، والكرم والإنفاق في سبيل الله ﷻ. وهم بإنفاقهم كالأنهار التي تتدفق بغزارة وقوة، حاملين الخير والسعادة وراحة البال لكل من يواجههم ويلقاهم في طريقه، من إنسان وحيوان وشجر وطير وزهر وسنبلة.



الجُودُ والإنْفَاقُ

إن الرحمة هي أول ثمرة من ثمار الإيمان. والإنفاقُ هو أبرز علامة للإيمان وأكثر مظاهره نضوجاً. والإنفاق هو بَذْلُ المال والروح لله ﷻ. وحياة الأنبياء الذين هم ذروة فضائل البشرية، وحياة ورثتهم من العلماء والصالحين والأولياء مليئة بمظاهر الرحمة والإنفاق بلا حدود.

تسابقوا على فعل الخير

وعن عبدالرحمن بن أبى بكر قال صلى رسول اللهﷺ الصبح ثم أقبل على أصحابه فقال هل منكم أحد أصبح صائماً فقال عمر يارسول الله لم أحدث نفسي بالصوم البارحة فأصبحت مفطراً فقال أبو بكر لكنّي حدثت نفسي بالصوم البارحة فأصبحت صائماً فقال رسول الله ﷺ هل منكم اليوم أحد عاد مريضاً فقال عمر يارسول الله صلينا ثم لم نبرح فكيف نعود المرضى فقال أبو بكر بلغني أن أخي عبدالرحمن بن عوف اشتكى فجعلت طريقي عليه حين خرجت إلى المسجد لانظر كيف أصبح فقال رسول الله ﷺ هل منكم أحد أطعم اليوم مسكيناً فقال عمر يارسول الله صلينا ثم لم نبرح فقال أبو



بكر دخلت المسجد فإذا أنا بسائل يسأل فوجدت كسرة خبز شعير في يد عبدالرحمن فأخذتها فدفعتها إليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت فأبشر بالجنة فتنفس عمر فقال واهاً للجنة فقال النبي صلى الله عليه وسلم كلمة رضى بها عمر رحم الله عمر رحم الله عمر لم يرد خيراً قط الا سبقه أبو بكر إليه" (الهيثمي، ٣، ١٦٣-١٦٤؛ أبي داود، الزكاة، ٣٦ / ١٦٧٠؛ الحاكم، ١، ٥٧١/ ١٥٠١)

وإن أهم درس يجب أن نأخذه من هذا الحديث الشريف هو أن نبحث في كل لحظة عن أي عمل خيّر يكون وسيلة في الحصول على رضا الله ﷻ. وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الانشراح، ٧-٨)

وقال الله ﷻ في آية كريمة أخرى واصفاً عباده الصالحين الذين رضي عنهم ورضوا عنه، قال:

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران، ١١٤)

وهكذا فإنه شرط أساسي على المؤمن أن يكون سباقاً إلى فعل الخير، وأن تكون هذه الميزة هي من طبيعته الأساسية.

ويجب عليه أن يكون رؤوفاً بالآخرين كالهواء العذب. وأن يكون كريماً كالأمطار الغزيرة. وأن يبحث في كل زمان ومكان عن رضاء الله ﷻ. وأن يكون مصدراً ومنبعاً للطمأنينة والسكينة والسرور في قلوب من حوله.



ولهذا السبب فإن أولياء الحق ﷻ بكرمهم وإنفاقهم كالأنهار الغزيرة والوفيرة، يتدفقون طوال حياتهم، حاملين الخير والسعادة وراحة البال لكل من يواجههم ويلقاهم في طريقه، من إنسان وحيوان وشجر وطير وزهر وسنبلة، أي باختصار، يدخلون السرور على قلب جميع المخلوقات.

والإنفاق الحقيقي هو أن تبحث عن رضا الله ﷻ وتتمناه، عن طريق التوجه إلى القلوب المهمومة والحزينة، بقلب مليء بالإخلاص والصدق، وبأخلاق حميدة كالرحمة والشفقة والإيثار. والإسراع بكل ما تملك من إمكانيات لتعويض الآخرين ما فقدوه وحرموا منه في حياتهم.

وقد جعل الله ﷻ ميزة الإنفاق - التي هي بمثابة تعبير أصيل للنفوس والقلوب التي عجنت بالرحمة والعطف والشفقة، وهي في الحقيقة تلبية لكرامة وكبرياء الوجود البشري - جعلها في مرتبة أهم العبادات الإِجتماعية

ولا شك في أن الإنفاق هو هدية لا مثيل لها من الله ﷻ لعباده المخلصين. أي أن الله ﷻ طلب من عباده أن يقدموا له جزءً من النعم الكثيرة والوفيرة التي وهبها إياهم، كتعبير عن شكره والثناء عليه. وبالمقابل جعله من أهم أبواب السعادة الأبدية في كسب الأجر والثواب، ووسيلة لمراجعة النفس وتذكيرها بالمعاصي والذنوب التي يرتكبها الإنسان.



أكرموا الدين بالجود والإنفاق

إن رأس مال الروح الوحيد المطلوب لأداء واجب الإنفاق هو «الكرم» . وإن انتظار حدائق وجنان الروح التي لك تزرع ببذور الكرم، بأن تثمر بثمار الإنفاق هو عبارة عن مضيعة للوقت، وحلم لا يمكن أن يتحقق.

وقد أشار النبي الكريم ﷺ إلى أن الكرم هو عبارة عن وسيلة للتعبير عن المحبة الإلهية والتقرب من الله ﷻ. حيث ورد في الحديث الشريف:

"إإن الله كريم يحب الكرم و يحب معالي الأخلاق و يكره سفسافها" (الحاكم، ١، ١١١/ ١٥١)

والكرم الذي هو عبارة عن لذة الإيمان يجلب ويجذب رضاء الله ﷻ وحبه، كما يجذب حب الناس أيضاً، فكما ورد في الحديث القدسي:

"ان هذا دين ارتضيته لنفسي ولن يصلح له إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما منحتموه" (الهيثمي، ٨، ٢٠؛ علي المتقي، كنز العمال، ٧١/ ٣٩٢)

والكرم بكامل معناه هو نتيجة طبيعية للإيمان بالله ﷻ واليوم الآخر. وقد وضح ذلك سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه، حيث قال:

«الإيمان كشجرة، جذرها اليقين، وغصنها التقوى، ونورها الحياء، وثمرتها الكرم».



وقال الشيخ سعدي الشيرازي:

«الكريم هو كالشجرة المثمرة. أما البخيل فهو كالحطب الجاف في الجبل ». مشيراً إلى أن تجرد الإنسان من خصلة الكرم تؤدي إلى تحوله إلى قطعة من الحطب الذي لا يفيد إلا في حرقه لإشعال النار.

العلّتان الكبيرتان: الإسراف والبخل

الإسراف هو الإنفاق على النفس أكثر من المطلوب. والبخل هو التقتير على النفس أكثر من الحد اللازم. وكلاهما من الخصل السيئة كالأنانية. ولا يقبل الله عزّ وجلّ بل ويرفض ويرد العبودية المبنية على هاتين الخصلتين السيئتين. وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء، ٢٩)

وورد أيضاً في آية كريمة أخرى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾

(الفرقان، ٦٧)

وإن إعطاء النعمة حقها يتم عن طريق عدم إنفاقها في الأماكن والمواضع التي نهى عنها الله عزّ وجلّ. وعن طريق تجنب الوقوع في الخطرين الكبيرين:«الإسراف» و«البخل» أيضاً. وإن كارثة الغنى هي البخل والطمع والجشع، أما دواؤه هو«الكرم».



وقد عرف الإمام الغزالي الكرم على أنه حالة الإعتدال والإتزان بين الإسراف والبخل.

ومن جانب آخر، فإن كارثة الكرم والإنفاق هي «الإسراف». أي أن إنفاق المال دون حساب بهدف الكرم، وصرف النعمة في أماكن ليست ضرورية هو إسراف أيضاً.

ويجب أن نلفت انتباهنا في موضوع الإنفاق إلى أن الإسراف ليس هو كثرة الإنفاق، بل أن الإنفاق - ما قل منه أوكثر - في الأماكن غير المناسبة يعتبر إسرافاً. بينما الإنفاق في الأماكن المناسبة والمطلوبة لا يُعدُّ إسرافاً ولوكان كثيراً، بل ينال الشخص عليه التقدير والثناء. وكما تعبر الجملة التالية عن هذه الحقيقة:

«لا خير في الإسراف، ولا إسراف في الخير».

وإن أفضل دليل على أن كثرة الإعطاء والإنفاق في غاية خيّرة وهدف سامٍ أنه لا يُعدُّ إسرافاً، تبرع سيدنا أبو بكر الصديق ﵁ بكل أمواله، بإحضارها ووضعها بين يدي رسول الله ﷺ.

وفي الجانب الآخر، فإن البخل ليس الإنفاق والإعطاء القليل، بل عدم الإنفاق بالقدر المطلوب والمناسب حسب الإمكانيات والظروف المتاحة. حيث أن الشخص مسؤول فقط على قدر إمكانياته وظروفه.



وقد شرح الشيخ سعدي هذه الحقيقة على النحو التالي:

«لم يغلق الله ﷻ أبواب الخير على أحد من الناس. واعلم أن مسؤولية كل شخص هي حسب قدرته وإمكانياته. ولا يستوي إعطاء الغني قنطاراً من ذهب مما ملكه من خزائن، بإعطاء الفقير قطعة من كد يديه وعرق جبينه. وإن قدم الجراد هو عبء ثقيل بالنسبة للنمل».

وفي معركة اليرموك، عندما آثر الشهداء الثلاثة في آخر أنفاسهم شربة الماء على بعضهم البعض، وفي النهاية بقي وعاء الماء مليئاً دون أن يشربه أحد منهم. فإن إنفاق شربة الماء هذه ربما تجاوزت حسناتها حسنات كثير من التبرعات التي يُظن أنها كبيرة وعظيمة. لأنه ليس من المهم في هذه الحالة شفة الماء تلك، بل عظمة غنى النفس التي أبداها هؤلاء الناس الصالحون.

ومن هذا المنظور، فلو كان الإنفاق بقليل من المال بُخلاً، لكان الكرم امتيازاً خاصّاً بالأغنياء وأصحاب الثروات. مع العلم أن الغنى والفقر هما تقديران إلهيّان ملتزمان مع سر الإمتحان الذي سيتعرض الناس إليه في الحياة الدنيا. وليس بإرادة العبد واختياره أن يكون غنياً أو محتاجاً. لذا فإن موضوع الغنى والفقر ليس متعلقاً بالأموال والأملاك والثروات، بل متعلق بالقلوب والصدور.

هذا يعني أن المؤمن المحدود الدخل والإمكانيات بوسعه أن يكون كريماً، بل وواجب عليه ذلك. والإيمان يتوجب علينا في كل



أحوالنا وأوضاعنا أن نكون عباداً متميزين بالكرم. لأن الكرم والبخل أمران متعلقان بقدر النسبة التي ننفقها مما نملك، لا بمقدار ما نملك.

وكان النبي الكريم ﷺ يشجع جميع المؤمنين - الأغنياء منهم والفقراء - على الإنفاق في سبيل الله ﷻ. وكان يقول لمن ليس عنده مال الا تمرة فليتصدق منها، كما ورد في الحديث الشريف:

"اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجد فبكلمة طيبة" (البخاري، الأدب، ٣٤)

وورد عنه ﷺ في حديث شريف آخر:

"يا عائشة.. لا تردي المسكين ولو بشق تمرة" (الترمذي، الزهد، ٣٧)

وورد أيضاً:

"تبسمك في وجه أخيك لك صدقة" (الترمذي، البر، ٣٦)

عن أبي ذر قال:

إن خليلي ﷺ أوصاني إذا طبخت مرقا فأكثر ماءه ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف (مسلم، البر، ١٤٣)

دواء قسوة القلوب هو: الكرم والإنفاق

إن لكل عبادة من العبادات جمالية وفضائل وكسب معنوي تتميز بها القلوب والصدور أثناء أداء تلك العبادة. ولذلك الكسب المعنوي أهمية كبرى في ترويض الإنسان وتخليصه من الميزات الفظّة والخشنةِ والجلفة، وتحويله إلى مؤمن ناضج متصف بالأخلاق والصفات الحميدة.



وكما قال عمر بن عبد العزيز - رحمة الله عليه -:

«الصلاة توصلك الى نصف الطريق، والصوم يوصلك إلى باب المليك الأعلى، أما الصدقة ترفعك عند الملك».

وإذا حللنا كلمة «الإنفاق » ودرسنا المعاني التي تحويها، نرى أن لهذه العبادة حكمة، وهي تخليص الإنسان بروحه وكرامته وعزة نفسه من أسر المادة والتعلق بها. وتجعله بفضل المعنويات على الأمور المادية الفانية. وبهذا الشكل يكون الإنفاق من بين بقية العبادات كلها، هو الذي يهب المؤمن فائدة «راحة الضمير»، عدا عن كل العبادات الأخرى.

وقد عبر علي الأصفهاني عن هذه الحقيقة على النحو التالي:

«بحثت كثيراً وحاولت أن أكون على عافية وبدون ذنوب. ووجدت ذلك في الزهد، أي في ترك كثير من الأمور المباحة خوفاً ًمن الوقوع في الشبهات. وبحثت عن الحساب السهل فعثرت عليه في السكوت. وبحثت عن الراحة والطمأنينة والسكينة والهدوء فوجدتها في الإنفاق والكرم ».

لأن كل إنسان هو مسؤول عن محيطه وعن الناس من حوله. وليس بمقدوره ولا من حقه أن لا يلبي صرخات المظلومين وينجدهم، ويسعى على سد حاجات ومتطلبات الفقراء والمحتاجين. ويجب عليه أن يكون قلبه مليئاً بنشوة الكرم والإنفاق. وأن يكون رحيماً ولطيفاً في التعامل، ومؤْثراً على الآخرين. وأن يكون مضيئاً



ومشعاً كسطوع القمر على وجه ماء البحر في الليلة الظلماء.

وقد جعل الله ﷻ المخلوقات وسيلة لبعضها البعض في تأمين رزقهم وقوتهم . فبناء على ذلك فإن مراقبة المحتاجين، وتخصيص حصة مما رزقنا به الله ﷻ لهم، هو لطف إلهي وفضيلة لا مثيل لها.

ولن تجد روح المؤمن الطمأنينة والسكينة طالما أنه لم يُلبِّ نداء المحتاجين والفقراء ويسعى على تأمين متطلباتهم وحوائجهم.

وكما قال سيدنا جلال الدين الرومي:

«اعلم أنه للروح فائدة في ضياع المال والملك والجسد. فيخلصها ذلك من العقاب والويل. والمال إذا أُنفق أوتُبرع به، فهو يبدو ظاهرياً أنه قد ضاع وتلاشى، أما في الحقيقة فإن مئات من تجليات الحياة المعنوية والروحانية تكون قد أَضْفَتْ على الروح النشوة والطمأنينة والسكينة التي لا مثيل لها».

ويجب علينا أن نسعى لكسب الثروة الدنيوية لكي توصلنا إلى السعادة الأبدية في الآخرة، وإلى راحة البال والضمير في الحياة الدنيا، وذلك بالقيام بالأعمال الخيّرة وتقديم المساعدات ابتداء بالأقارب، وانتهاء بالعجزة والمحتاجين وأولاد السبيل والفقراء المتواجدين في المجتمع الذي نعيش فيه. فإذا كانت النية في كسب الثروة بهذا الشكل، فسوف تحل النشوة والهدوء والراحة والطمأنينة محل القسوة والجلافة والإكتئاب والهموم التي يسببها التفكير المادي بصعوبات الحياة الدنيا ومتطلبات العيش.



ولنستمع إلى سيدنا محمد ﷺ وهو يخبرنا عن دواء قسوة القلوب التي تعتبر أحد الأمراض المهمة في حياتنا اليومية. فقال عليه الصلاة والسلام كما ورد في الحديث الشريف:

"إِنْ أَرَدْتَ تَلْيِينَ قَلْبِكَ فَأَطْعِمْ الْمِسْكِينَ وَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ"

(أحمد بن حنبل، المسند، ٢، ٢٦٣)

وقال سيدنا جلال الدين الرومي، وكأنه يشرح هذا الحديث الشريف:

«إن النفوس الغارقة في الفقر تشبه البيت المليء بالدخان. فافتح نافذة على ذلك البيت لكي يتلاشى الدخان ويستنشق أهله الهواء العذب، بإنصاتك لهمومهم، فيرق قلبك وتصبح روحك حساسة ولطيفة».

وهكذا فإن الأرواح المطمئنة والهادئة التي رقت بالإنفاق والكرم، ووصلت إلى النضوج النفسي والعقلي، تعيش بسرور وسعادة رؤيتهم أن ما أنفقوا به في سبيل الله ﷻ كان وسيلة للحماية الإلهية والنجاة من سخط الخالق ﷻ. فيتوجهون بكامل مشاعرهم وأحاسيسهم إلى الإنفاق أكثر فأكثر.

وكما قال سيدنا جلال الدين الرومي:

«إن الصلاة التي تقوم بأدائها تكون راعية لك، وتحميك من الذئاب ومن كل سوء يعترضك. أما الصدقة التي تعطيها للفقراء والمحتاجين، فتكون حارسة لجيبك، فتحميه وتحمي ما فيه من



الضياع. وإن الذهب لا ينقص أبداً بالزكاة، بل على العكس فإنه يزداد ويتكاثر».

وهذه حقيقة لا داعي للمناقشة والجدال عليها، فإن المال الذي زكّي لا ينقص ولا يضيع. بل على العكس تماماً فإنه يزداد وينمو بقدر الإخلاص في الإنفاق.

فمثال على ذلك، سيدنا أبوبكر الصديق رضي الله عنه، حيث كان ينفق جميع أمواله ويتصدق بها لدرجة أنه يصل إلى مادياً إلى نقطة الإفلاس، فعلى الرغم من ذلك كانت ثروته وأمواله تعود إليه بلطف الله ﷻ مراراً وتكراراً. لأن المال الذي ينفق في سبيل الله سﷻ هو كالشجرة التي شُذّبت وقُلّمت مجدداً، فأصبحت أكثر حيوية ونُمُوّاً، وهكذا يصبح المال أكثر نموّاً وازدياداً.

وكما قال الله ﷻ في الآية الكريمة:

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة، ٢٦١)

والمال الذي لا ينفق في سبيل الله ﷻ، يصبح كماء المستنقعات الذي يتعفن وتفوحُ رائحته الكريهة نتيجة بقائه في مكانه وعدم تحركه وتنقله. وكما قال الشيخ سعدي:

«لا تظن أنك ستعلو وتكبر بتخزين المال. فالماء الساكنة في المستنقعات تفوحُ برائحة كريهة جداً. فحاول أن تتبرع بمالك، لأن السماء تكون في عون الماء المتدفقة، فتهطل الأمطار وترسل السيول، ولا تتركها للجفاف ».

ويعبر سيدنا جلال الدين الرومي عن هذه الحقيقة بالشكل التالي:

«من يزرع زرعاً، يُفرّغ في بداية الأمر حانوته من البذور. ثم تصبح حاصلاته كثيرة ووفيرة. أما من يُبْقي البذور في الحانوت ولا يزرعها، فهو في النهاية يترك تلك البذور لتكون غذاء للفئران».

إن الزكاة والصدقات تطهر ما تبقى من المال وتنظفه من الشوائب. إضافة إلى أنها تكون واقياً معنوياً لمن قام بها. وكما قال سيدنا محمد ﷺ كما ورد في الحديث الشريف:

"با كروا بالصدقة فان البلاء لا يتخطاها" (الهيثمي، مجمع الزوائد، ٣، ١١٠)

وتوجد في القرآن الكريم أكثر من مائتي موضع ورد فيه الأمر بالإنفاق والحث والتشجيع عليه، وما ذلك إلا دلالة على الرحمة الإلهية اللامتناهية للعباد. حيث أن الله ﷻ بدعوته لعباده بأن يقوموا بعبادة الإنفاق، هو في الحقيقة يدعوهم للإستفادة من نشوة هذه العبادة وبركتها وخيراتها المعنوية.

أنفِق ما فَضُل من الحاجة

تبدأ حالة الزهد عندما تستسلم القلوب بالحب والصدق والإخلاص لله ﷻ. فلا يبقى للمال والثروة المادية أية قيمة في



القلوب وفي الأعين. ويعبر فقط عن قيمته بقدر فرصته في أن يكون وسيلة للتقرب من الله ﷻ. والمؤمن الذي يرجو ويطلب رضا الله ﷻ، يكتفي بقدر بسيط من مقومات الحياة التي تؤمّن له معيشة بسيطة خالية من البذخ والترف والتكبر وحب المظاهر، ويبحث دائماً عن طرق الإنفاق في سبيل الله ﷻ.

ويجب علينا أن نتخذ نسل الصحابة الكرام ﷺ قدوة لنا، في عدم الميول لحياة البذخ والترف والإسراف. بكونهم حصلوا على التربية المثالية في إقليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فعلى الرغم من أنهم قد اغتنوا بالأموال والغنائم التي تدفقت على المدينة المنورة نتيجة الفتوحات الإسلامية، ولكنهم لم يغيروا مادياً من نمط معيشتهم البسيطة، وبقيت بيوتهم كما كانت عليه سابقاً لا تدل على مظاهر البذخ والإسراف. بل عاشوا في قمة سلطنة الروح ونشوة الضمير وقد حصلوا على الغنى الحقيقي بإنفاق الأموال والغنائم التي كسبوها. ولم تكن العادات السيئة كالإسراف الزائد والبذخ والترف وحب المظاهر - التي تشكل أخطر الأمراض الاجتماعية بين الناس - لم تكن من صفات وعادات الصحابة الكرام ﷺ. لأنهم كانوا يعيشون مقتنعين بأن المكان الذي سيصله جميع الناس مستقبلاً هو القبر.

وقد كتب الإمام مالك رسالة للخليفة آنذاك، حيث قال:

«لقد حج سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ عشر مرات. وحسب ما أعلم أنه كان يقلل مصاريفه لدرجة أنه كان ينفق اثني عشر ديناراً



طوال فترة الحج. فكان لا يستأجر خيمة للراحة، بل كان يستريح في ظل الشجر. وكان يحمل قِربة الحليب على عنقه. وكان يتنقل بين الأسواق والحوانيت، ويزور الباعة والتجار ويتحدث إليهم وينصت إلى همومهم » (القاضي عياض، ترتيب المدارك، ص ٢٧١)

أي أن سيدنا عمر بن الخطاب ﵁ كان يبدي اهتماماً بالغاً في موضوع الاقتصاد في المعيشة، لدرجة أنه كان يؤدي فريضة الحج مكتفياً بأقل الإحتياجات الشخصية. وبذلك ينفق ما فاض من ماله في سبيل الله ﷻ. حيث أن ربنا ﷻ قد بين لنا أن مقياس الإنفاق هو كما ورد في الآية الكريمة:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (البقرة، ٢١٩)

فعلى هذا الأساس فإن أقل مقياس للكرم هو إنفاق الفائض من المال الذي لا حاجة له.

وقال سيدنا محمد ﷺ في هذا الخصوص كما ورد في الحديث الشريف:

"يا ابن آدم إنك أَنْ تبذُلْ الفضلَ خيرٌ لك وأن تمسكْه شرٌّ لك ولا تُلامُ على كفافٍ وابدأْ بمنْ تعولُ واليدُ العليا خيرٌ من اليدِ السُّفلى" (مسلم، الزكاة، ٩٧؛ الترمذي، الزهد، ٣٢)

لذا يجب علينا أن لا نتجاوز مقدار الحاجة، وأن نقدر حدود حاجاتنا بإنصاف وصدق وأمانة. وأن نقيّم الفائض عن حد الحاجة من أموالنا في إنفاقها في سبيل الله ﷻ.



السعي على زيادة الكرم

يلخص أحمد بن أبو ورد - رحمة الله عليه - حالة أولياء الحق ﷻعلى النحو التالي:«هناك ثلاثة أمور إن ازدادت عند ولي من أولياء الله ﷻ، ازدادت أحوالهم جمالاً:

١- كلما ارتقى مستواه ومنصبه، ازداد تواضعه.

٢- كلما طال عمره، كثرت خدماته وأعماله الخيّرة.

٣- كلما تكاثرت أمواله ونمت، ازداد كرمه وإنفاقه».

وكان شيخنا وأستاذنا السيد محمود سامي رمضان أوغلو - أحد أولياء الحق ﷻ - مثالاً رائعاً عن الكرم والإنفاق، لدرجة أنه كان يعتقد أن ما ينفقه ويتصدق به على الفقراء والمحتاجين غير كاف. فكان يفضل المشي على قدميه من (قره كوي) إلى (تحته قَله)، بدلاً من أن يستقل المواصلات. لكي يتصدق بالمال المخصص للمواصلات للفقراء. أي أنه كان يزيد من إنفاقه مستغنياً عن راحته وحاجاته.

فالأموال التي تنفق في سبيل الله ﷻ إنما هي عبارة عن رأس مال للسعادة الأبدية في الآخرة.

وقد نصحنا سيدنا جلال الدين الرومي بهذه النصيحة الجليلة، مشيراً إلى طريق الوصول إلى تلك السعادة الأبدية، حيث قال:

«قلل من أكلك وشربك في الحياة الدنيا، كي تلاقي حوض الكوثر في الآخرة. فهل من الممكن أن يهرب الصيد الوفير من شخص سكب قطرة من الماء على تراب الوفاء ؟!».



وعلينا في يومنا الحاضر أن نحاول قدر الإمكان تطبيق وإعاشة هذا الخلق الرفيع والحميد حتى ولو بتضحية صغيرة من أنفسنا، في التقليل من المصاريف اليومية، ومن الراحة والبذخ والترف الشخصي، ومن أثاث بيوتنا. علما بأن وضع أفراد المجتمع من الفقراء والمحتاجين وأولاد السبيل والمظلومين، هو كاف لكي نعتبر ونتأثر ونستخلص الدروس التي تدفعنا وتشجعنا على تقديم تلك التضحيات الصغيرة.

والأغنياء الذين رسموا طريقهم على أساس هذه العبر والدروس، يُحاولون دائماً تجنب البحث عن الراحة، وعن البذخ والترف وحب المظاهر. أما من كان بعيداً وغافلاًعن هذه الحقائق، وقد بالغ في إسراف أمواله على شهواته النفسية قائلاً: «أليس هذا المال لي ؟ فإنه لدي الحق في أن أنفقه وأسرف به كيفما شئت. ولا حق لأحد من الناس أن يتدخل بي وبإسرافي».

فإن هؤلاء الناس هم من وصفهم القرآن الكريم بأنهم أصدقاء الشيطان الرجيم، وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (الإسراء، ٢٧).

عمى البخل وضلالته

ومن الشروط الضرورية والأساسية للإنسان بأن يكون من أهل الإنفاق الحقيقي في سبيل الله ﷻ، هي أن يعيش حياة العبودية التي



وصلت إلى درجة الإحسان. أي أن يعبد الله ﷻ وينفق في سبيله كأنه يراه. وإن قدرة العبد على رؤية العظمة والقدرة الإلهية في كل مكان وزمان، متعلق ببقاء عين القلب والضمير متفتحة ومترصدة. وللوصول إلى درجة الكرم الحقيقي، فمن الضروري وجود الإيمان المترسخ والقوي، والذي يدفع الإنسان ويشجعه على الإنفاق والتصدق، وكأنه يرى المكافآت والثواب الذي سيحصل عليه في الآخرة.وقد عبر سيدنا جلال الدين الرومي عن هذه الحقيقة بالشكل التالي:

«قال سيدنا محمد ﷺ فيما معناه : (من يعرف جيداً المكافأة التي سيحصل عليها في الآخرة، أي من يؤمن بأنه سيحصل على عشرة أضعاف ما أنفق به في الحياة الدنيا، يحاول دائماً وبكل الأشكال أن يزيد من كرمه وإنفاقه). فالكرم هو رؤية جميع المكافآت المستقبلية. لذا فإن الكرم يجلب السعادة والأمل، ويذهب مخافة ضياع ما أنفق في سبيل الله ﷻ في الحياة الدنيا.

والبخل هو عدم رؤية المكافآت التي بشر بها سيدنا محمد ﷺ. وإن رؤية اللؤلؤ تسعد الغَوّاص. وعلى هذا الحال يجب أن لا يتصف أحد من الناس بالبخل في الحياة الدنيا. لأنه لن يُقبل أحد بالدخول في تجارة ليس لها مردود.

وذلك يعني أن مصدر الكرم هو العين وليس اليد. والشيء



النافع والضروري هو القدرة على الرؤية بتلك العين. ومن لم تر عينه ولم يبصر فؤاده، فإنه لن ينجومن البخل».

وفي الحقيقة، فإن البخل هو عمى القلب عن التفكير بالموت، الذي هو عاقبة الحياة، والتفكير بما بعد الحياة وما بعد الموت. وهو أيضا إنكار شديد وواضح للمعروف تجاه الله ﷻ الذي خلق كل شيء وسخره لعباده.

وقد نبهنا سيدنا جلال الدين الرومي أيضاً عندما قال:

«من يجلس على ضفة نهر ولم يقدم للناس من مائه، هو شخص أعمى لا يرى ذلك النهر».

وقد حذرنا الله ﷻ من الوقوع في ذلك العمى، ومن إنكار المعروف. حيث قال ﷻ كما ورد في الآية الكريمة:

﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحديد، ١٠)

وورد في آية كريمة أخرى:

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾

(المنافقون، ٧).



وورد أيضاً:

﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد، ٣٨)

أي باختصار ؛ فإننا نعيش في ملك مَن؟ ونرتزق من رزق من؟ وبالنتيجة، هل يليق بنا أن نمنع مال الله ﷻ من الله ﷻ؟!.

ولا شك بأن صاحب المال الحقيقي هو الله ﷻ. وهو يعطي أمواله لنا كأمانة. والعبد هو بمثابة موظف حفظ الأمانات، ومأمور بالتصرف والتحرك ضمن القوانين التي فرضت عليه. ولكنه موظف مسؤول عن تصرفاته وأعماله. فالعبد الذي أمّن الله سبحانه وتعالى لديه بعض المال هو مؤمن في نفس الوقت على المحتاجين والفقراء وأولاد السبيل. ومن يتصف بهذه الصفات الحميدة، ويمتلك هذا الشعور بالمسؤولية، فإنه لن يخون الأمانة ويترك من حوله دون اهتمام أورعاية.

أَنْفِق أُنْفِقْ عليك

إن الإنفاق على خلق الله ﷻ والعطف والشفقة عليهم هو أفضل تعبير عن محبة الخالق ﷻ، وأفضل مظهر للشكر والثناء عليه، على ما تمنن به على عباده من نعم وخيرات لا تحصى. وعلينا



أن نتحلى بالكرم والإحسان لعباد الله ﷻ الفقراء والمحتاجين لأننا بحاجة لرحمته وإحسانه لنا. حيث أن هؤلاء العباد هم وسيلة امتحان لنا في الحياة الدنيا.

وكما قال الله ﷻ كما ورد في الحديث القدسي:

"يا ابن آدم.. أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ" (البخاري، التوحيد، ٣٥)

وكما ورد في الحديث الشريف عن سيدنا محمد ﷺ أنه قال:

"لا توكي فيوكى عليك" (البخاري، الزكاة، ٢٠)

"لا توعي فيوعي الله عليك ارضخي ما استطعت" (البخاري،الزكاة،٢١)

فإن أردنا أن نكون من المؤمنين الحقيقيين، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، فإننا مكلفون بالتصدق على عباد الله ﷻ الفقراء والمحتاجين والإنفاق عليهم بكرم وعطاء ما قد رزقنا ربنا ﷻ.

اللهم لا تحرم قلوبنا من وجد الإيمان، ومن حرارته المعنوية والروحانية. ولا تحرم اللهم أرواحنا من سعادة الكرم ونشوته. وارزق اللهم قلوبنا طمأنينة الإنفاق وراحته...آميـــن.





آداب الإنفاق

المؤمن هو إنسان كريم وجواد. أما الكرم الحقيقي فهو أن تنفق وتحسن دون أن ترمش عيناك أوترجف يداك. وأن تهب الحياة وسعادتها للقلوب كأمطار الربيع، وأن تشعر بالسعادة والسرور عندما تنفق بكل صدق وإخلاص. ويجب على المؤمن أن ينفق ويتصدق بروحانية، على أن هاتين الميزتين هما من ميزاته الطبيعية والتي يجب على جميع المؤمنين التحلي بها. وأن يكون كالوردة التي تقدم لمن حولها أجمل الروائح الزكية وألطفها. وبذلك تكتسب الحسنات والأعمال الخيّرة قيمةً عند الله عزّ وجلّ ويكتسب المؤمن بواسطتها رضاه.وما أجمل ما عبّر عنه الشيخ سعدي: (إذا أنك لا تذهب إلى باب أحد لتطلب حاجة، لأِداء الشكر والثناء على ذلك فلا تطرد المسكين الذي قصد بابك. ولا تنهره وتغضب عليه، بل قابله بالبسمة والوجه البشوش).

آداب الإنفاق

إذا قمنا بدراسة عن أصل التصوف وغايته، نرى أن أهم وسيلة للمتصوفين في الإنكشاف والتجلي المعنوي هو الحب، وذروته في هذا الترقي هو التأدب والحرص على الأدب في جميع مجالات الحياة. فعلى هذا الأساس فإن المؤمن يبقى في الطريق الصواب الذي يؤدي إلى التقرب من الله ﷻ، بقدر النسبة التي استطاع أن يخصصها من قلبه لمحبة الله ﷻ ومحبة رسوله الأكرم محمدﷺ. وأكبر إثبات لذلك هو محاولة التخلق بالأخلاق النبوية.

ويشكل «شعور الأدب» السامي أصل وأساس الأخلاق النبوية الرفيعة. وكما قال الصحابة الكرام ﵃ عن النبي الكريم محمد ﷺ أنه كان ذا حياء شديد، وحاله كحال الفتاة العذراء التي غطت نفسها بعباءتها حياءً وخجلاً. وكما قال ﷺ معبراً عن الأدب الذي كان يتحلى به، حيث ورد في الحديث لشريف:

"أدبني ربي، فأحسن تأديبي" (السيوطي، جامع الصغير، ١، ١٢)



وقال سيدنا جلال الدين الرومي عن الأدب الذي يعتبر ذروة الفضائل البشرية:

«إذا أردت أن تدوس على رأس الشيطان وتهشمه، فافتح عينيك وانظر جيداً، فالأدب هو ما يقهر الشيطان. وإن لم يتواجد الأدب عند أحد من البشر فهو في الحقيقة ليس بإنسان».

وعلى هذا الأساس فإن أهم اللوحات التي كتبت على جدران المقامات والمباني الدينية القديمة، كانت عبارة عن لوحات تنبه وتذكر الناس بالأدب. فكان قد كتب على الكثير منها: «أدب يا هُوْ» أي بمعنى: «تأدبوا أو عليك بالأدب يا أيها الأنسان». ولديها معنى آخر في نفس الوقت حيث تعني «اللهم أحسن إلينا بالأدب».

وشعور الأدب الذي يشكل أصل الإيمان وأساسه، هو الخصلة التي تحيط بالمؤمن من جميع جوانبه، وفي كل لحظة من لحظات حياته. وخاصة أثناء قيامه بالعبادات وأثناء تعامله مع الناس.

وقد بين الله ﷻ أنه قد خلقنا وخلق كل شيء لكي نعبده فقط. فمن هذا المنظور فإن عبادتنا ومعاملتنا الحسنة مع الآخرين هي بمثابة حبل الوريد لعبوديتنا تجاه خالقنا ﷻ. أي أنه لا يمكن أن نتخيل حياة العبودية التي نعيشها دون عبادة الله ﷻ ودون تعامل حَسن مع الآخرين.

بالإضافة إلى أنه ليس كافياً أداء واجبات العبودية تجاه الله ﷻ، بل أن كيفية أداء تلك الواجبات تحمل أهمية كبيرة جداً في هذا الصدد. لأن الشرط الوحيد والأساسي للتقرب من الله ﷻ



والحصول على رضائِه ومحبته هو الحرص على الأدب في التعامل مع الناس، وفي القيام بالعبادات. ولهذا السبب فإن الأعمال والواجبات التي يقوم بها العبد دون أن يتقيد بشروط وقواعد الأدب وأصول الأركان، بل يقوم بتأديتها من قبيل التخلص من شعوره بأنه مجبر على القيام بها، إنما أجرها وثوابها ضائع، وهي من الأعمال التي ستكون هباءً منثوراً. ولا يبقى منها لصاحبها إلا التعب والوقت الذي أضاعه من دون فائدة ولا جدوى.

وكما ورد في الحديث الشريف عن سيدنا محمد ﷺ أنه قال:

"رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع . ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر" (ابن ماجة، الصيام، ٢١)

فكما أننا نحرص على الإهتمام بشروط الخشوع في الصلاة التي تشكل عماد الدين، فيجب علينا أيضاً أن نحرص على قواعد الأدب وأن نبدي اهتمامنا لتطبيقها أثناء قيامنا بالعبادات الأخرى كأداء الزكاة والصدقات. وإن لم نفعل ذلك فإننا نستحق قول الله ﷻ الذي وجهه للمصلين الذين لا يخشعون في صلاتهم ولا يقومون بأدائها كما يجب، حيث قال:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّيْنَ﴾ (الماعون، ٤)

فالقيام بأداء عبادة الإنفاق بأسلوب خاطئ وغير لائق بالأدب وبقوانينه وشروطه، يؤدي بالعبد إلى نفس العاقبة السيئة.



لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى

لقد علمنا الله ﷻ قواعد الأدب في الإنفاق وأمرنا بالتقيد بها، كما قال ﷻ في الآيات الكريمه:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة، ٢٦٢-٢٦٤)

وقد بين الله ﷻ في الآيات الكريمة بشكل واضح بأنه يجب علينا أن نحرص على تعلم قواعد الأدب والتقيد بها أثناء القيام بالأعمال الخيّرة والحسنة. أي أنه لا قيمة عند الله ﷻ لعمل قام به أحد من الناس وقد أهان محتاجاً، أو أخجل فقيراً، أو استهزأ بمسكين. والذين ينفقون أموالهم بقلب قاس كالحجر وخال من العواطف والمشاعر الإنسانية، فإنهم يقضون بأيديهم على ثوابهم وأجورهم التي سينالونها من الله ﷻ مقابل أعمالهم.

ولا يذهب ثواب من تفاخر بعمل الخير وأهان الفقراء والمحتاجين بما أنفق وتصدق به عليهم فحسب، بل يكون بذلك



قد جلب غضب الله ﷻ عليه بنفسه. فكما ورد في الحديث الشريف أن الرسول ﷺ قد كرر الجملة التالية لثلاثِ مرات حيث قال:

" ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"

فقال سيدنا أبوذر الغفاري رضي الله عنه:

ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم قال فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مراتٍ قال أبو ذر خابوا وخسروا من هم يا رسول الله ؟ قال

"المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب" (مسلم، الإيمان، ١٧١).

وكما رأينا في الحديث الشريف، فإن الإنفاق المليء بالرياء والمظاهر والمن هو من الأعمال الخطيرة التي توقع الإنسان في العذاب وسخط الله ﷻ، بدلاً من أن يحصل على الثواب والأجر. لأن قلوب البشر تتميز بالرقة الإلهية، ولا تحتمل الذل والإيذاء بأي شكل كان.

بالإضافة إلى أن الزكاة والصدقات هي حق طبيعي من حقوق الفقراء والمحتاجين قد أمر الله ﷻ بأن تؤخذ من مال الأغنياء وتعطى إليهم. وإن إيتاء الزكاة وإعطاء الصدقات ليس من النوافل التي تعتبر تجملاً وتلطفاً على المساكين والفقراء، بل هو إعطاء كل



ذي حق حقه. والثروة والمال الدنيوي ما هو إلا عبارة عن أمانة إلهية أُودعت من قبل الله ﷻ عند بني البشر. ومن نسي وغفل عن ذلك، وظن نفسه - بكونه واسطة لإيصال نعم الله وأمانته إلى أصحابها - بأنه قد عمل عملاً يسمح له بأن يتباهى به ويتكبر بفضله على الفقراء والمساكين، فما ذلك إلا حماقة منه وجعل وسوء نية.

لذا يجب علينا أن لا نتكبر في الإنفاق ولا نستصغر الفقير، بل على العكس تماماً، فيجب علينا أن نضع أنفسنا مكانه ونتفكر ونتأمل في أننا ربما في يوم من الأيام نصل إلى حد تسوء فيه حالتنا وتؤول إلى حال ذلك الفقير. حيث أن موضوع الغنى والفقر - ولو أنه يتطلب قليلاً من الجهد والعمل - فهو بالأساس موضوع يتعلق بالقسمة التي قُسمت للإنسان، وبرزقه الذي كُتب له من قبل الله سﷻ. وإنه بمقدورِ الخالق ﷻ أن يجعل الغني فقيراً، والفقير غنياً في أي لحظة شاء. وتلك الأمور لا تعتبر مقياساً على المستوى ورقية المقام عند الله ﷻ. وكلاهما عبارة عن شكل من أشكال الإمتحانات والإختبارات التي يتعرض لها البشر في الحياة الدنيا. ولا فرق بين أحد بالمستوى والمقام، بل الفرق هو فقط بالتقوى. إذاً فالتكبر على فقير أومحتاج بسبب التصدق والإنفاق عليه، ما هو إلا غفلة الشخص عن سر الإمتحان الذي يمتحن به في حياته.

وكما قال الشيخ سعدي شيرازي في كتابه« البستان»:



«إذا أحسنت لأحد من الناس وتصدقت فلا تتكبر عليه بقولك (أنا سيد، أنا عظيم، وهذا الفقير محتاج لي ولمالي). ولا تقل أن سيف الزمان قد ضرب ذلك المحتاج، لأن السيف الذي قد ضربه لم يدخل غمده بعد. ومن الوارد في يوم من الأيام أن يضربك أنت أيضاً ذلك السيف».

ويجب على الأغنياء أن يكونوا دائماً في تفكر وتأمل في حالة الفقراء وذلك بوضع أنفسهم في مكانهم، وأن لا ينسوا أن الله ﷻ كان بوسعه أن يخلقهم في وضع أولئك الفقراء وأن يخلق الفقراء في وضع الأغنياء. وبما أنه قد خلقهم بهذا الشكل وعلى هذه الوضعية، ووهب الأغنياء النعم الوفيرة، فعليهم أن يعرفوا بأن الله ﷻ قد جعل الفقراء أمانة عليهم، وأنه قد جعل الضعفاء أمانة على الأقوياء، وجعل الأغنياء والأقوياء مسؤولين عنهم. فعلى الأغنياء أن يتصدقوا وينفقوا على الفقراء شكراً وثناء على ما رزقهم الله ﷻ.

وكم تحتوي كلمات الشيخ سعدي من معان جميلة ومفيدة عندما كتبها في كتابه« البستان» حيث قال:

«إذا قصد فقير بابك فلا ترسله فارغ اليدين، فلا قدر الله أن تكون يوماً فقيراً مثله وتقصد أبواب الناس. و واس جريح القلب، وكن معه وبجانبه، واسأله عن أحواله، فربما تؤول أحوالك إلى مثل أحواله في يوم من الأيام. وأنت الذي لا تذهب إلى باب أحد لتطلب حاجة، شُكراً وثناء على ذلك فلا تطرد المسكين الذي قصد بابك.



ولا تنهره ولا تغضب عليه، بل قابله بالبسمة والوجه البشوش.

وكما ورد في الآيات الكريمة:

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَى. فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ. وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ. وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى، ٨-١١)

ويجب علينا أن نقوم بعمل الخير وننساه مباشرة، وذلك لكي لا نترك في أنفسنا مجالاً وفرصة للتكبر وجرح القلوب وإيذاء النفوس والمنّ بما أنفقنا به. وذلك من أهم شروط المعاملة اللطيفة والمؤدبة تجاه الفقير والمحتاج.

وكما قال لقمان الحكيم:

«شيئان عليك أن لا تنساهما، الله ﷻ والموت؛ وشيئان عليك أن تنساهما، الخير الذي قَدَّمته لأحد، والسوء الذي قدمه أحد لك».

وإنها لنعمة كبيرة وقيّمة أن يكون الإنسان بالمعنى الحقيقي أهلاً للتصدق والإنفاق في سبيل الله ﷻ. وإن هذه النعمة تعطي للإنسان سعادة ونشوة في الدنيا والآخرة. ومن يؤدي هذه العبادة كما يجب، وكما بشرنا الله ﷻ، فسوف ينجو من الخوف والفزع الذي يصيب الناس في يوم الحساب العصيب والشديد. لذا فقد حثنا الله ﷻ الذي وسعت رحمته كل شيء في مئات الآيات الكريمة، وحثنا سيدنا محمد ﷺ الذي يريد الخير وحسن العاقبة لأمته في كثير من الأحاديث الشريفة، فقد حثّنا الله ورسوله على التصدق والإنفاق



في سبيل الله، وبتقيدنا بذلك فقد بشّرنا الله ورسوله بالوصول إلى الطمأنينة والسكينة والراحة والسعادة الأبدية.

وقد حذرنا الله ﷻ من ضياع أجر الإنفاق في سبيله ببعض الأعمال والتصرفات التي لا تليق بالمؤمنين، وأمرنا أن نتقيد بآداب الإنفاق حتى نحصل على الأجر والثواب، مقابل هذه العبادة ومقابل هذه النعمة العظيمة التي لن نفهمها ونحس بقيمتها بالمعنى الكامل إلا في الآخرة.

إن المؤمن هو إنسان كريم. أما الكرم الحقيقي فهو أن تنفق وتحسن دون أن ترمش عيناك أوترجف يداك. وأن تهب الحياة وسعادتها للقلوب كأمطار الربيع. وأن تشعر بالسعادة والسرور عندما تنفق بكل صدق وإخلاص. ويجب على المؤمن أن ينفق ويتصدق بروحانية، على أن هاتين الميزتين هما من ميزاته الطبيعية والتي يجب على جميع المؤمنين التحلي بها. وأن يكون كالوردة التي تقدم لمن حولها أجمل الروائح الزكية وألطفها. وبذلك تكتسب الحسنات والأعمال الخيّرة قيمة عند الله ﷻ ويكتسب المؤمن بواسطتها رضاه. والإنفاق بهذا الشكل فقط هو الإنفاق الذي يتقبله الله ﷻ ويكافئ المؤمن عليه. وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة، ١٠٤)



ويعبر سيدنا جلال الدين الرومي - أحد أولياء الحق ﷻ - عن بركة الإنفاق الذي يقوم به الشخص ضمن حالة روحية لطيفة ورقيقة، حيث قال:

«أنفق أموالك وأملاكك وكل وُجُودك بشكل جيد، وادخل قلوب الفقراء والمحتاجين، لكي يكون دعاء هذه القلوب نوراً لك يضيئ مكانك في ليالي القبر الظلماء».

وكما أننا لا نمنع أموالنا وإمكانياتنا عن الفقراء والمحتاجين عندما نتصدق عليهم، فيجب علينا أن لا نمنع عنهم الإبتسامة العذبة أيضاً، وأن نعاملهم برقة وحنان وأسلوب لطيف.

وكان سيدنا محمود سامي رمضان أوغلو- أحد أولياء الحق ﷻ - إذا رأى محتاجا بينما هو مستقل سيّارته، كان يوقف المركبة ويذهب إلى ذلك المحتاج ويتصدق عليه بصدقة، مزيناً ذلك بابتسامة ورقة في المعاملة.

أنفق على الفقير كأنك تشكره

يتوجب الأدب الإسلامي والرقة واللطافة على المسلم بأن يُنفق النعمة التي رزق بها على الفقراء والمساكين. إضافة إلى أن المعطي يجب أن يكون في حالة شكر وثناء لذلك المحتاج والفقير الذي تصدق عليه. لأنه قد أراحه من عبء مسؤوليته بأداء ذلك



الواجب، ولأنه كان وسيلة له لاكتساب الأجر والثواب الوفيرين. وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة، ٢٧٢)

أي أن البركة الأصلية لأي عمل خير، ستكون من نصيب من قام بعمل ذلك العمل. وبدون نقص، بل بزيادة أضعافاً مضاعفةً، بقدر إخلاصه وصدقه في إنفاقه. أي أن الإنفاق الذي يبدو ظاهرياً أنه فائدة للآخذ، إنما هو في الحقيقة فائدة عظمى للمعطي والمتصدق بها أكثر من الآخذ. لذا فعلى المعطي أن يكون شاكراً للآخذ بدلاً من أن يمن عليه.

وقال الشعبي:

«الغني الذي لا يعتقد أنه بحاجة إلى ثواب الصدقة بقدر حاجة الفقير إليها نفسها، هو من ألغى صدقته وأضاع أجرها وثوابها».

أي طوبى لنا إن استطعنا أن نصل إلى مرتبة السخاء الحقيقي. ولا يتم ذلك إلا بأن نختبر قلوبنا وأنفسنا عندما ننفق بدلاً من أن نختبر قلب ونفس الفقير.

وكثير ممن يقومون بعمل خير ويتصدقون على الفقراء والمساكين، ولكنهم يأملون بالمقابل منفعة، أويؤذون من تصدقوا



عليه بالمن. والقليل من الناس الذين يعتقدون ويؤمنون بأن الإنفاق والتصدق وأن المحتاج الذي أنفقوا عليه، إنما كل ذلك يُعد من نعم الله ﷻ الوفيرة.

وعلى العبد أن يشكر ربه ﷻ ويثني عليه لأنه هيأ له فرصة القدرة على الإنفاق. ويجب عليه أن يكون في حالة الشكر للمحتاج الذي كان الوسيلة للحصول على تلك الفرصة وكسب الثواب بالإنفاق عليه.

وقد نصحنا الشيخ سعدي بهذه النصيحة القيمة في خصوص اعتبار أن الإنفاق نعمة من الله ﷻ، حيث قال:

«اشكر الله لأنه وفقك على عمل الخير. وأنه لم يتركك وحيداً بما أنعم عليك وأحسن إليك. ومن خدم حاكماً لا يمن عليه، فكن ممنوناً لله ﷻ لأنه أعطاك قدرة خدمته».

وكانت حالة الإنفاق والتصدق عند والدي المحترم موسى طوبّاش أفندي - رحمة الله عليه - تحتوي في هذا الخصوص على مقاييس الأدب التي يجب أن تكون قدوة لنا في حياتنا. فكان ينفق ويتصدق على الفقراء والمحتاجين ضمن أسلوب إسلامي أنيق وجميل، مبني على الظرافة واللطافة ورقة الإحساس. فكان يضع النقود التي يريد أن يتصدق بها في مغلف ورقي، وكان يكتب هذه العبارة الجميلة بعد توجيه خطاب أنيق باسم الشخص الذي يريد أن



يعطيه ذلك المغلف: «نشكركم لقبولكم إكرامنا». أي أنه كان في حالة الشكر والثناء لمخاطبه الفقير، لأنه كان وسيلة له للحصول على رضا الله ﷻ. وكان رحمة الله عليه يحرص على أن لا يشعر مخاطبه بأي نوع من المن أو الذل أو الإستصغار.

وقد عبر سيدنا جلال الدين الرومي عن هذه الحقائق بهذه الكلمات المعبرة والمليئة بالحكمة، حيث قال:

«الشخص المحتاج هو مرآة أصحاب الكرم والسخاء، وإياك أن تقف أمام تلك المرآة وتعكرها بتكلمك بكلام جارح يؤذي القلوب والعواطف».

وقال أيضاً:

«كما أن الفقير محتاج للصدقة، فالصدقة أيضاً بحاجة للفقير. وكما أن الشخص الجميل يبحث عن مرآة نظيفة ولامعة وخالية من الغبار والأوساخ، فإن الكرم والسخاء أيضا يبحثان عن المحتاجين والفقراء والضعفاء».

وقال أيضاً:

«إن الفقراء هم مظهر من المظاهر التي تعكس تجلي الله ﷻ على الأرض. وهؤلاء الفقراء يقصدون أصحاب الكرم والسخاء، ويحكون لهم عن همومهم ومشاكلهم واحتياجاتهم. وبذلك يهيئون طرق السعادة للأغنياء الذين حالفهم الحظ».



ولهذا السبب، فإذا قصد بابنا محتاج وأخبرنا عن همومه وأحزانه واحتياجاته، فعلينا أن نتقبل ذلك على أنه كرم ورحمة خاصة من الله ﷻ لنا، وأنه شرف لعبوديتنا تجاه خالقنا ﷻ.

وقد شرح سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه هذه الحقيقة بأسلوب جميل وبارع، حيث قال:

«ما أدري أي النعمتين أعظم علي منة من ربي رجل بذل مصاص[1] وجهه إلي فرآني موضعا لحاجته وأجرى الله قضاءها أو يسره على يدي ولأن أقضي لامرئ مسلم حاجة أحب إلي من ملء الأرض ذهبا وفضة » (علي المتقي، كنز العمال، ٦، ٥٩٨/ ١٧٠٤٩)

وإن تكبر من تصدق وأنفق على فقير، أو انتظاره منه أن يطري عليه ويمدحه ويشكره إنما يذهب ويمسح كل أجر وبركة الأعمال الخيّرة. فيجب على من ينفق ويتصدق على الفقراء والمحتاجين أن لا يرجو ولا يأمل سوى رضاء الله ﷻ، ويدعوله بأن يتقبل طاعته وعبادته. وأن لا ينسى أن انتظاره كلمة شكر أوإطراء أوحتى انتظاره الدعاء من المحتاج، إنما يقلل من درجة الإخلاص ويحجب عنها النور.

وفي هذا الصدد يجب على جميع المؤمنين - أهل الإنفاق والتصدق في سبيل الله ﷻ - أن يتخذوا سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وسيدتنا فاطمة رضي الله عنها قدوة لهم في خصوص الإنفاق. حيث

١. المصاص: خالص كل شيء. النهاية، ٤، ٣٣٧.



أنهم قد نالوا تقدير الله ﷻ على تصرفهم الذي يتصرّفونَ به عند أداء ذلك العمل الرفيع. فكما ورد في الآيات الكريمه:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلا شُكُورًا. إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ (الإنسان، ٨-١١)

وقد شكلت سيدتنا عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها مثالاً رائعاً عن الحرص على عمل الخير، وإعطاء الصدقة «حِسْبة لله»، أي في سبيل إرضاء الله ﷻ فقط. وعدم تأمل حتى كلمة شكر على ذلك، لكي لا ينقص من الأجر والثواب شيئاً.

وكانت عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما إذا أرسلتا معروفا إلى فقير قالتا للرسول احفظ ما يدعو به ثم كانتا تردان عليه مثل قوله وتقولان هذا بذاك حتى تخلص لنا صدقتنا فكانوا لا يتوقعون الدعاء لأنه شبه المكافأة وكانوا يقابلون الدعاء بمثله وهكذا فعل عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما وهكذا كان أرباب القلوب يداوون قلوبهم (الغزالي،الإحياء، ١، ٤٢٢؛ الزمحشري، كشاف، الإنسان، ٩)



طريق الوصول إلى البر و نيله

قال الله ﷻ وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران، ٩٢)

معبراً عن الهدف السامي الذي يجب على العباد محاولة الوصول إليه، ألا وهو الحصول على شرف التقرب من الخالق ﷻ وأحد أهم الآداب التي يجب أن نحرص على التخلق بها في الإنفاق هي الإنفاق مما نحب. حيث أن هذا التصرف يبين أيضا مستوى محبة العبد المؤمن لربه ﷻ.

لذا يجب علينا أن نفكر فيما ما نملك، وأن نستخرج منها الأشياء التي نحبها، وأن نقيس مستوى صدقنا وإخلاصنا في إنفاقنا وتصدقنا على الفقراء والمساكين. وبذلك يجب علينا أن نتقدم في الطريق التي ستوصلنا إلى كمال الخير والإحسان. وعلينا أن نتصدق بما نريد أن يتصدق علينا به إن وضعنا أنفسنا في مكان ذلك الفقير. وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (البقرة، ٢٦٧)



وعلى الشخص أن لا يظن نفسه أنه قد تصدق، إذا كان قد تصدق على فقير أومحتاج بشيء لن يعجب به هو نفسه إن أعطي له من قبل الآخرين. فالتصدق على المحتاج تصدقاً غير نابع من القلب، بأشياء بسيطة كالألبسة القديمة، أو الطعام الذي فقد لذته، أوالتبرعات الرمزية، ولربما ذلك يفرح الفقير والمحتاج آنيا، ولكن التبرعات من هذا القبيل ستجعل الفقير يحس بفقره وبذله وبوضاعته في المجتمع الذي يعيش فيه. فليس هذا بالمعنى الحقيقي هو الإنفاق الذي يجب أن نقوم به.

إن المؤمن هو إنسان ذو كرم وعطاء. وليس من الكرم الحقيقي أن يختصر بالإنفاق على الكميات البسيطة والقليلة. بل أن ينفق بالأشياء التي يحبها، وبكميات معقولة وذات قيمة وفائدة تحل مشاكل الفقير، وتشفي غليل قلبه.

وتعاونوا على البر والتقوى

إن الهدف من الإنفاق هو تخليص الفقير تماماً من الصعوبات التي تواجهه في حياته. ولا شك في أن إمكانيات وميزانية كل شخص على الإفراد لن تكون كافية لوحدها في تحقيق ذلك. لذا يجب علينا أن نتعاون ونتّحد في عمل الخير. وكما قال الله ﷻ في الآية الكريمة: ﴿وتَعَاْوَنُوْا عَلَىْ الْبِرِّ والتَقْوَىْ﴾ (المائدة، ٢)



وذلك يعني أن التعاون في فعل الخير والأعمال الحسنة هو أمر من الله ﷻ. ومعنى ذلك هو أن نعمل سوية ونتحد في عمل الخير، وخاصة في الخدمات التي لا يمكن تأديتها بالمجهود الفردي. وبذلك نسعى إلى إظهار الخير والبركة وإنشاء مؤسسات ترعى ذلك الهدف، عن طريق العمل الجماعي المنظم.

ومن هذا المنظور، فإن لم نمتلك القدرة والإمكان بدرجة كافية تسد حاجات الفقراء والمحتاجين وتحل مشاكلهم، فعلينا أن نحث الناس من حولنا على عمل الخير وتقديم المساعدات، وذلك بامتثالنا أمر الله ﷻ: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾.

وما يليق بالمؤمن الحقيقي هو أن يكون دائماً في حالة استعداد تام للقيام بأعمال الخير، ومساعدة الفقراء والمحتاجين. والمؤمن الذي أدرك ذلك وتفهمه جيداً، فحتى ولو لم يملك الإمكان المادي لكي ينفق على الفقراء والمساكين، فبإنفاقه لوقته وجهده ربما يكون وسيلة وواسطة لأعمال خير أكبر وذات فائدة أكثر.

ويجب علينا أن نتجنب الإصابة بمرض العصر، وهو انتشار فكرة الإنفاق والتصدق على الفقراء والمساكين بمساعدات رمزية لا تشفي الغليل ولا تحل أية مشكلة، آملين بذلك أن نريح ضمائرنا ووجداننا بصرف الفقير عنا والتفكير بالتخلص من الإجبار. وعلينا أن نتمعن في التفكير بنسبة إنفاقنا مما رزقنا الله ﷻ وأحسن به إلينا. وأن نسأل أنفسنا بعض الأسئلة، فمثلاً ما نسبة ما أنفقناه وتصدقنا به على الفقراء والمحتاجين مقابل ما ننفقه على أنفسنا ؟. أم هل



نحن نريح ضمائرنا فقط بإنفاق جزء بسيط من النعم التي رزقنا إياها ربنا ﷻ، مقارنين إنفاقنا وتصدقنا بمستوى الإنفاق والتصدق في المجتمع؟.

مع العلم أنه يجب علينا كمؤمنين أن نقارن أنفسنا ونزنها في كل خصوص بسيدنا محمد ﷺ، وبأصحابه الكرام ﷿. حيث أمرنا الله ﷻ أن نتخذ عباده هؤلاء المتقين قدوة ومثالاً في حياتنا ومعيشتنا. وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة، ١٠٠)

وقد دفع جيل الصحابة الكرام ﷺ بدل إيمانهم وتقواهم بأموالهم وأرواحهم، وبتحملهم وصبرهم على المصاعب التي واجهوها وعاشوها في مكة المكرمة لأول مرة. أما المرة الثانية، فقد دفعوا بدل قدرة العيش بكرامتهم كمسلمين في المدينة المنورة، وذلك بتصديهم لغارات المشركين عليهم لعدة مرات. وللمرة الثالثة، فقد دفعوا بدل مسؤولية الإيمان، وذلك بحملهم أمانة إيصال نور الهداية لقرون طويلة، بما قاموا به من تقديم الخدمات الجليلة للتبليغ والدعوة ونشر الرسالة. وقد ضحوا بكل ما ملكوا من نعم وخيرات في سبيل الله ﷻ. لأنهم كانوا دائماً يعيشون متفكرين ومتأملين بالآية الكريمة التالية:

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر، ٨)



ونحن بدورنا لكي نستطيع أن نكون من أهل الإنفاق والتصدق الصادق والمخلص في سبيل الله ﷻ، علينا أن نتخذ جيل الصحابة الكرام ﭬ قدوة لنا، وأن نحاول أن نستفيد من تلك التضحيات الثلاثة التي قدموها.

الدّالُّ على الخَيرِ كفاعله

ويجب علينا أن نحرص على أن يكون الإنفاق والتصدق الذي نقوم به كافياً ومناسباً من الناحية المادية، حتى يكون قادراً على تضميد جروح المجتمع النازفة. ويكون دواء لداء واحد على الأقل من الأمراض الاجتماعية الكثيرة والمنتشرة. وعندما نصل إلى حد من العجز عن فعل ذلك بأنفسنا وحدنا، فعلينا أن لا نفقد الأمل وننسحب إلى الخلف تاركين المحتاج لوحده يواجه همه وحزنه وفقره وغمّهِ بقولنا: «إنني لا أستطيع أن أقدم له المعونة، هذه استطاعتي وقدرتي، ولا يمكنني أن أقوم بأكثر من ذلك».

فبدلاً من ذلك، يجب علينا في هذه الحالة أن نفكر بالجملة التالية: «هل يا ترى أستطيع أن أجد حلاً يخلص هذا الفقير من همه وكدره وفقره؟!». فنحاول من بعد ذلك أن نبحث عن الأغنياء وأصحاب الإمكانيات الوفيرة من جهة، وعن الفقراء والمحتاجين من جهة أخرى، ونكون بدورنا قد شكلنا جسراً يربطُ بَعضهم



بِبعْض. وقد حثنا نبينا الكريم محمد ﷺ على فعل ذلك، فقال كما وردً في الحديث الشريف:

"الدال على الخير كفاعله" (الترمذي، العلم، ١٤).

وعلى ضوء هذه الحقائق، فيقوم أولياء الحق ﷻ في كل فرصة ومناسبة بحث الناس وتشجيعهم على فعل الخير. وبذلك يكونون قد أصبحوا شركاء معنويين لمن يقوم بفعل الخير إجابة لهم وعملا بنصائحهم.

وقد عجنت أرواح أجدادنا العثمانيون بهذا الشعور الديني والنضوج الاِجتماعي. فوصلوا إلى الذروة في عمل الخير والإنفاق والتصدق على الفقراء والمساكين في سبيل الله ﷻ. وحولوا المجتمع إلى شبكة منسوجة بخيوط الرحمة والشفقة، وذلك بالمؤسسات الخيرية ومؤسسات الرعاية الإجتماعية التي قاموا بإنشائها في كل مكان.

وكانت حالة سيدنا (أق شمس الدين) الذي كان له دور كبير في توجيه شخصية السلطان محمد الفاتح، وفي الفتوحات التي قام بها، كانت معبرة جداً ومليئة بالمعاني والعبر؛ ففي أول يوم جمعة بعد فتح القسطنطينية أقيمت احتفالات بمناسبة الانتصار العظيم الذي صارت إثره مدينة اسطنبول بيد المسلمين، وقد أقيمت الاِحتفالات في منطقة (أوق مَيْده ني) بعد صلاة الجمعة. فألقى السلطان محمد الفاتح الذي نال شرف هذا الفتح العظيم كلمة، ولم



ينسَ أبداً المساعدات التي قدمت إليه مِمَّن حوله من المحاربين والمؤيدين، فقال:

«للشهداء رحمة الرحمن، ولأبطال الحرب الشرف والشأن، وللشعب فخر الشكران».

ثم قام بتوزيع الأموال والأملاك والأراضي كهدية للإنتصار على مئة وسبعين ألف شخص من الجنود والمدنيين. وفي هذه الأثناء تكلم سيدنا أق شمس الدين القائد المعنوي للسلطان محمد الفاتح، وأحد أولياء الحق ﷻ، موجهاً كلامه لأبطال الحرب المتواجدين في الإحتفال، فقال ناصحاً لهم:

«يا أبطال الحرب !! لا تنسوا أن نبي آخر الزمان محمد ﷺ قال عنكم كلكم: (ولنعم الجيش ذلك الجيش..). وكلكم من المغفورين لهم بإذن الله تعالى. أما الآن فعليكم أن لا تسرفوا غنائم الحرب، بل أنفقوها في عمل الخير وفي سبيل الله ﷻ. وأطيعوا حاكمكم وأحبوه».

وبذلك شجع جنود الجيش الذي فتح القسطنطينية على إعمار مدينتهم، وإنشاء المؤسسات الخيرية ومؤسسات الرعاية الإجتماعية، لكي يستفيد كافة الشعب. وبذلك أيضا توج سيدنا أق شمس الدين ذاك الجيش بفضيلة الإنفاق والتصدق والإحسان، بعد فضيلة فتح تلك المدينة العظيمة [٢].

٢. سميحة آي وردي، القرون العثمانية في التاريخ التركي، اسطنبول، ١٩٩٩، ص ٢٢٧ – ٢٢٨.

ونحن بصفتنا أحفاد لهؤلاء العظماء الذين أسسوا حضارة الفضائل الكبيرة، فإننا نستفيد من الثمار المباركة والوفيرة لتلك الحضارة العريقة التي أسسها أجدادنا ضمن مقاييس ومعايير الأدب واللطافة والظرافة اللامتناهية، ورقة الإحساس المرهف حتى يومنا هذا. فهناك الأوقاف، والمؤسسات الخيرية، وأماكن توزيع المتطلبات العائلية على الفقراء والمحتاجين وطلبة العلم، وصنابير الماء المتواجدة على أطراف الطرق، وحجارة الصدقات... إلخ، فكل هذه الصروح التاريخية موجودة حتى يومنا هذا. وعلينا بدورنا أن نحافظ على ميراث أجدادنا المقدس، وعلينا أن نسعى إلى إنشاء المؤسسات الخيرية ونزيد من عددها، كما فعلوا من قبل. وأن نحرص ونحافظ على المنشآت التي قاموا بتأسيسها والعمل على ترميمها، ونجعل الحياة تدب فيها كي تستمر في تقديم الخدمات للفقراء والمساكين وطلبة العلم. وعلينا أن نكون قدوة للناس عن طريق تزويد عالمنا الداخلي بالفضائل والأخلاق الحميدة التي تميز بها أجدادنا.

وعلينا بعد ذلك أن نحافظ على المقدسات التي هي بمثابة أمانة شهدائنا وأجدادنا علينا. وأن نحافظ على وطننا بتربية أجيال مؤمنة ومتصفة بأخلاق رفيعة وحميدة ومتميزة بالكرم وحب الوطن. وإن لم نفعل ذلك، فسوف يضعف الدين وتضيع الأجيال، ويصبح الوطن بأيدي الأعداء. ويجب علينا ضمن هذا النضوج الإجتماعي والشعور بالمسؤولية أن نكون من المؤمنين أصحاب الإنفاق والتصدق في سبيل الله ﷻ.



وبالنتيجة فإن المؤمن المتميز بالإنفاق والتصدق الصادق والمخلص، هو إنسان مؤثر على غيره. وهو الإنسان الذي يعرف أنه يسعى ليثبت براءته في المحكمة الإلهية غداً، وليخلص غيره من الفقراء والمحتاجين من همومهم وكدرهم وفقرهم اليوم. لأن الإنسان الفظ والغليظ القلب، والذي لا يفكر إلا بمصالحه الشخصية ومنفعته لوحده هو إنسان لا ينال محبة الله ﷻ، بل يُطرد من رحمته.

وعلى هذا الإعتبار، فعلينا أن لا ننسى أننا لن نستصعب في الإجابة على الأسئلة في يوم الحساب ضمن مسؤولياتنا بقدر ما استطعنا أن نتحمل مسؤوليات غيرنا، وبقدر ما أحسسنا بتلك المسؤوليات.

اللهم ارزقنا جميعا العزم الديني.

واجعل اللهم إنفاقنا ضمن حدود الأدب والأخلاق الرفيعة، ورقة الإحساس. راجين بذلك الحصول على رضاك فحسب. واجعل اللهم ذلك مَخْزنا للسعادة والطمأنينة في قلوبنا...آمين





الإخلاص في الإنفاق

إن المال الذي يملكه الإنسان، هو خاضع لقانون خاص به كقانون الجاذبية. ويتغير هذا القانون حسب كيفية كسب ذلك المال. والمال كالأفعى الذي، يذهب أِلى الجُحر الذي أتى منه. والكسب الحلال هو وسيلة للخير والفضيلة وإرضاء الله ﷻ. بينما يذوب الكسب الحرام ويذهب في طرق الشر والمعاصي. وعلى هذا الأساس فإنه من الممكن أن يعرف مصدر المال وكيفية كسبه عن طريق معرفة المكان الذي أنفق فيه.

وإن معنويات وروحانيات الإنسان تكون على الأغلب تحت تأثير أمرين، وهما:

١- كيفية كسب قُوته، أهو حلال، أم مشتبه به، أم حرام.

٢- شخصية وأخلاق الناس الذين يتواجد معهم.

الإخلاص في الإنفاق

الإخلاص هو سلامة ونظافة النية، والصدق في العبودية لله ﷻ. والتقوى والإخلاص هما سران من أسرار العبودية لا ينفصلان عن بعضهما البعض. وكأنهما كلمتين تعبران عن نفس المعنى، ولكن بشكلين مختلفين. وهو التقاء العبد بربه قلباً، أي تجلي الصفات الحميدة على الإنسان كالرحمة والشفقة، والعفو والصفح، والحلم والإحسان. وهو بحث المؤمن عن رضاءِ الله ﷻ في كل حال من أحواله، وفي كل تصرف من تصرفاته، بل وفي كل نفس يتنفس به.

والقلوب المعدومة والمحرومة من الإخلاص تصبح هدفاً للمصالح والمنافع النفسية. والنقطة النهائية لهذا الوضع هي الحماقة التي يصلها الإنسان بكونه - ولوقلباً فقط - عبداً لغير الله ﷻ. وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا﴾ (الفرقان، ٤٣)

وقد بين لنا سيدنا محمد ﷺ كيف يكون نقص الإخلاص في العمل والعبادة سبباً محزناً وأليماً للخسران. حيث ورد في الحديث الشريف:

"إن أخوف ما أتخوف على أمتي الإشراك بالله. أما إني لست أقول يعبدون شمسا ولا قمرا ولا وثنا. ولكن أعمالا لغير الله وشهوة خفية" (ابن ماجة، الزهد، ٢١)



لذا فإن العبادات التي يقوم بها العبد الذي أصيب قلبه بالأمراض الاجتماعية كالرياء وحب المظاهر والمفاخرة، والتي يقوم بها لأهداف وغايات غير هدف الحصول على رضا الله ﷻ، إنما هي كالشكل الهندسي الذي أفرغ ما بداخله، فلا يبقى منه أي فائدة، وأصبح عملا فَقَدَ نفعه وفائدته.وكما قال الرسول الأكرم ﷺ في الحديث الشريف: "**الأعمال بالنّية**" (البخاري، الإيمان، ٤١)

والإخلاص في الإنفاق هو أن يحرص المؤمن على ان لا يضيع أجر الصدقة، وأن يفهم ويستوعب ذلك جيداً. وأن ينفق «حِسبة لله» أي قاصداً إرضاء الله ﷻ فحسب. وأن يقدم ما يريد أن يتصدق به إلى الله ﷻ دون رياء ولا إنفاق.

وورد في الحديث الشريف أيضاً عن سيدنا محمد ﷺ:

"ما تصدق أحد بصدقة من طيب ولا يقبل الله إلا الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله" (مسلم، الزكاة، ٦٣)

وورد في حديث شريف آخر:

"**ما نقصت صدقة من مال قط وما مد عبد يده بصدقة إلا ألقيت في يد الله قبل أن تقع في يد لسائل ولا فتح عبد باب مسألة له عنها غنى إلا فتح الله عليه باب فقر**" (الطبراني، المعجم الكبير، ١١، ٥٠٤/ ٠٥١٢١)

وهذا يعني أن المخاطب الرئيسي في خصوص الصدقات هو الله ﷻ. لذا يجب علينا أنه عندما نتصدق أن نعطي بصدق وإخلاص



وقمة بالشعور بالمعنويات وبالوجد الروحي. وأن نتصدق بعيدين عن الرياء والمفاخرة وحب الشهرة والمظاهر، وغير سامحين للنفس وللشهوات بمنع ذلك أو إعاقته. فنتصدق وننفق على الفقراء والمساكين دونما انتظار مجاملات الناس وتقديرهم، وبدون التفكير بأي مقصد أوغاية دنيوية، بل مخلصين لله ﷻ وقائلين: « يا رب.. إني أتصدق في سبيلك، ولك وحدك».

دليل الإخلاص وعلامته

البحث عن المحتاج الحقيقي والوصول إليه

إن من أهم آداب الإنفاق هي إعطاء الصدقة لمن يستحقها أكثر من غيره. أي عدم التصدق على الناس لا على التعيين، بحثا عن الراحة وعدم التعب في تحديد المحتاج الحقيقي الذي يستحق تلك الصدقة. بل يجب على المؤمن أن يبدي اهتمامه وجديته، ويستهلك من وقته وجهده ضمن تفكير بالعبادة وبالتقرب إلى الله ﷻ، لكي يأخذ كل ذي حق حقه دون نقص أوتقصير، وتصل الصدقات إلى أصحابها الحقيقيين. وكما ورد في الآية الكريمة عن صفات المؤمنين، فقال الله ﷻ:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ (المؤمنون، ٤)

فكما أننا نبدي اهتماماً بالغاً في البحث عن شيء نريد أن نقتنيه لأنفسنا وشرائه، فعلينا أن نبدي الإهتمام نفسه عندما نتصدق وننفق



على الفقراء والمحتاجين. وأن نستهلك الوقت والجهد في البحث والتنقيب عن المحتاجين الحقيقيين، لكي نؤدي الأمانات إلى أهلها. لأن الإنفاق هو عبارة عن تجارة معنوية رابحة، نقدم فيها بعضا من النعم التي رزقنا إياها ربنا ﷻ في هذه الحياة الدنيا الفانية، ونأخذ بالمقابل النعم اللانهائية في العالم الأبدي. وإن الوسيلة لممارسة هذه التجارة على أحسن وجوهها ربحاً وبركة، إنما هو متعلق بالبحث عن المحتاج الحقيقي في الحياة الدنيا والوصول إليه، والإنفاق والتصدق عليه. وذلك هو أيضاً ما يدل على درجة الإخلاص في قلب المتصدق والمنفق.

وقد أمرنا الله ﷻ بأن نقوم بعملية البحث والتنقيب عن الفقير والمحتاج الحقيقي عندما نريد أن نتصدق، حيث ورد في الآية الكريمة:

﴿لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة، ٢٧٣)

أي أنه عندما يتم الإنفاق والتصدق بإخلاص وصدق، فيكتسب قلب الإنسان رقة وحساسية تمكنه من معرفة المحتاج الحقيقي من وجهه وملامحه. وورد في الحديث الشريف عن سيدنا محمد ﷺ:

"لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَلَكِنْ الْمِسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ وَلَا يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ" (البخاري، الزكاة، ٥٣)



وقد نصحنا سيدنا جلال الدين الرومي بنصيحة حكيمة ومعبرة، وكأنه ألهم بها من هذا الحديث الشريف، حيث قال:

«حاول أن تكسب قلوب الناس، قم بخدمة الضعفاء، وارْحم المساكين والذين كسرت قلوبهم. فهم من ليس لهم دخل ولاَ إيراد من الناس، وعلى الرغم من ذلك يتواجدون دائماً في تواضع تام وفي راحة نفسية وخشوع قلبي لا مثيل له. ويعيشون هكذا بين الناس. فابحث عن هؤلاء وأنفق عليهم وتصدق».

وهكذا فإن أصل الفضيلة هو مساندة هؤلاء الفقراء والمحتاجين الحقيقيين ومد يد العون لهم. أي أن البحث عن المحتاجين أصحاب التقوى الذين يخفون أحوالهم لخجلهم من سؤال الناس وطلب مساعدتهم. والوصول بالقلب إلى درجة من الرقة والحساسية للوصول إلى درجة من الشفافية والروحانيات تمكن من معرفة هؤلاء المحتاجين من وجوههم، إنما هو أمر قد أمرنا به الله ﷻ. ولا شك في أن ذلك لا يمكن تحقيقه والوصول إليه إلا بدرجة رفيعة من الإخلاص والصدق تتميز القلوب به، وبالكسب الحلال.

والمال الحلال الذي ينفق به بصدق وإخلاص وأمانة في المشاعر، وبهدف نيل رضا الله ﷻ فحسب، هو المال الذي لا يضيع ولا يذهب إلى أماكن غير مناسبة بإذن الله ﷻ. وإن الله ﷻ يرزق ذلك المال والكسب الحلال لمن يستحقه.

وتقديم مساعدة لشخص جليل اتصف بالصفات الحميدة التي أمر الله ﷻ عباده أن يتصفوا بها، ربما تعادل في بعض الأحيان تقديم



المساعدات لآلاف الأشخاص. لأنه لووضعت كافة الإمكانيات، وفرشت أمام أصحاب التقوى والعمل الصالح، فلن يكون إسرافاً.

وكان سيدنا محمد ﷺ يبدي اهتماما خاصا بأصحاب الصفّة، وهُم الصحابة الفقراء الذين نذروا حياتهم وأنفسهم في سبيل الله ﷻ. وكان يحث المؤمنين الأغنياء ويشجعهم على الإنفاق عليهم.

وقد أبدى سيدنا جلال الدين الرومي الذي يعتبر أحد أولياء الحق ﷻ أهمية بالغة في الحرص على توجيه المال الذي يريد أن يتصدق به، إلى المكان الصحيح والشخص المناسب، لأنه كان مؤمناً بأن هذه الصدقة هي من حق المحتاج الحقيقي، حيث قال في هذا الصدد:

«ما هو العدل؟! العدل هو أن تسقي أشجار الفاكهة. وما الظلم؟! الظلم هو أن تسقي النباتات الشائكة».

لذا فيجب علينا أن نحرص على أن تكون الصدقات التي ننفقها ساقية لحدائقنا المعنوية والروحانية، بدلاً من أن تكون ساقية لأشواكنا النفسية والشيطانية.

وإن قيمة المال هي بقدر كسبه الحلال. والعمل الخيّر الذي يقوم به الشخص بالمال الحلال يكون - بإذن الله تعالى - من نصيب من يستحقه. ومن هذا المنطلق، فالإنفاق والتصدق هما بمثابة مرآة معنوية تعكس طريقة كسب المال.

في يومٍ من الأيام جاء أحد الطلبة إلى أبي عباس النهاوندي -



أحد أولياء الحق ﷻ - وكان ذلك الطالب غنياً حيث كان يعمل في التجارة، فسأل أستاذه عن أنسب الناس الذي يجب عليه أن يعطيهم الزكاة. فقال أبوعباس النهاوندي:

«أعط الزكاة لمن انشرح له صدرك، وأشار إليه قلبك».

فذهب الطالب في سبيله، وبينما كان يمشي صادف متسولاً ضريراً على طرف الطريق، فانشرح له صدره. فأخرج زكاته التي هي عبارة عن صرة مليئة بالذهب، وأعطاها ذاك المتسول. فتلمس الضرير الصرة بيده وفرح كثيراً وانصرف مسرعاً.

وفي اليوم التالي كان الطالب يمر من نفس الطريق الذي مر به في الأمس. فرأى الضرير الذي أعطاه صرة الذهب، وكان يتحدث إلى ضرير آخر. فاقترب منهما واستمع إلى حديثهما. فقال الضرير لصديقه: «لقد أعطاني البارحة سيد من الأسياد صرة مليئة بالذهب. فذهبت إلى الخمارة واحتسيت الخمر حتى سكرت».

فانزعج الطالب كثيراً لهذا الوضع. وذهب مباشرة إلى أستاذه سيدنا أبي عباس النهاوندي. وبينما كان يهم بسرد حكايته له، لم يعطه أبوعباس فرصة للكلام، وأعطاه قطعة من النقود قد كسبها من بيع قطعة من الحلوى، وطلب منه أن يعطيها لأول شخص يصادفه في طريقه.

فلم يستطع الطالب قول شيء وانصرف لأداء الوظيفة التي كلف بها من قبل أستاذه. وأعطى قطعة النقود لأول شخص صادفه. ولكنه قد أثاره الفضول الشديد الذي كاد يقرض أحشاءه، فراقب



ذلك الشخص. فرآه قد ذهب إلى مزبلة قديمة، ثم أخرج طيراً ميتاً من تحت ملابسه ووضعه على الأرض. وبينما كان يهم بالذهاب اعترض الطالب طريقه وأوقفه سائلاً:

«يا أيها البطل القوي.. أناشدك الله ﷻ في أن تخبرني عن ما يحدث. وما قصة الطير الميت الذي رميته هنا ؟».

وعندما رأى الرجل من أعطاه قطعة النقود أمامه، ارتجف من الخوف والتوتر وقال:

«لم أجد شيئاً أطعم به عائلتي وأولادي منذ سبعة أيام. أنا وزوجتي كنا نصبر ونتحمّل، أما الأولاد فلم يطيقوا التحمل على الجوع. وعلى الرغم من ذلك فإن سؤال الناس والتسول أمر لا يمكن أن ألجأ إليه. وبينما كنت أحترق وأتألم من هذا العذاب وجدت ذلك الطير الميت الذي رأيته معي، والذي بدأ لحمه يتفسخ عن عظامه. وللضرورة فقد قررت أن آخذه لأولادي وأطعمهم من لحمه. وكنت داخلياً أتوسل إلى الله ﷻ قائلا: «يارب.. اعتن بحالي». فجئت أنت إلي وأعطيتني قطعة النقود هذه. فشكرت الله ﷻ على ذلك وجئت لأترك هذا الطير الذي وصل إلى درجة من التفسخ لا يمكن أكله في هذه المزبلة. أما الآن فسأذهب إلى السوق وأشتري طعاما بهذه القطعة النقدية التي أعطيتني إياها».

فأسرع الطالب الذي استغرب كثيرا حالة ذلك الرجل إلى أستاذه أبي عباس النهاوندي. وقبل أن ينطق بكلمة واحدة، قال أستاذه:



«يا بني.. هذا يعني أنك لم تبد اهتمامك في ما إذا دخل الحرام أو الشبهة في عملك وكسبك. لذلك فقد ذهب المال الذي أعطيته لذلك المحتاج إلى الخمر، مع أنك حرصت على أن تعطيه للشخص الصحيح والمناسب. فيجب أن نحرص على المال الذي يكتسب، من أين اكتسب وكيف؟. وإن المال يذهب إلى أماكن مشابهة للأماكن التي جاء منها. وذهاب قطعة نقدية واحدة إلى رجل صالح ويستحقها، مقابل صرة من الذهب، إنما يدل على أنها جاءت من الكسب الحلال».

وهذا يعني إن إعطاء الصدقة لمن يستحقها، متعلق أيضا بطريقة وكيفية كسب المال. وكأنما تخضع النقود إلى قانون الجذب والإنجذاب حسب طريقة كسبها. والمال كالأفعى، يذهب إلى الجُحر الذي أتى منه. والكسب الحلال هو وسيلة للخير والفضيلة وإرضاء الله ﷻ. بينما يذوب الكسب الحرام ويذهب في طرق الشر والمعاصي. وعلى هذا الأساس فإنه من الممكن أن يعرف مصدر المال وكيفية كسبه عن طريق معرفة المكان الذي أنفق فيه.

وحالة الإنفاق المعنوية تظهر نفسها بشكل واضح وبارز. فبعض التبرعات التي يتبرع بها بعض الأشخاص، تعطي نشوة وراحة نفسية لا مثيل لها في القلوب وفي النفوس. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن ذلك المال هو من الكسب الحلال. ويدل أيضا على صدق القلب وإخلاصه.

ومن جانب آخر، فإن ديننا العظيم يحثنا ويشجعنا على إعطاء الصدقات في كل فرصة وكل مناسبة. وإن قمنا بذلك بصدق



وإخلاص، فسوف يحسن الله ﷻ إلينا، ويهبنا البركة اللامتناهية في أموالنا. حيث أن الصدقات التي تدفع عن كامل إخلاص وصدق نابع من القلب – ولو أنها ظاهريا ذهبت إلى شخص لا يستحقها – فربما بلطف الله ﷻ وعونه تكون تلك الصدقة وسيلة لأن يفيق ذلك الشخص من غفلته، وتظهر لديه براعم الميل الإيجابي نحوالخير والهداية.

وورد في حديث شريف عن سيدنا محمد ﷺ أنه في قديم الزمان نوى رجل أن يتصدق بمال، ففي ظلمة الليل أعطاه للص دون إرادته. وفي الليلة الأخرى أعطاه لعاهرة. وفي الليلة الثالثة أعطاه لرجل غني. فسمع ذلك سكان المنطقة فانتقدوه على تصرفه هذا وأعابوه بكلمات معبرة عن عجبهم لأمره ولعمله هذا. ولكن الرجل المبارك رأى في منامه أنه يخاطب من قبل احد ما بالخطاب التالي الذي ورد في الحديث الشريف:

"... أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ" (البخاري، الزكاة، ١٤؛ مسلم، الزكاة، ٧٨)

وفي مذكرات محمود سامي رمضان أوغلو– أحد أولياء الحق ﷻ وورثة النبي ﷺ وأصحابه الكرام ﭫ – توجد حادثة مشابهة لتلك الحادثة ،بينما كان محمود سامي رمضان أوغلو مع أصحابه في طريق سفر في إحدى مدن الأناضول. فاعترض شخص ما طريقهم في جوار مدينة (أوركوب)، وأوقف مركبتهم، وطلب منه نقودا ليشتري



لفافات من التبغ (سجائر). وعلى الرغم من اعتراضات أصحابه، فقال سيدنا سامي أفندي:«بما أنه يطلب، فيجب أن نعطيه». وأعطاه بعضا من النقود دون تفكير أوتردد، ضمن نظرات أصدقائه المعبرة عن الاستغراب لهذا التصرف. فغير الفقير الذي فرح كثيرا بالنقود رأيه وقال: «سأذهب وأشتري خبزاً» وانصرف.وهذا هو التأثير الإيجابي الذي بمن يعطى صدقة من قبل شخص ينفق في سبيل الله ﷻ بصدق وإخلاص وأمانة.

ولذلك فقد نبهنا الشيخ سعدي بهذا التنبيه المليء بالحكمة والعبرة، حيث قال:

«لا تضع الإحسان واللطف في كيس وتغلق عليهما. ولا تمنع إحسانك عن أي أحد. ولا تقل عن فلان أنه مُرَاءٍ، وفلان أنه محتال. وليكونوا فعلا كذلك؛ فما شأنك أنت بما كانوا؟».

إذا كانت نيتك خالصة ؛ فإِن الله ﷻ يرزقُك البركة

إن الله ﷻ يكافئ من خلصت نيته ويزيد ويكثر له القليل. ويجعل عبده مستحقاً المكافآت الكبيرة بسبب حسنة صغيرة قام بتأديتها. لذا فإن الدرهم الواحد الذي أعطي بإخلاص وصدق، هو أكثر قيمة من آلاف الدراهم التي أعطيت بدون صدق وبدون رضىً كامل نابع من القلب. أي أنه ليس المهم كثرة أو قلة المبلغ الذي يريد الشخص أن ينفق به، بل المهم هو نسبة المبلغ الذي يريد إنفاقه



مقابل المبلغ الذي يملكه. والمهم أيضا هو حسن النية وصفاؤها أثناء إنفاق ذلك المال.

وكما ورد في الحديث الشريف عن النبي ﷺ:

"نية المؤمن خير من عمله" (السيوطي، جامع الصغير، ٢، ١٩٤)

ومن هذا المنطلق فإذا كانت النية خالصة وصادقة، فستكبر الخيرات ولوكانت صغيرة. والصدقة التي أعطيت عن إخلاص وصفاء نية، ستكون كفارة للذنوب.

وكما أخبرنا الرسول الكريم محمد ﷺ عن الرجل العاصي الذي أعطى كلباً يلهث من العطش شربة ماء بنعله، وبعمله هذا وشفقته على الحيوان غفرت له ذنوبه ودخل الجنة. وبالمقابل فقد دخلت امرأة من أهل العبادة النار بسبب تصرفها بدون رحمة وشفقة مع قطة، ولم تهتم لجوعها وعطشها، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض. (انظر: مسلم، السلام، ١٥١ - ١٥٣).

لذا فإذا أردنا أن نصل مرتبة الإيمان الكامل، وأن نكون من المؤمنين الحقيقيين، علينا أن نسعى لنيل رضا الله ﷻ بنية خالصة وسليمة. وأن نهرع لعمل الخير دون تمييز الصغير منه من الكبير. بل ويجب علينا أن نوسع أفق الإنفاق والتصدق، ليعم الحيوانات والنباتات بعد بني البشر. ويجب أن نكتسب قدرة النظر إلى المخلوقات كافة بعين الخالق ﷻ.

ومن أهم مظاهر البركة التي يرزقنا الله ﷻ بها على إخلاصنا وصدقنا في الإنفاق والتصدق وفعل الخير، هو عمر المؤسسات



الخيرية الطويل. حيث أن هذه المؤسسات الذي أنشئت وتأسست بالمال الحلال تبقى شامخة في وجه التاريخ على الرغم من جميع الظروف القاسية، وتستمر في تقديم الخدمات للناس فترة طويلة من الزمن، بقدر متانة الأساس المعنوي الذي لعب دوراً في تأسيسها.

والكلية السليمانية، التي أضفت روحانية على سماء مدينة اسطنبول منذ قرون وحتى يومنا هذا، ما هي إلا إحدى الأمثلة التي لا تُعد ولا تحصى في صدد هذا الموضوع.

وكان السلطان سليمان القانوني الذي أسس تلك الكلية، كان يخاف كثيراً من مسؤولية حقوق العباد. وكان يسعى دائماً لأن يكون خليفة عادلاً. وبدأ بناء الكلية بوضع شيخ الإسلام أبو السعود أفندي حجر الأساس. وعندما انتهى بناء الكلية جمع السلطان سليمان القانوني جميع من عمل في بنائها ابتداء بالمهندس المعمار، وانتهاء بأصغر عامل. وألقى كلمته، حيث قال بعد الحمد لله ﷻ والثناء عليه والصلاة والسلام على الرسول ﷺ:

«يا إخوتي في الدين.. لقد انتهينا من بناء هذا الجامع الشريف بإذن الله تعالى وفضله. فمن لم يأخذ حقه، أو ضاع حقه سهوا أو خطأ، فليأت وليأخذ حقه. وربما هو ليس موجود هنا الآن، فرجائي من الحاضرين أن يبلغوا الغائبين بذلك. وأن يأتوا ليأخذوا حقوقهم منا».

وحتى الحيوانات التي استخدمت في بناء الكلية، فقد خصص لها برنامج خاص بها. فحرصوا على التقيد بأوقات الراحة بالنسبة للأحصنة والحمير والبغال. وأوقات رعيهم في المراعي، وأوقات



عملهم. أي أنهم حرصوا حرصاً عظمياً لكي لا يتجاوزوا على حق أحد أثناء بناء ذلك الصرح العظيم. وربما أن الإهتمام الزائد بهذا الشكل بحقوق الناس وحقوق الحيوانات أثناء بناء هذا المعبد، هو السبب في كون جامع السليمانية يشكل أساس الروحانيات والمعنويات المليئة بالأسرار والخفايا، والتي لا يمكن أن يُتنافس عليها بأي شكل من الأشكال.

وقد تم إنشاء هذه الكلية على يد المعمار سنان، الشخصية الذروة في الذكاء المعماري. وقد حرص هذا المعمار المبارك على أن لا يوضع حجر في مكانه إن لم يكن من سيضعه على وضوء. وما كلام العامة آنذاك عن ذلك الجامع العظيم إلا تعبير تام ودقيق عن الحقيقة، حيث كانوا يقولون: «صاحب السليمانية سليمان، ومعمارها سنان، وعجينتها الإيمان».

وفي حفل افتتاح ذلك الجامع قال السلطان سليمان القانوني معبراً عن وفائه العظيم: «فليفتتح هذا المعبد العظيم سنان، لأنه أكثر من عمل فيه وتعب عليه».

فقال المعمار سنان للسلطان:

«يا سلطاني.. لقد فقد الخطاط (قره حصاري) بصره أثناء تزيين المسجد بخطه، وصار ضريراً، فلنهده شرف الإفتتاح تقديراً لجهوده في تزيين الجامع».

وأعطي شرف افتتاح هذا الصرح العظيم للخطاط قره حصاري، وافتتح الجامع ضمن الفضائل والكرامات التي أظهرها هؤلاء الناس المباركون، الواحدة تلوالأخرى.



وقد تخللت روحانية العبادة والتقرب إلى الله ﷻ جدران جامع السليمانية وبقيت مترسخة فيها. وإن جو المسجد الداخلي الخافت قليلاً والغير مظلم، يأخذ قلب المؤمن إلى عالم بعيد عن الماديات، ضمن نشوة الروح والقلب المليئة بالروحانيات والمعنويات. كالماء الذي قُرئ عليه. وقد اكتسبت حجارته وترابه معاني عميقة تدل على عمق إيمان الناس الذين اندمجت أرواحهم بجوه المعنوي. وإن هذا المعبد هو انعكاس الإسلام ومعنوياته على المادة بشكل سحري وفريد من نوعه. وكأنه رجل صامت، يحدثنا بصمته الحكيم هذا عن أشياء كثيرة. والتأثير الذي يؤثر به الجو المعنوي داخل هذا المسجد في حالة الإنسان النفسية هو تأثير بارز وواضح جداً. وحتى السائحون المنتسبون لأديان أخرى عدا الإسلام، عندما يأتون لزيارة هذا المعبد الشامخ، يلاحظون التأثير المعنوي في نفوسهم وفي قلوبهم. ويريحون أرواحهم بالسكون والهدوء، وبنشوة جاذبية ذلك الجوالسحري والروحاني الذي ينجذبون إليه.

وبقاء ذلك الصرح العظيم شامخا منذ خمسة قرون وحتى يومنا هذا، رغما عن الزلازل والآفات الطبيعية التي حدثت، إنما ذلك هو دليل وإثبات على أنه بني وأنشئ بالأموال التي تبرع بها المؤمنون الحقيقيون، بصدق وإخلاص وصفاء نية. ولا يزال حتى الآن بعظمته يعجن تراب وطننا الحبيب بعظمة الإسلام وظرافته، ويزين سماءنا بصدى أصوات الأذان. ولا شك في أن هذه النعم هي نتيجة طبيعية للبركة التي رزق الله ﷻ بها أجدادنا العظماء مكافأة على إخلاصهم وصدقهم.



أنفق بحيث لا ترى شمالك ما تنفق يمينك

إن القلوب المحرومة والخالية من الإخلاص والصدق، تقوم بفعل الخير والأعمال الصالحة، ولكن بشكل معكر وممزوج بأمراض العصر كالرياء والمفاخرة وحب المظاهر. ولا قيمة أبداً لهذه الأعمال عند الله ﷻ. وأسوأ أمر في هذا الخصوص هو أن يفتخر الإنسان بما أنفق وتصدق وما قام به من أعمال خيرة. أو أن يقضي على الحسنات والثواب الذي اكتسبه عن طريق تأمل المصلحة والمنفعة الشخصية والآنية. وأفضل طريقة للتخلص من هذه الأمراض القلبية التي تقضي على الإخلاص وتنهي الصدق وتضيع الأجر، هي الحرص على السرية التامة والكتمان. وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة، ٢٧١)

أي أن الله ﷻ يستر عيوب وقصور من بنفق سراً. فكما أن الإنفاق سراً هو كفارة للذنوب، فهو يحمي الإنسان أيضاً من بلاء التكبر، ويحول دون ضياع أجر الإنفاق والتصدق.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ:

«يَا نَبِيَّ اللّٰهِ فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟» قَالَ:

«سِرٌّ إِلَى فَقِيرٍ وَجُهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ» (احمد، ٥، ٢٦٥، ١٧٨-١٧٩)



وفي حديث آخر:

"صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ، وَفِعْلُ الْمَعْرُوفِ يَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ" (البيهقي، شعب الايمان، ٣، ٢٤٤)

وحسب ما ورد في الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، أن من أنفق سراً ولم يعلنه، فذلك هو السعيد الذي سيغفر له ذنبه، وسوف يستظل في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله[1]. ولكن في بعض الأحيان نلاحظ أنه من المفيد أن نقوم بفعل الخير علنا ونشهر به. وذلك لتشجيع وحث الناس على الإنفاق والتصدق. حيث أن المفسرين قد فسروا الآية الكريمة:

﴿إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة، ٢٧١).

على أنه يجب إيتاء الزكاة علنا لتشجع الناس عليها، أما الصدقات الجارية والأعمال الخيرة الأخرى فيجب القيام بها سراً.

وبالنتيجة، فوجوب عمل الخير سراً أو علانية إنما هو متغير حسب الشروط والظروف. ولا حرج في الإنفاق علانية ما دام الشخص محافظاً على صفاء نيته في قلبه. بل ويفضل عمل ذلك عند اللزوم لحث الناس وتشجيعهم على فعل الخير وأداء الصدقات. وأساس الإنفاق وفضيلته في كِلْتَيْ الحالتين، هو حماية

١. (انظر؛ البقرة، ٢٧١؛ البخاري، الأذان، ٣٦).



القلب من الرياء والمفاخرة وحب المظاهر. والحفاظ على التقوى والإخلاص والصدق.

وإن إعطاء الصدقة علناً يسبب عند بعض من يأخذها ضعفاً في شعور الحياء. وضعف شعور الحياء يسبب اتخاذ انتظار الصدقة عادة، وهذا بدوره يسبب ضياع العزم والإرادة والتصميم على العمل والجد. وفي الإنفاق العلني أيضاً، هناك أمر آخر في غاية الأهمية، فكما أنه يوجد احتمال للمتصدق بأن يتكبر ويصاب بالغرور، فهناك احتمال أكبر بأن يستصغر المتصدق عليه، ويهان من قبل الناس في المجتمع. ففي الحالة التي يوجد فيها احتمال كهذا الاحتمال، فإن الإنفاق السري هو أفضل وأنسب وأخيَر من الأنفاق العلني.

وكما كان يفعل سيدنا عمر بن الخطاب ﵁، كان يمشي ليلا في أزقة الأحياء الفقيرة، حاملا كيسا من الطحين على ظهره. وكان يدخل الفرحة والسرور على قلوب الناس دون أن يراه أحد. وكان في كثير من الأحيان يخفي نفسه ويتنكر حتى لا يُعرف.

وكان حفيد سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه، سيدنا زين العابدين في كل ليلة يحمل كيساً مليئاً بالمواد الغذائية على ظهره، ويذهب إلى حي فقير من أحياء المدينة المنورة. ويترك الغذاء على أبواب الفقراء. وفي يوم من الأيام وعندما استيقظ هؤلاء الناس ولم يجدوا غذاء على بابهم، فاستغربوا لهذا الحال. وبينما كان البعض يحاول الإستفسار عن السبب، انتشر بين شوارع



المدينة المنورة خبر وفاة سيدنا زين العابدين. فأصاب أهل المدينة حزن شديد على وفاة ذاك الرجل الصالح.

وعندما كان يغسل سيدنا زين العابدين بعد وفاته، لاحظ الناس الكثير من الجروح الكبيرة التي تجمعت فيها السوائل في ظهره. وعندما سئل أقرباؤه عن سبب تلك الجروح، تبين للناس سر هذا الرجل المبارك، حيث أن هذه الجروح كانت بسبب الأكياس التي كان يحملها على ظهره ليوزع الغذاء على الفقراء.[2]

وهكذا كان حرص المؤمنين الحقيقيين الذين امتلأت قلوبهم بالإخلاص والصدق، على أن لا يقللوا من أجر أعمالهم وصدقاتهم، بمجاملات وإطراءات الناس عليهم، وبكلمات الشكر والتقدير.

وقد عرض وقدّمَ لنا أجدادنا العثمانيون أفضل الأمثلة عن ذلك الحرص، فكلمة السلطان محمد الفاتح هذه تستوقفنا وتجذب انتباهنا، حيث قال:

«إني وبصفتي فاتح مدينة اسطنبول، العبد العاجز والفقير لله عَزَّ وَجَلَّ، السلطان محمد الفاتح، أريد أن أتبرع بالدكاكين المائة والست والثلاثون التي امتلكتها وحصلت عليها بعرق جبيني، للأوقاف والمؤسسات الخيرية بالشروط التالية:

٢. انظر؛ ابن كثير، البداية، ٩، ١١٢، ١٢٢؛ أبونعيم، حلية الأولياء، ٣، ١٣٦



أن يطهى الطعام في المطابخ التي بنيتها وأسستها في كليتي، ويوزع على الأيتام وعلى زوجات الشهداء، وعلى فقراء اسطنبول.

أما الذين لا يستطيعون المجيء إلى هنا لكي يأكلوا أو يأخذوا طعاماً، فليرسل الطعام إليهم ضمن أوعية مغلقة، بعد أن تحل ظلمة الليل وبعيدا عن أعين الناس.

وكما لاحظنا في قول السلطان محمد الفاتح أنه قد وضع شروطاً وقوانين مبنية على مقاييس ومعايير الأدب واللطافة والإحترام لأفراد المجتمع الذين هم بحاجة للحماية والرعاية.

وكان أجدادنا أيضاً يدفعون زكاتهم ضمن مغلفات ورقية يضعونها على حجار تسمى «حجار الصدقة» مشكلين نموذجاً اجتماعياً رائعاً يعبر عن امتثال قوانين الأدب وعدم إيذاء أحد. فيأخذ المحتاج ممّا وضع على تلك الحجارة على قدر حاجته دون أن يرى المعطي والآخذ بعضهم البعض. وبذلك فلا يجرح قلب آخذ الصدقة، ولا يتولد عند معطيها ميول للتكبر والمفاخرة وحب المظاهر.

اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين الذين يقومون بعمل الخير بنية صافية ونقية، محافظين على إخلاصهم وصدقهم.

وهَبْ لنَا اللّهمَّ نصيباً من الأخلاق والأحوال الحميدة التي كان يتميز بها الصحابة الكرام والأولياء وأجدادنا الصالحون...آمــين





الإيثار

إن ميزان المودّة والحب والعشق هو التضحية والتفاني في سبيل الحبيب. ويدفع الناس أكبر أنواع البدل في سبيل حبهم.

والعشق الإلهي يتطلب تضحية حقيقية. ولا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق التخلي عن الحب الفاني. وعندما يكون الحب في مرتبة الكمال، يصل التفاني إلى ذروته. وعند ذلك فقط يصبح الجفاء صفاء.

وفضيلة المؤمن وعزته هو قدرته على التفكير بسعادة أخيه المسلم وطمأنينته وراحة باله، قبل أن يفكرٍ بنفسه. أي أنه يقفز من مرحلة الأنانية إلى مرحلة **الإيثار**، وبدلاً من أن يقول: «نفسي أولا»، يفضل أن يقول: « أخي المسلم أولاً».

الإيثار

الإيثار هو خصلة رفيعة يتميز بها الأنبياء وأولياء الله ﷻ. وهو قمة الكرم والتفادي. والإيثار هو القدرة على أن يتخلى الشخص عن حق هو بحاجته لأخيه المسلم. وذلك بأن يفدي بنفسه أو بحقه له. وعلى أي حال، هو القدرة على أن يفكر الإنسان بسعادة وطمأنينة أخيه المسلم قبل أن يفكر بنفسه. أي أنه يقفز من مرحلة الأنانية إلى مرحلة الإيثار، وبدلاً من أن يقول:«نفسي أولاً»، يفضل أن يقول:« أخي المسلم أولاً».

وعندما سئل الحكيم الترمذي «ما هو الإنفاق ؟»، فأجاب بالإجابة التالية:

«الأنفاق هو أن تجد السعادة والنشوة بسعادة الآخرين».[1] وأهم وأقوى عامل يدفع بأولياء الحق ﷻ إلى التحلي بهذه الأخلاق الحميدة، هو أن فطرتهم قد عُجنت بعجين الرحمة والعطف والشفقة. والعامل الآخر هو تلبيتهم لأمر الله ﷻ بقوله كما ورد في الآية الكريمة:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات، ١٠).

وحرصهم على العمل به وتطبيقه وخاصة في الأوقات العصيبة والصعبة.

---

١. صادق دانة، حلقات ألتون أولوق، الجزء ١، الصفحة ٤٨.



والإيثار هو قمة الكرم، حيث أن الكرم هو إعطاء وإنفاق ما لست بحاجة من فائض المال، أما الإيثار فهو أن يتخلى الشخص عن شيء يريده وهو بحاجته، ويعطيه لأخيه المسلم. وهو الإنتصار الروحي الذي يكتسبه الإنسان عن طريق كبت نفسه والحد من الإعتراضات التي تقدمها للحول دون فعل ذلك. وبذلك يكون الشخص قد أنشأ سداً عالياً بينه وبين الجشع.

وقال الله ﷻ عن هذا الخلق الذي أمر عباده أن يتخلقوا به، فكما ورد في الآيات الكريمة:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلا شُكُورًا. إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ (الإنسان، ٨ – ١١)

وإنه من السهل على الإنسان جداً أن ينفق ويتصدق إذا كان غنياً ولديه الإمكانيات المادية الكافية. لأن ذلك الإنفاق لا يصعب على نفس الشخص كثيراً بصفته يتصدق به من فائض المال. أما الصعوبة الأساسية هي أن يتحلى الإنسان بالكرم عند الفقر.

وكما قال سيدنا علي كرم الله وجهه ورضي عنه:

«إذا توجه متاع الدنيا نحوك، فسارع في إنفاقه والتصدق به. لأن التصدق لا ينهيه. أما إذا ذهب متاع الدنيا عنك، فأنفق به أيضاً، لأنه لن يستمر ببقائه لديك».



ومغزى الكلام ومختصره في خصوص الإيثار هو إنفاق الشخص وتصدقه بشيء هو نفسه بحاجة إليه. وذلك بأن يصبر الإنسان على عواصف اعتراضات النفس، ويضحي بماله بكل رضاء وتسليم. وهذا ليس بالأمر السهل بالنسبة لجميع الناس، فالقدرة على التحلي بهذا الخلق الرفيع يتطلب نضوجاً معنوياً وقلباً نقياً وروحاً صافيةً.

وإن أجر وثواب كل عمل حسن هو بقدر صعوبته. فعلى هذا الحال فإن أجر الإيثار أكبر بكثير من أجر الإنفاق الطبيعي والصدقة الجارية عند ليونة الحال. ولهذا السبب فقد اعتبر أولياء الحق ﷻ أن التحلي بهذا الخلق هو غنيمة لا مثيل لها. فلكي يحصلوا على هذه الغنيمة القيمة ويصلوا بها إلى السعادة والنشوة، فقد تخلقوا بغنى النفس الذي جعلهم ينفقون الكثير دون الخوف من الفقر في هذه الحياة الدنيا الفانية.

وكما قال سيدنا جلال الدين الرومي:

«إذا تساقطت أوراق شجرة، فإن الله سبحانه وتعالى يهب تلك الشجرة قوة وحب العيش بدون أوراق. وإن لم يبق لديك مال نتيجة الكرم والتصدق، فهل تدعك عناية الله سبحانه وتعالى ورعايته أن تداس تحت الأقدام؟!».

لذا فالإيثار هو قدرة الإعطاء والإنفاق مع التفكير بوجود خطورة الفقر والإفلاس نتيجة ذلك. وهو القدرة على أن تكرم أخاك المسلم مما ملكت يداك، عارفاً ومقتنعاً بأنك ربما ستحرم



من الكثير من النعم أو أنك ستبقى جائعاً. وهو القدرة على الإنفاق بسعة النفس وبشاشة الوجه دون التأفف والغضب مهما ثقل فعل ذلك عليك.

الأِيثار في جميع النعم والخيرات

إن الإيثار هو ليس التضحية والتخلي عن المال أو الثروة فقط. بل هو القدرة على إنفاق ما أنعم الله ﷻ به علينا من نعم وخيرات، وذلك بتأجيل التفكير بمنفعتنا، ومنع بُخْل النفس من الظهور والتأثير بنا. وبتسخير جميع إمكانياتنا وظروفنا في كافة المجالات في سبيل الله ﷻ. أي أن الإيثار هو الإنفاق بكل ما نملك من نعم مادية ومعنوية، كالقدرات الشخصية والذكاء والعلم والإجتهاد، وتسخير ذلك كله في سبيل إفادة إخواننا المسلمين أملاً بتلبية أوامر الله ﷻ لنيل رضاه. ولا يتم ذلك إلا باحتلال الإيثار أفضل وأعلى المراتب في القلب.

أي أنه لا يجوز لشيخ يعلم القرآن الكريم أن يقول: «ما لدي من إمكان لكي أنفق». بل يجب عليه أن يشكر الله ﷻ على ما وهبه من إمكانية خدمة القرآن الكريم وتعليمه، ويتخلى عن أوقات راحته الشخصية ويتابع عمله في تأدية ذلك على أحسن حال. وبذلك يكون من أهل الإيثار.

وقد قابل أهل الطائف سيدنا فخر الكائنات محمداً ﷺ بالحجارة، عندما ذهب إليهم ليبلغهم الدعوة الإسلامية. ولكن



دخول عبد واحد من أهل تلك المدينة في الإسلام خفف من همه، وقلل من روعه. وبعد عودته من هذا السفر المتعب والشاق، ذهب إلى بعض قبائل المشركين الذين جاؤا إلى حج الجاهلية، وحدثهم عن قومهم الذين شنوا الغارات على المسلمين وقتلوهم وعرضوهم لأشد أنواع العذاب، وقال لهم: «خذوا بي إلى قومكم لأبلغهم الرسالة». وبذلك فقد ركض الرسول الكريم ﷺمن عذاب إلى آخر ليؤدي واجبه في التبليغ ونشر الدعوة. ونسي راحته الشخصية.وكما ورد في الآيات الكريمة:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الانشراح، ٧-٨)

إذاً فبإمكاننا نحن أيضاً أن نكون من أهل الإيثار - بإذن الله تعالى - إذا فدينا أوقات راحتنا الشخصية مقابل العمل بالتضحيات التي لا تعد ولا تحصى في سبيل الله ﷻ.

حالة الإيثار عند سيدنا محمد ﷺ وعند أصحابه الكرام ﵃

وكما هو الحال في أي خصوص، ففي خصوص الإيثار أيضاً، فإن أجمل وأفضل مثال ونموذج وقدوة لنا هو نبينا وسيدنا محمد ﷺ، ثم أصحابه الكرام ﵃، الذين نشؤوا في ظل التربية النبوية الشريفة.

ولم يُرْوى عن أحد أنه رأى النبي ﷺ وقد رد أحداً قصده، أو أرسله فارغ اليدين. وإذا قُصد عليه الصلاة والسلام بشيئ ولم يكن



يملك آنذاك شيئاً ليعطيه، فإنه بالتأكيد كان يجد إمكانية وحلاً لذلك، وعن عمر بن الخطاب قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال:

"ما عندي شيء أعطيك ولكن استقرض حتى يأتينا شيء فنعطيك". فقال عمر: ما كلفك الله هذا، أعطيت ما عندك، فإذا لم يكن عندك فلا تكلف، قال: فكره رسول الله ﷺ قول عمر رضي الله عنه حتى عرف في وجهه، فقال الرجل: يا رسول الله بأبي وأمي أنت، فأعط ولا تخش من ذي العرش إقلالاً، قال: فتبسم النبي ﷺ وقال:

"**بهذا أمرت**". (الهيثمي، ١٠، ٢٤٢)

أي أن سيدنا محمداً ﷺ كان صاحب كرم وسخاء لدرجة أنه كان يستدين ليتصدق وينفق. فَرِقَته ولطافته التي لا مثيل لها في إيثاره يجب أن تكون لنا نموذجا نتقيد به فعلياً في حياتنا، بصفتنا أمة سيدنا محمد ﷺ.

وكان إذا أحضر أحدهم حليباً للنبي عليه الصلاة والسلام، كان يقدمه في البداية للصحابة الفقراء من أهل الصفّة. وكان لا يشبع إذا كان أصحابه جائعين. لأنه كان يعتقد بأن طعم ولذة الإنفاق والإيثار، هي أفضل وأشهى من أيَّةِ لذة أخرى يمكن أن يتذوقها الإنسان.

وشبه أحد الشعراء حالة الإيثار هذه عند النبي ﷺ بهذا التشبيه البليغ، حيث قال:

مَنْ قَاسَ جَدْوَاكَ يَوْماً ... بِالسُّحُبِ أَخْطَأَ مَدْحَكَ

اَلسُّحُبُ تُعْطِي وَتَبْكِي ... وَأَنْتَ تُعْطِي وَتَضْحَكُ



وعندما توفي سيدنا محمد ﷺ وسيدنا أبوبكر الصديق ﵁، دفنا في حجرة سيدتنا أم المؤمنين عائشة ﵂. وكانت ترغب في أن تدفن هي في المكان الذي تبقى في تلك الحجرة، والذي لا يتسع إلا لقبر واحد. ولكن عندما طعن سيدنا عمر بن الخطاب ﵁ بالخنجر في ظهره، وجرح بجروح عميقة، أرسل ابنه إلى سيدتنا عائشة راجيا أن تتبرع بذلك المكان له. فتخلت سيدتنا عائشة عن ذلك المكان وضحت به لسيدنا عمر بن الخطاب، مبرزة أسمى آيات الكرم و**الإيثار**.

عَنْ عَائشَةَ زَوْجِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّ مسْكيناً سَأَلَهَا وَهِيَ صَائمَةٌ، وَلَيْسَ فِي بَيْتِهَا إلاَّ رَغِيفٌ، فَقَالَتْ لِمَوْلاَةٍ لَهَا : أَعْطيهِ إيَّاهُ. فَقَالَتْ : لَيْسَ لَك مَا تُفْطِرينَ عَلَيْه. فَقَالَتْ : أَعْطيهِ إيَّاهُ. قَالَتْ : فَفَعَلْتُ، قَالَتْ : فَلَمَّا أَمْسَيْنَا أَهْدَى لَنَا أَهْلُ بَيْت، أَوْ إِنْسَانٌ مَا كَانَ يُهْدى لَنَا، شَاةً وَكَفَنَهَا، فَدَعَتْني عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَتْ : كُلِي مِنْ هَذَا هَذَا خَيْرٌ مِنْ قُرْصِكِ (موطأ مالك، الصدقة، ٥)

وهكذا كان تصرف جيل الصحابة الكرام وإيثارهم على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة. لأنهم كانوا يعرفون عز المعرفة أن الله ﷻ أكرم من عباده. وأنه لا يترك عبده الذي أنفق بإخلاص في حالة صعبة وعصيبة. بل يحسن إليه ويرزقه أفضل وأخيَر مما أنفق به. وكما ورد في الآية الكريمة:



﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (سبأ، ٣٩)

وهكذا فقد صار الإنفاق شيئاً لذيذاً بالنسبة للمؤمنين الذين كسبوا الأرباح العالية والوفيرة من هذه التجارة المعنوية الرابحة.

وكما قال سيدنا جلال الدين الرومي:

«الشخص الذي يبيع القماش، عندما يرى أن القماش الذي بين يديه سوف يدر عليه ربحاً أكثر مما كان عليه سابقاً. فيتضاءل حبه تجاه ذلك القماش، وتفتر مشاعره وأحاسيسه نحوه، فيريد أن يبيعه مباشرة. أما إذا انخفض سعره، ولن يدر عليه الأرباح الوفيرة التي كانت تُدِرُّ عليه سابقا والمتعارف عليها، فإنه يرتبط عاطفيا بذلك القماش ويحبه أكثر، ولا يريد أن يفارقه، فلا يبيعه بل يبقيه عنده».

وقال أيضاً:

«لا ينقص المال بالصدقات، بل إن التصدق والإنفاق في سبيل الله ﷻ يحمي المال من الضياع».

وعن جابر ﵁ قال كانت الانصار إذا جزوا نخلهم قسم الرجل تمره قسمين أحدهما أقل من الآخر ثم يجعلون السعف مع أقلهما ثم يخيرون المسلمين فيأخذون أكثرهما ويأخذ الانصار أقلهما من أجل السعف حتى فتحت خيبر فقال رسول الله ﷺ :



" قد وفيتم لنا بالذى كان عليكم فان شئتم أن تطيب أنفسكم بنصيبكم من خيبر ويطيب ثماركم فعلتم قالوا إنه قد كان لك علينا شروط ولنا عليك شرط بأن لنا الجنة فقد فعلنا الذى سألتنا بأن لنا شرطنا قال فذاكم لكم". (الهيثمي، ١٠، ٤٠)

فكم هو لطيف ذلك التصرف الذي قام به الأنصار لكي يستطيعوا عيش اللذة المعنوية للإيثار، وعيش حالة الأخوة والتفاني العظيم، الذي بواسطته تخلوا عن جميع المنافع المادية والفانية، وألقوا بها إلى ما وراء ظهورهم.

والصحابي الجليل أبوعبيدة بن الجراح ﷺ، عندما كان قائداً للجيش. فأُحضر له في حر الصحراء ماء بارد وخبزٌ طازج. فسأل:

«هل يجد جنودي أيضاً ذلك ليتناولوه ؟». وعندما علم بأنه أحضر خصيصاً له فقط، فلم يمد يديه إلى ذلك الطعام، وقال:

«أحضروا لي مما يأكله جنودي».

لأن ذلك الصحابي الجليل كان من الناس الصالحين الذين يقولون «أخي المسلم أولاً، وليس من القائلين نفسي أولاً».

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺفَقَالَ:

«إِنِّي مَجْهُودٌ» فَأَرسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ فَقَالَتْ:

«وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلاَّ مَاءٌ» ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى فَقَالَتْ مِثْلَ ذلِكَ حَتَى قُلْنَ كُلُهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ:



«لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ» فَقَالَ:

«مَنْ يُضِيفُ هذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللهُ» فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ:

«أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ!» فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ:

«هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟» قَالَتْ:

«لَا، إلاَّ قُوتُ صِبْيَانِي» قَالَ:

«فَعَلِّلِيهِمْ بِشَيْءٍ فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِ السِّرَاجَ وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ فَقُومِي إِلَى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ» قَالَ فَقَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

«قَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ». (مسلم، الأشربة، ١٧٢؛ البخاري، مناقب الأنصار، ١٠؛ التفسير، ٥٩/ ٦)

الإيثار عند أولياء الحق ﷻ

وقد عرض أولياء الحق ﷻ الذين تخلقوا بأخلاق رسول الله ﷺ، أمثلة كثيرة معبرة عن الإيثار، كما عرض الصحابة الكرام ﷺ تلك الأمثلة من قبل. وعن أبي الحسن الأنطاكي أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون نفساً وكانوا في قرية بقرب الري ولهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم فكسروا الرغفان وأطفئوا السراج وجلسوا للطعام فلما رفع فإذا الطعام بحاله ولم يأكل أحد منه شيئا إيثارا لصاحبه على نفسه (الغزالي، الإحياء، ٣، ٢٥٨).



وذلك هو أفق قلوب المؤمنين الحقيقيين الذين وصلوا إلى هذه المرتبة الرفيعة من الإيثار. إنه أفق يمكن الإنسان من قول«أخي المسلم أولاً، بدلا من قول نفسي أولاً».

وهذا مثال آخر عن هذه الأخلاق الحميدة المليئة بالعبر والدروس. حيث جاء أحد طلبة سيدنا داود الطائي الذي كان يقوم بخدمته، وقال له:

«لقد طبخت لك قليلاً من اللحم، تفضل لوسمحت لتناوله». فسكت أستاذه ولم ينطق بحرف واحد. فأحضر الطالب اللحم ووضعه أمامه. فنظر سيدنا داود الطائي إلى ذلك اللحم وسأل تلميذه:«ما أخبار الأيتام فلان وفلان؟».

فأجابه الطالب معبراً عن أنهم ليسوا بوضع جيد، قائلاً:«كما تعرف يا سيدي».

فقال الشيخ المبارك الذي يعد من أولياء الحق عَزَّوَجَلَّ:

«إذاً خذ بهذا اللحم إليهم».

فحاول الطالب الذي أحب أن يتذوق أستاذه ما طبخه له أن يصر عليه بالأكل قائلاً:

«ولكن يا سيدي، أنت أيضاً لم تأكل اللحم لفترة طويلة».

ولكن سيدنا داود الطائي لم يطاوع تلميذه بل قال له:

«يا بني.. إذا أكلت هذا اللحم، فسوف يخرج من جسدي بعد فترة قصيرة. أما إذا أكله الأيتام، فسوف يصعد إلى العرش الأعلى ليكون هناك أبدياً».



وقال أحد أولياء الحق ﷻ، سيدنا عبيد الله أحرار:

«ذهبت يوماً إلى السوق، وكنت فقيراً جدا. فجاء إلي شخص وقال لي بأنه جائع. ولم يكن لدي أي إمكان مادي آنذاك. وكان عندي عباءة قديمة همت بالاهتراء والتمزق. فأخذت ذلك الشخص إلى مطعم، وقلت للطباخ: (خذ عباءتي هذه، إنها قديمة ولكنها نظيفة، عَلّك تستخدمها في تجفيف بلل القدور والأواني بعد غسلها. وبالمقابل أرجو منك أن تطعم هذا الرجل الجائع).

فأطعم الطباخ ذلك الرجل الفقير، وأعاد لي عباءتي، ولكني لم آخذها لأني قد وعدته بأن أعطيه إياها. وانتظرت مع الفقير حتى أكل وشبع، مع أنني كنت جائعاً أيضاً» (الحدائق الوردية، ص ٦٥١).

وبعد ذلك صار سيدنا عبيد الله أحرار صاحب ثروة كبيرة. لدرجة أن آلاف من العمال كانوا يعملون في مزرعته. وكان يتحدث عن حالته في ذلك الوقت بالشكل التالي:

«توليت خدمة أربعة مرضى في مدرسة مولانا قطب الدين في سمر قند. وكانوا يوسخون أسِرَّتهم بسبب تقدم المرض عندهم. وكنت أغسلهم وأنظفهم بنفسي. وألبسهم ثيابهم. ولأنني كنت أقدم الخدمة لهم دائماً، فانتقل المرض إلي، وصرت على فراش المرض. ولكني حتى في ذالك الوضع المريض كنت أحضر الماء بالأواني، وتابعت غسلهم وتنظيفهم وغسل ثيابهم» (الحدائق الوردية، ص ٦٥٣).



فكم هي مليئة بالعبر حالة سيدنا عبيد الله أحرار تلك، فلو شاء لسخر أحداً غيره ليقوم بتلك الخدمات التي كان يقوم بها بنفسه، حيث أنه كان يملك من الثروة المادية ما يسمح له عمل ذلك. وكان قد أراح نفسه من المشقات. ولكنه فضل أن يضحي براحته الشخصية، ويتخلى عنها، حتى لا يبقى محروماً من فضيلة الإيثار وبعيداً عن ثوابها.

وقال عباس بن دهقان ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها إلا بشر بن الحارث الحافي فإنه آتاه رجل في مرضه فشكا إليه الحاجة فنزع قميصه وأعطاه إياه واستعار ثوبا فمات فيه (الغزالي، إحياء، ٣، ٢٥٨)

ومن جانب آخر، فالشيء الآخر المهم في تقديم الخدمات للناس والعمل على فعل الخير في سبيل الله ﷻ، هو أن نقوم بخدمة لا يفعلها أحد. وأن نفرج عن كرب مسكين لم يفرج عن كربه أحد. وبذلك نستطيع أن نصل إلى مرتبة أولياء الحق ﷻ الذين كانوا يفضلون شراء بضائعهم وحاجياتهم من الدكاكين والمحلات التي لا يذهب إليها أحد. بالإضافة إلى أنه يجب علينا أن نضحي بالأشياء التي لا يجرؤ أحد على التضحية بها، ولوتطلب ذلك منا أن نضحي بأرواحنا.

ذروة الإيثار: إيثار الروح

الإيثار هو لوحة فنية تعكس جمال الغيرة على الدين. وهو القدرة على أن نجعل حب الله ﷻ وحب رسوله محمداً ﷺ فوق



الحب الفاني الذي نشعر به تجاه جميع الأشخاص أو الأشياء. وورد في الحديث الشريف عن النبي ﷺ قال لسيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، موجهاً كلامه لأمته بأكملها:

"لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك" (البخاري، الأيمان، ٣)

حيث أن سيدنا عمر بن الخطاب أحب الله ﷻ وأحب رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام حباً شديداً دفع في سبيلهما روحه. وقابل وجه ربه شهيداً.

وإن ميزان الحب والعشق هو التضحية والتفاني في سبيل الحبيب. ويدفع الناس أكبر أنواع البدل في سبيل حبهم.

والعشق الإلهي يتطلب تضحية حقيقية. ولا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق التخلي عن الحب الفاني. وعندما يكون الحب في مرتبة الكمال، يصل التفاني إلى ذروته. وعند ذلك فقط يصبح الجفاء صفاء.

ومن يعِشْ الإيمان بعشق كهذا العشق، فإنه لا يتردد لحظة واحدة عن التضحية بما يملك، بل وحتى بروحه. وكما ترك سيدنا محمد ﷺ سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه في فراشه ليلة الهجرة، حيث كان محاصراً من قبل المشركين. فلم يتردد سيدنا علي لحظة واحدة في التضحية بحياته فداءً لرسول الله عليه الصلاة والسلام. فنام في فراشه بدلاً عنه دون خوف أو ذعر، مع علمه بوجود خطر الموت في تصرفه ذاك.



وكما قال الله ﷻ عن المؤمنين الذين وصلوا قمة الإيثار، حيث ورد في الآية الكريمة:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (البقرة، ٢٠٧)

وقال سيدنا جلال الدين الرومي في هذا الخصوص:

«إن الروح قيّمة، ما لم يكن هناك شيء أكثر منها قيمة. ولكن عند الحصول على الشيء الأفضل والأكثر قيمة من الروح، فلا يلفظ اسم الروح ولا تخطر على بال أحد. وتذوب الروح ويذوب المال كالثلج ويذهبا. ولكن إذا أنفقا في سبيل الله ﷻ، فإن الله يكون مشترياً لهما ومقتنياً. وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة، ١١١)

وكان غلام خليل المشهور بموقفه المضاد للصوفية، كان يعارض أرباب الصوفية لدرجة العداوة. وكان سبباً في تحريض قوى الأمن على القبض على مجموعة من الصوفيين، ومن بينهم أبوالحسين النوري. وسوقهم إلى مركز الدولة. وتقرر إعدامهم حسب الحكم الصادر عن المحكمة.



وعندما هم الجلاد بقطع رقبة أحد منهم، تقدم أبو الحسين النوري إلى الأمام بكامل رضاء وتصميم لكي يقطع الجلاد رقبته أولا.فقال الجلاد الذي استغرب تصرفه:

«يا هذا.. إنك تقدمت إلى الأمام، ولكـن هذا السيف شيء لا يُرغب به. ولم يأت دورك بعد، فلم العـجلة؟».

فقال أبوالحسين النوري - قُدّس سره -:

«إن طريقي هو طريق الإيثار، وإن الروح والحياة هما أكثر الأمور قيمة. وأريد أن أضحي بعمري الذي لم يتبقّ منه سوى بضع أنفاس في سبيل أصحابي، لكي يعيشوا أكثر مني. حيث أن الوقت الذي نتنفس فيه في هذه الحياة الدنيا، أفضل وأكثر قيمة بالنسبة لنا من ألف عام في الآخرة. لأن الحياة الدنيا هي مكان لكسب رضاء الله ﷻ. أم الآخرة فهي مكان التقرب منه ﷻ. والتقرب منه يتم عن طريق العمل وتقديم الخدمات في الحياة الدنيا. لذا أريد أن أضحي بأنفاسي الأخيرة المتبقية، لأصحابي»[٢]

إن الروح والمال والأولاد زينة الحياة الدنيا بالنسبة للإنسان. وهي أكثر النعم التي يستصعب صعوبة بالغة في التخلي عنها. لذا فأن الإمتحانات التي يمتحن بها الناس في هذه المجالات الثلاثة هي أصعب أنواع الإمتحانات وأقساها. فكم من عبد امتحنه الله ﷻ بهذه الإمتحانات العسيرة والصعبة، وقاس مستوى الصدق والإخلاص لديه في العبودية.

٢. الهُجْويري، كشف المحجوب، ترجمة: سليمان ألوداغ، اسطنبول، ١٩٩٦، ص ٣٠٢



وقد نجح سيدنا إبراهيم ﷺ في هذا الإمتحان برحمة الله ﷻ ولطفه، فصار خليلاً أي صاحباً له. فلم يخف ﷺ من الفقر، بل أنفق كل ماله في سبيل خالقه ﷻ. وتحمل وصبر في مواجهة خطر نار النمرود التي ألقي فيها، دون أن يتردد لحظة واحدة أويرف له جفن، وذلك في سبيل التوحيد لله ﷻ. أثبت بذلك أنه مستعد في أي وقت كان لأن يضحي بحياته وروحه في سبيل الله ﷻ.

وإن أصعب وأقسى امتحان يتعرض له الإنسان في حياته هو امتحان الأولاد. الذي نجح فيه سيدنا إبراهيم ﷺ أيضاً، وأصبح قدوة للإطاعة والتسليم لأمر الله ﷻ، والعمل بما أمر به والإبتعاد عما نهى عنه.

وبما أن الأولاد والخلف هم مدار لدوام نسل الإنسان واستمراريته، فكأنهم وسيلة لإشباع غريزة حب الحياة والعيش فيها إلى لأبد. هذه هي الغريزة المكنونة في فطرة بني البشر. ولهذا السبب يشعر الوالدان بحب شديد ولا يضاهى تجاه أولادهم. لأن الأولاد هم قطعة من والديهم تتابع ذريتهم ونسلهم.

وعلى هذا الإعتبار، فقد تعرض سيدنا إبراهيم ﷺ لأصعب وأقسى الإمتحانات، حيث أمره الله ﷻ بأن يذبح ابنه ليتقرب إليه. ومكافأة على الرضاء التام والتسليم بأوامر الله ﷻ، فقد أنزل جبريل ﷺ - بأمر من الله تعالى - كبشاً من الجنة إلى وجه الأرض. وأهديت هذه الذكرى المجيدة بفضل سيدنا إبراهيم



وسيدنا إسماعيل عليهما السلام إلى بني البشر كعبادة يتقربون بها إلى الله ﷻ حتى يوم الدين.

ومن هذا المنظور، فالغاية الأساسية من عبادة النحر في عيد الأضحى هي إعطاء العبد عهداً، بأنه مستعد في كل وقت وفي كل ظرف لأن يضحي بروحه قرباناً لله ﷻ. والنحر هو أيضاً تأييد لإطاعتنا لربنا ﷻ، وتسليمنا التام بأوامره ة نواهيه. وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ**﴾(الحج، ٣٧)

وقد عبر سيدنا جلال الدين الرومي عن فضيلة التضحية بالروح بهذه الجمل الجميلة، حيث قال:

قال سيدنا محمد ﷺ فيما معناه: (ملكان يسبحان الله ﷻدائماً، ويتوسلان إليه قائلين: (يا رب.. أشبع أصحاب الكرم، الذين يسدون حاجة الفقراء، واحسب لهم مئة ألف درهم مقابل درهم واحد أنفقوه). فما بالك بمن أعطى روحه، ومن مد عنقه وضحى بنفسه في سبيل اللهﷻ ؟.. وذلك الشخص هو كإسماعيل عليه السلام الذي مد عنقه لخالقه، واستعد ليكون أضحية في سبيله. ولكن الله ﷻ لن يسمح لذلك العنق بأن يذبح أويقطع».

وقال أيضاً:

«إذا أعطيت خبزاً في سبيل الله ﷻ، فستعطى خبزاً أيضاً. أما إذا ضحيت بروحك، فستهدى روحاً».



وقال أيضاً:

«لواستطعت أن ترى كرم الله ﷻ وسخاءه، فهل تطاوعك نفسك على أن تمنع روحك عنه؟. وهل تستطيع أن تشغل بالك بهم روحك وحياتك؟. ومن يقف على ضفة النهر ويمنع ماءه عن الناس، هو شخص قلبه أعمى، ولا يستطيع رؤية ذلك النهر».

بركة الإيثار العظيمة

إن الدرهم الذي ينفق في سبيل الله ﷻ بالإيثار، مع التخلي عن النفس وأهوائها، هو أفضل وأكثر قيمة وبركة من التصدق بمئة ألف درهم لم تنفق بهذا الشكل.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

«سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفٍ».

قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ قَالَ:

«رَجُلٌ لَهُ دِرْهَمَانِ فَأَخَذَ أَحَدَهُمَا فَتَصَدَّقَ بِهِ وَرَجُلٌ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ فَأَخَذَ مِنْ عُرْضِ مَالِهِ مِائَةَ أَلْفٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا» (سنن النسائي، الزكاة، ٤٩)

وهذا يعني أنه ليس المقدار هو المهم في المال الذي ينفق، بل الأهم من ذلك هو درجة التضحية والإيثار عند من ينفق ذلك المال. فعلى هذا الأساس، فالغنى الحقيقي ليس بكثرة المال، بل بإشباع



الروح. والكرم الحقيقي هو الإنفاق بالتضحية، وذلك بتسخير جميع الإمكانيات في سبيل اللهﷻ.

وقال سهل بن عبد الله التستري قال موسى عليه السلام يا رب أرني بعض درجات محمد ﷺ وأمته فقال يا موسى إنك لن تطيق ذلك ولكن أريك منزلة من منازله جليلة عظيمة فضلته بها عليك وعلى جميع خلقي قال فكشف له عن ملكوت السموات فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله تعالى فقال يارب بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة قال بخلق اختصصته به من بينهم وهو الإيثار يا موسى لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتا من عمره إلا استحييت من محاسبته وبوأته من جنتي حيث يشاء (الغزالي، إحياء، ٣، ٢٥٧-٢٥٨)

ولا شك في أن الوصول إلى مثل هذه القمة في الأخلاق ليس بوسع جميع الناس. ولكن من المؤكد أننا سنحصل على مراتب ذات قيمة أكبر وأفضل كلما حاولنا الإقتراب من هذه القمة وهذا الأفق العظيم.

ويجب علينا أن لا ننسى أن أي خطوة نخطو بها للتقدم في التحلي بخلق الإيثار الذي يعكس وجه الإسلام البشوش بكل رقته وعظمته، ربما تكون باب النصر الأبدي الذي سيوصلنا إلى أعلى الدرجات التي يستحقها من تحلّى بالأخلاق الحميدة التي أمرنا الله ﷻ أن نتحلّى بها.



وورد في الحديث الشريف عن النبي ﷺ:

"ليس بالمؤمن الذي يبيت شبعان و جاره جائع إلى جنبه"

(الحاكم، ٢، ١٥)

ويذكرنا هذا الحديث الشريف بكبر وعظمة المسؤولية التي تقع على عاتقنا. وكيف ما أن تألم عضو في الجسد، تحس به كافة الأعضاء الأخرى، فعلى المسلمين جميعهم أن يحسوا بعذاب إخوانهم في الدين، في كل أنحاء العالم.

اللهم أَفِضْ على قلوبنا بِهَبّاتِ الريح العذبة القادمة من عصر السعادة وإقليم أحبائِك المفعم بالمعاني والعبر.

وارزقنا اللهم نشوة الضمير والسعادة المعنوية بالتضحيات التي علينا أن نقوم بها من أجل إخواننا المسلمين في إفريقيا وفي كل أنحاء العالم.

وارزقنا اللهم في الحياة الدنيا مظاهر السعادة المعبرة والتي تعكس سعادة العيد الأبدي يوم القيامة... آمين





الإسراع في عمل الخير

لقد أقسم ربنا ﷻ بالفجر. وفي كل فجر يوم يفتح لنا صفحة جديدة من صفحات تقويم عمرنا. فكيف علينا أن نملأ صفحة العمر هذه؟ وكم يجب أن نخصص من أوقاتنا للعمل لأنفسنا، مقابل كم من الوقت الذي يجب أن نخصصه للتأثير الإيجابي في الناس من حولنا، فنقف إلى جانب المحرومين من الحنان والعطف والشفقة، وإلى جانب الفقراء والمساكين والمظلومين؟ وماذا ستكتُبُ الملائكة الذين قال الله ﷻ عنهم: ﴿كراماً كاتبين﴾، في سطور صفحاتنا اليومية لأجل يوم القيامة ويوم الحساب؟.

وهكذا يجب على المؤمن أن يتفكر بهذه الحقائق بقلب رقيق ولطيف. وأن يستهلك وقته في الأعمال الأكثر فائدة للآخرين، والأكثر صواباً.

الإسراع في عمل الخير

لقد أقسم الله ﷻ في سورة العصر بالزمن. طالباً منا أن نلفت انتباهنا إلى كيفية قضائنا لعمرنا الذي كتب لنا.

والزمن هو كالسيف ذوالحدين الماضيين. فإذا قُيِّم واستفيد منه على أساس الكتاب والسنة النبوية الشريفة، فهو وسيلة للوصول إلى الجنة. أما بالنسبة للناس الذين وقعوا تحت سيطرة نفوسهم وانجرفوا وراء أهوائهم وشهواتهم، فهوكالسيل الجارف الذي يتدفق بسرعة هائلة جارفاً معه كل ما اعترضه في طريقه. فالحكيم هو من نجى من أن يكون عبارة عن قطعة حطب هامدة في مجرى السيل العارم. فتتحرك إلى اليمين تارة، وإلى الشمال تارة أخرى تحت سيطرة ذلك السيل العنيف التامة.

ولا يمكن للزمن الماضي أن يعود. ولا يمكن للوقت أن يُجمع ويحتفظ به. ولا يعار الزمن ولا يستعار، ولا يباع ولا يشترى. ولو دفع الإنسان كل ما يملك من أموال وأملاك وثروات، لا يقدم مدة عمره ثانية واحدة ولا يستأخره.

والحياة الدنيا التي هي عبارة عن مكان التجهيز والتحضير للعالم الأبدي، إنما هي كنز يمتلكه الإنسان لفترة زمنية قصيرة، ومن ثم يفقده. لذا يجب معرفة قيمة وقدر نعمة هذه الحياة، وتقييمها



بأفضل وأجمل الأعمال التي تليق بها. لأنه لا يمكن تعويض ضياع هذه النعمة. ويصبح الزمن عبارة عن أمر يندم عليه الإنسان في رمقه الأخير، إذا أضاعه وأنفقه بعشوائية وعدم تنظيم. ملبياً بذلك رغباته وشهواته النفسية ومشبعاً غرائزه وأهواءه وكأن العمر لن ينتهي، ومهملاً واجباته كعبد تجاه الله ﷻ.

وعمر الإنسان هو كالممر الضيق بين المهد واللحد، وذو صعود ونزول، وهو عبارة عن مجموع الأنفاس التي يتنفسها اعتباراً من الولادة وحتى الموت. وهذه الأنفاس التي يجهل العبد عددها ولا يعرفه سوى الخالق ﷻ، لا شك في أن أكثرها عبرة ووقاراً هو الرمق الأخير.

والرمق الأخير هو ملتقى الطرق بين الحياة الدنيا التي وصلت إلى نهايتها وبين العالم الأبدي الذي سيبدأ من جديد. وإن ملتقى الطريق ذاك هو عبارة عن ممر ضيق ووعر ومخيف. وعلى جميع المؤمنين الذين لديهم الوعي والإدراك والنضوج المعنوي أن يتفكروا في ذلك الممر، وأن يصلحوا أحوالهم ويروضوها على حسب استقامته.

والرمق الأخير هو كالمشهد الأخير في مسرحية يقدمها الإنسان عن نفسه وعن حياته. وهو كالمرآة النظيفة اللامعة والخالية تماماً من الشوائب، والتي تعكس عاقبة كل فرد على حدة.

وبينما نحن ننفق أنفاسنا التي هي عبارة عن أجزاء زمنية قيمة، في هذه الحياة الدنيا الفانية، يجب أن لا ننسى أن أجهزة التصوير والمراقبة الإلهية موجودة في كل مكان، وتعمل في كل وقت



وفي كل لحظة من لحظات حياتنا. وسنشاهد أعمالنا وأفعالنا التي سجلت من قبل تلك الأجهزة يوم القيامة، عندما يقال لنا: «اقرأ كتابك». وعندها سنتعرف على أنفسنا من جديد، ولكن بوضوح أكثر وشفافية لا مثيل لها.

وبما أن أجلنا مجهول بالنسبة لنا، فإن يوم الإستعداد والتجهيز للحساب الذي سيوصلنا إلى الفلاح والنجاة في الحياة الأبدية هو اليوم. وإن الشراب الذي سنرفقه بزادنا للآخرة هو شراب اليوم. فيجب أن نحرص على تأمينه اليوم لكي نأخذه معنا عند مماتنا ونرفقه بذلك الزاد.

وقد ذُكّرنا في كثير من الأحاديث النبوية الشريفة بيوم الحساب، وبأننا سنحاسب على جميع النعم التي رزقنا إياها ربنا ﷻ، ولقّنَنَا أن نتجنب الوقوع في الغفلة في خصوص هذه النعم.

فورد في الحديث الشريف عن النبي ﷺ:

"لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسئل عن خمس عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم أبلاه وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وماذا عمل فيما علم" (الترمذي، القيامة، ١)

وورد في حديث شريف آخر:

"اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك " (الحاكم المستدرك، ٤، ٣٤١/ ٧٨٤٦)



أهمية الإسراع في إعطاء الصدقة

لقد بلغنا سيدنا محمد ﷺ أهمية الإسراع في عمل الخير بالفضائل اللامتناهية التي قام بها في حياته المثالية. وقد نقل لنا إحدى هذه الفضائل سيدنا عقبة بن الحارث رضي الله عنه حيث قال: صَلَّيْتُ وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ الْعَصْرَ فَسَلَّمَ ثُمَّ قَامَ مُسْرِعًا فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ إِلَى بَعْضِ حُجَرِ نِسَائِهِ فَفَزِعَ النَّاسُ مِنْ سُرْعَتِهِ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ فَرَأَى أَنَّهُمْ عَجِبُوا مِنْ سُرْعَتِهِ قَالَ:

"ذَكَرْتُ شَيْئًا مِنْ تِبْرٍ عِنْدَنَا فَكَرِهْتُ أَنْ يَحْبِسَنِي فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ" (البخاري، الأذان، ١٥٨، العمل في الصلاة، ١٨؛ النسائي، السهو، ١٠٤)

وورد في حديث شريف آخر عن النبي ﷺ:

"باكروا بالصدقة فان البلاء لا يتخطاها" (الهيثمي، مجمع الزوائد، ٣، ١١٥)

فكما أن فضيلة الصلاة هي أن تقام في وقتها، ففضيلة الصدقة أيضا هي أن تعطى في أقرب فرصة وبدون تأخير. وقد انعكس هذا الخلق النبوي الشريف بشكل واضح وبارز على حياة أولياء الحق ﷻ من الصالحين والعلماء وأصحاب الحكمة.

وقصة سيدنا حسن البصري التالية هي مثال معبر ومليء بالحكم عن هذه الحقيقة:

طلب رجل مبارك شيئا من سيدنا حسن البصري. فقام مباشرة وخلع قميصه وقدمه إلى ذلك الرجل.

فقال الناس المتواجدون حوله آنذاك:



«يا حسن.. هلا ذهبت إلى البيت لتعطيه شيئا من هناك ؟».

فأجابهم سيدنا حسن البصري بهذه الإجابة المعبرة، حيث قال:

«جاع مرة رجل فقير ومحتاج إلى المسجد، وقال: (إني جائع). فوقعنا في غفلة ولم نحضر له مباشرة شيئا ليأكله. فتركناه في المسجد وذهب كل منا إلى بيته. وعندما عدنا إلى المسجد لأداء صلاة الفجر، صدمنا برؤيتنا لذلك المسكين أنه قد توفي. فكفناه ودفناه.

وفي اليوم التالي رأيت الكفن الذي كفنا به ذلك المحتاج في المحراب، وكأنه قد تراءى لي معنويا في وقت اليقظة. ورأيت أنه قد كتب عليه الجملة التالية: (خذوا كفنكم، فلم يتقبله الله ﷻ منكم).

فأقسمت يومها بأني إذا رأيت فقيراً أو محتاجاً فلن أتركه ينتظر وسألبي حاجته مباشرة»[1].

وهكذا يظهر الله ﷻ بعض الحقائق لعباده الصالحين والأولياء، بشكل غير طبيعي وغير المعتاد. والغاية من ذلك هوتوجيه الناس توجيها حسناً، وذلك بالتأثير العميق في القلوب والصدور. ويجب علينا أيضاً أن نفهم من هذه القصة المعبرة، أنه يجب علينا أن نعرف أن قيمة الحسنة وكرامتها مكنونة في أدائها المبكر وبدون انتظار.

١. الضرير مصطفى أفندي، مئة حديث ومئة قصة، صلاح الدين يلديريم، ن. يلماز، اسطنبول، ٢٠٠١، ص: ١٥٧.



مشهد بليغ ومعبر، من لحظات النفس الأخير

قص لنا ربيع بن هيثم - رحمة الله عليه - هذه القصة التي تعبر عن الحالة المحزنة التي يؤول إليها من لم يُزكِّ نفسه، وذلك بتأجيل القيام بالعمل الصالح وتأخيره، حيث قال:

«يسلم الشخص روحه عند موته في سبيل ما كان مولعاً به في حياته. وتواجدت في إحدى المرات عند رجل ينازع. وكلما أردت أن ألقنه بقول (لا إله إلا الله)، كان يقوم بعمليات حسابية بأصابعه، وكان يقوم بحركات وكأنه يعد النقود».

أي أن من أجل القيام بعمل الخير قائلاً: «أقوم به لاحقاً»، فإنه لن يجد بسهولة فرصة للقيام بذلك العمل. لذا قال العلماء والعارفون «هَلَكَ المُسَوفون». ووصلوا إلى حكمة هذه الجملة المعبرة، لأن اليوم الذي ليس له غد، فإنه سيأتي بسرعة وفي أي لحظة.

وقال سيدنا أبوهريرة رضي الله عنه:

«جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا.

فأجابه عليه الصلاة والسلام بالإجابة التالية:

"أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى وَلَا تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ" (البخاري، الزكاة، ١١)

وورد في حديث شريف آخر عن سيدنا محمد ﷺ أنه قال:

"لأن يتصدق المرء في حياته بدرهم خير له من أن يتصدق بمائة درهم عند موته" (سنن أبي داود، الوصايا، ٣/ ٢٨٦٦).

وقد نصحنا الشيخ سعدي شيرازي بهذه النصيحة الجليلة، وكأنه أُلهم بها من تلك الحقائق التي وردت في الأحاديث النبوية الشريفة، حيث قال: «قم بنفسك بتجهيز زادك للآخرة. لأنك عندما تموت، فيصيب أقاربك الجشع، ولا يقومون بتقديم أي حسنة من أجل روحك. وبما أنك اليوم تملك الذهب فتصدق به، فهوليس لك عندما تموت، ولن تستطيع عندئذ أن تتصرف به كما تشاء. ومن جهز زاده لآخرته بنفسه، وأخذه بيده، فهوالفالح الذي ملك الدنيا وما فيها. وما حك ظهرك حرصاً على راحتك، سوى ظفرك.

ضع ما تملك من ثروات مادية في كفك، وأعطها للأماكن التي ستعطى لها. وإن لم تستطع أن تعطيها، فستعض بأسنانك على أصابعك من الندم في الغد».

وفي الحقيقة، فإن عدم إنفاق المال والملك عند القدرة على فعل ذلك، وبوجود الوقت الكافي، بل تركه للورثة الذين حرموا من نيل نصيب من التربية المعنوية والروحانية. والذين لا نعرف أين سينفقون ذلك المال. فإن تصرفك بهذا الشكل سيحملك مسؤولية كبيرة وحساباً عسيراً في الآخرة. وليس ذلك هوالعمل السليم الذي يليق بالقلب السليم.

وقد نصحنا الصحابي الجليل سيدنا أبوذر الغفاري رضي الله عنه بهذه النصيحة الحكيمة، حيث قال: «في المال ثلاثة شركاء القدر لا



يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم فإن استطعت أن لا تكون أعجز الثلاثة فلا تكونن. فان الله ﷻ يقول(لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) ألا وإن هذا الجمل مما كنت أحب من مالي فأحببت أن أقدمه لنفسي » (أبونعيم، الحلية، ١، ١٦٣)

والناس الذين يُغسلون عند موتهم، ويظنون أنهم كانوا أغنياء في عالم الخيال في الحياة الدنيا، فعندما يستيقظون من غفلتهم في صباح حقيقة الموت ويرون أنهم لا يملكون شيئا بين أيديهم، ولم يبق من الملك الدنيوي شيء، فسيستنتجون أنهم قد خسروا ذلك المال وتلك الثروات إلى الأبد.

وقال سيدنا جلال الدين الرومي:

«إن الحياة الدنيا عبارة عن حلم. وأن تكون صاحب ثروة مادية في الحياة الدنيا، كأنما وجدت كنزا في منامك. ومال الدنيا ومتاعها ينتقل من جيل إلى آخر باقيا في الدنيا».

وقال أيضاً: «عندما يأتي ملك الموت لقبض روح الغني الغافل. يستيقظ ذلك الغني من نومه، فيندم ويتحسر على ما ارتكبه من مصائب وما احتمله من مسؤوليات من أجل مال، ليس في الحقيقة ماله. ولكن كل شيء قد انتهى، ونفد وقت العمل ».

ويجب أن لا ننسى أنه بعد الدخول إلى ما تحت التراب، فسيحدث للفقير ما يحدث للغني بعينه دون تمييز. ومن فعل شيئاً سيجده هناك أمامه. وإن رأس المال الوحيد للإنسان بعد رحيله من



هذه الحياة الدنيا إن رحل كعبد أو كحاكم، إنما هو ما استطاع أن يصطحبه معه من الدنيا. وذلك المكان هو الذي يتفرق فيه العشب عن التبن. وهوالمكان الذي يجعل الأقدام التي كانت تدوس على رؤوس الناس يجعلها ذليلة تمشي تحت الأقدام. وهوالمكان الذي يتحول فيه كثير من العبيد إلى سلاطين، وكثير من السلاطين إلى عبيد. وهو المقام الذي لا قيمة فيه للمقامات والمراتب الدنيوية التي لم توظف ولم تستخدم في سبيل الله ﷿. وهو المكان الذي يلتقي فيه كثير من الفقراء بالخزائن والثروات، بينما يتحول الكثير من الأغنياء والأثرياء إلى فقراء للأبد ومتسولين في يوم الحشر. ولا ينفع في ذلك المكان سوى صداقة العباد الصادقين مع الله ﷻ وسلامة قلوبهم. وفي هذين البيتين الشعريين تنبيه وإيقاظ لنا من قبل الشاعر التركي المرحوم نجيب فاضل، حيث قال:

يا أيها الصراف البخيل.. اقتن كيساً آخر للنقود

واجمع النقود التي تفيدك في قبرك

وإن من أهم الأمور التي يمتحن الله ﷻ ابن آدم خلال حياته هي الروح والمال والولد. وهذه الأمور هي نعمة فضيلة إذا استخدمت ووظفت في سبيل الخير والعمل الصالح، وهي وسيلة للعذاب وعدم الراحة النفسية إذا استخدمت في الشر والعمل السيئ. والشيء الوحيد الذي يدلنا على طريق الخير والشر والنعمة والنقمة إنما هو صوت الدين ونداء الحق.



وكما ورد في الآيات الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (المنافقون، ٩-١٠)

وقد صور الله ﷻ حالة من أضاع الدنيا بغفلته، حيث قال:

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (فاطر، ٣٧)

وقد نصحنا سيدنا الإمام الغزالي بهذه النصيحة الحكيمة، حيث قال:

«تخيل أنك مت، ثم بعثت من جديد إلى الحياة الدنيا. وتخيل حالتك آنذاك المليئة بالتوتر والخوف والذعر. لذا فلا تقترب أبداً من المعاصي والذنوب. واحرص على أن لا تقضي لحظة واحدة من وقتك هباء. لأن كل نفس تتنفسه هو نعمة لا يمكن تقييمها مادياً».

لذا يجب علينا أن نستعجل في عمل الخير، مؤمنين بأن كل يوم جديد في حياتنا هو مهلة أمهلنا بها الله ﷻ لكي نهيئ أنفسنا للآخرة ونجهز زادنا.

الكل يشعر بالندم

ورد في الحديث الشريف عن سيدنا محمد ﷺ أنه قال مذكراً ومنبهاً أمته: "**ما من أحد يموت إلا ندم**".قالوا وما ندامته يا رسول الله قال: "**إن كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد وإن كان مسيئا أن لا يكون نزع**" (سنن الترمذي، الزهد، ٥٩/ ٢٤٠٣)

وهذا يعني أن الصالحين والمحسنين أيضاً سوف يشعرون بالندم على أنهم لم ينفقوا ويتصدقوا بالنعم التي رزقهم الله ﷺ إياها في الحياة الدنيا أكثر مما فعلوا. أما ندم الغافلين الذين سيشعرون به، فيعجز اللسان عن وصفه والتعبير عنه.

وعندنا سُئِل سيدنا بهلول دانا السؤال التالي: « ما أكثر شيء يوجد تحت التراب ؟». فأجاب: «يوجد ندم الأموات وتمنيهم وقولهم يا ليت ويا ليت».

لذا فيجب علينا قبل أن تأتي أيام الندامة أن نهرع إلى كل عمل يرضي الله ﷻ، ونسارع في أدائه. وأن نتجنب تضييع أوقاتنا في الأمور التي لا هدف منها ولا جدوى، والتي تغضب الله ﷻ.

ويجب علينا أن نعيش كل يوم من حياتنا على انه يومنا الأخير، وأن نعيش ذلك اليوم بقلب يقظ مستعد للعبادة ولإرضاء الله ﷻ، وذلك بأن نخلص في إقامة صلواتنا ونخشع فيها.

وهناك الكثير من الناس الذين لا يقيمون أوقاتهم بالشكل الصحيح. فيقعون في الخطأ. فقال الله ﷻ مخاطباً هؤلاء العباد، بأن يتخلصوا من ذلك الخطأ ويستحقوا رحمته وكرمه:



﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الانشراح، ٧-٨).

أي أنه يجب علينا بمجرد انتهائنا من أداء أي عبادة أوالقيام بأي عمل صالح، أن نبدأ مباشرة بعمل صالح أخر. وعلينا أن لا نترك مجالاً لأي لحظة من حياتنا أن تمضي وتمر من دون عبادة، أو بعيدة عن الأعمال الصالحة والخيرة.

وقال سيدنا جلال الدين الرومي: «إن علامة تقبل الله ﷻ لعبادة شخص ما، هي أن يسارع ذلك الشخص في أداء عبادة أخرى بمجرد انتهائِه من أداء تلك العبادة. والإسراع ثم الإسراع في فعل الخير أينما كان».

وقال أيضاً: «الأجل هو أن تعطي كل شيء يجب أن تعطيه، قبل أن تأخذ ما سَيُعطى لك».

وكما قال الله ﷻ حسب ما ورد في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة، ٢٥٤).

وورد في الحديث الشريف عن سيدنا محمد ﷺ أنه قال:

"بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم. يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا. أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا. يبيع دينه بعرض من الدنيا" (مسلم، الإيمان، ١٨٦؛ سنن الترمذي، الفتن، ٣٠، الزهد، ٣)

لذا يجب أن يكون هدف كل مؤمن هو الإسراع في عمل الخير، والإسراع في تأمين وتجهيز زاده للآخرة. ما دامت قوته وصحته على ما يرام في حياته. ويجب عليه أن لا يخدع بملذات الدنيا الآنية والفانية، وأن لا ينجذب وراء زينتها الخادعة. وأن يهيئ نفسه للحياة الأبدية والحقيقية، دون أن ينسى أن المال الذي يملكه في الدنيا هو عبارة عن كنز وجده في حلمه ليس إلاّ.

ثروة الإنسان الحقيقية هي ما أرسله للآخرة

عن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاة فقال النبي ﷺ:"ما بقي منها؟" قالت:«ما بقي منها إلا كتفها».

قال ﷺ:"بقي كلها غير كتفها" (الترمذي، القيامة، ٣٣)

وقص لنا سيدنا عبد الله بن شهير القصة التالية: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ ألهاكم التكاثر قال:

"يقول ابن آدم مالي مالي (قال) وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت؟" (مسلم، الزهد، ٣-٤)

وورد في حديث شريف آخر أيضا:

"مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ



بِشِقِّ تَمْرَةٍ قَالَ الْأَعْمَشُ وَحَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ عَنْ خَيْثَمَةَ مِثْلَهُ وَزَادَ فِيهِ وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ" (البخاري، التوحيد، ٣٦)

أي أن كل ما سيظهر أمام الشخص يوم القيامة، خيراً كان أم شراً، إنما هو عبارة عن تجسيم لما فعل وما قام بعمله في الحياة الدنيا. لذا فقد نبهنا الله ﷻ بهذا التنبيه الذي ورد في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر، ١٨)

وقال الشيخ سعدي شيرازي:

«إن الناس الأذكياء هم الذين يصحبون أموالهم وأملاكهم معهم عندما يرحلون إلى العالم الآخر (أي أنهم ينفقون كل مل يملكون في سبيل الله ﷻ مسبقا). والبخلاء من الناس فقط الذين يتحسرون على أموالهم ويتركونها في هذا العالم الدنيوي الفاني».

خلص نفسك من علة البخل

إن البخل وعدم الإنفاق في سبيل الله ﷻ يرمي الآخرة إلى التهلكة والمخاطرة. وورد في الآية الكريمة إيقاظ الله ﷻ لعباده، حيث قال:

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة، ١٩٥).



إن المال والنعم التي لا تنفق في سبيل الله ﷻ هي كالصديق الخائن الذي لا يمت إلى الوفاء بصلة. وعندما يأتي ذلك اليوم الذي ينتهي فيه رأس مال العمر، يغدر ذلك الصديق الخائن بصديقه، ويتركه وحيداً محتاجاً ومسكيناً. ومن أراد أن تكون أمواله وأملاكه وإمكانياته وفية له، فيجب عليه أن يرسلها إلى الآخرة لتستقبله استقبالا جيدا، وذلك عن طريق إنفاقها في سبيل الله ﷻ، والتصدق بها على الفقراء والمساكين والمحتاجين. ومن أجل الوصول إلى تلك المرتبة يجب علينا أن نخلص قلوبنا من شح النفوس.

وقد حث القرآن الكريم على ضرورة التغلب على البخل من أجل الوصول إلى الفوز الأبدي، حيث ورد في الآية الكريمة:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر، ٩)

ولكن الشيطان يلجأ إلى العديد من الحيل والخدع لكي يجعل مستقبل الإنسان أسود كالظلام، وذلك عن طريق زرع بذور الوساوس في القلوب. فعلى الرغم من معرفة بني البشر بأن الله ﷻ هوالرزاق وواهب النعم، فيحاول أن يخدعهم في هذا الخصوص.



وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة، ٢٦٨)

وكان الخليفة الراشد سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه، الذي كان يعرف حيل الشيطان وخدعه عز المعرفة، كان يوصي الولاة بالكرم والإيثار دائماً ويحذرهم من البخل وعواقبه، حيث قال:

«لا تسمحوا للبخيل الذي يريد أن يبعدكم عن عمل الخير والإنفاق، عن طريق تخويفكم من الوقوع في الفقر والبأساء. ولا للخائف الذي يريد أن يثبط عزمكم عن القيام بالأعمال الصالحة والخيرة، ولا للجشع الذي يميل إلى الظلم مع أنه يبدوأنه شيء جيد، لا تسمحوا لهم بأن يدخلوا مجلس استشارتكم».

ومن يستطع التخلص من شح النفوس ووساوس الشيطان، هوالذي يدرك إدراكاً حسناً أن ما ينفقه في سبيل الله ﷻ ليس ضائعاً. بل أنه سيتحول إلى رأس مال للسعادة الأبدية التي تنتظره في الآخرة.

وكما ورد في الحديث الشريف عن سيدنا محمد ﷺ أنه قال:

"ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثا فاحفظوه قال ما نقص مال عبد من صدقة ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزا ولا فتح عبد باب مسئلة إلا فتح الله عليه باب فقر أو كلمة نحوها..."

(الترمذي، الزهد، ١٧)



وقال سيدنا جلال الدين الرومي مشيراً إلى أن الإنفاق في سبيل الله ﷻ لا ينقص المال، بل يزيد في بركته:

«هل من الممكن أن تزرع بذرة نظيفة وقوية في هذه الأرض التي خلقها الله ﷻ، ولا يفنى ذلك الزرع بعدها ؟».

وقال أيضاً:

«بما أن هذه الأرض لا تتوقف عن إعطاء المحاصيل والثمرات المختلفة، مع أنها ستفنى وتزول، فكيف لا تعطي الآخرة محصولاً، وهي أكبر من وجه الأرض في الحياة الدنيا ؟».

وقال أيضاً:

«إن محصول أرض الدنيا هو كثير ووفير دون حد أو حساب. وحتى أن ثمرة البذرة الواحدة هي سبع مئة ثمرة. فتأمل في ذلك وتفكر، لكي تعرف وتفهم كمية محصول العالم الآخر. وإن المال لا ينقص بإعطاء الصدقة، وإن عمل الخير والتصدق في سبيل الله ﷻ يحمي المال من الضياع والزوال».

إن كل لحظة من لحظات الحياة الدنيا التي تعتبر رأس مال للعبادة والمعاملة الحسنة لا يمكن تقييمه ماديا، إنما هي بذور أخروية ستتحول إلى مجوهرات أبدية ودائمة. وإن الإنسان ليزرع هذه البذور في حقل الحياة الدنيا، لكي يجني محصولها في الآخرة. أما إذا أضاع هذه البذور القيمة وفرط بها في سبيل شهواته النفسية



ومتطلباته الدنيوية، فستتحول تلك البذور إلى محصول من زرع جهنم وبئس المصير. ويا للأسف على هؤلاء الناس، ويا لسوء عاقبتهم. أما الأوقات واللحظات التي تزينت بروحانيات الكتاب والسنة النبوية الشريفة، إنما هي بذور السعادة التي لا مثيل لها، والتي ستنبت وستنبع في حدائق الجنة الأبدية.

وكما أن المال الذي لم ينفق في سبيل الله ﷻ هو كالصديق الخائن، فإن المال الذي أنفق وتصدق به في سبيل الله ﷻهو كالصديق الوفي. وكما ورد في الحديث الشريف عن سيدنا محمد ﷺ أنه قال:

"...وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ أَوْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ..."

(البخاري، الزكاة، ٧٤)

قَالَ يَزِيدُ أَنَّ أَبَا الْخَيْرِ حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

"كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ أَوْ قَالَ يُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ"

قَالَ يَزِيدُ وَكَانَ أَبُو الْخَيْرِ لَا يُخْطِئُهُ يَوْمٌ إِلَّا تَصَدَّقَ فِيهِ بِشَيْءٍ وَلَوْ كَعْكَةً أَوْ بَصَلَةً أَوْ كَذَا (أحمد، ٤، ١٤٧)

وفسر عبيد بن عمر - رحمة الله عليه - هذه الحقيقة على النحوالتالي: «سيحشر الناس يوم القيامة في جوع شديد وعطش وتعر. أما من أطعم في سبيل الله ﷻ فسيطعمه الله، ومن سقى في سبيل الله فسيسقيه الله، ومن أكسى في سبيل الله فسيلبسه الله».

وقد بشر الله ﷻ عباده الذين وصلوا إلى السلامة وبر الأمان في ذلك اليوم العسير، حيث ورد في الآية الكريمة:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة، ٢٧٤)

لذا يجب علينا أن نتخذ الإنفاق في سبيل الله ﷻ عادة طبيعية وأساسية بالنسبة لنا. وأن نكون مستعدين في أي لحظة لإنفاق جميع إمكانياتنا في سبيل نيل مرضاة ربنا ﷻ. وأن ندرك قيمة الوقت ونسارع في عمل الخير.

ولقد أقسم ربنا ﷻ بالفجر. وفي كل فجر يوم يفتح لنا صفحة جديدة من صفحات تقويم عمرنا. فكيف علينا أن نملأ صفحة العمر هذه؟ وكم يجب أن نخصص من أوقاتنا للعمل لأنفسنا، مقابل كم من الوقت الذي يجب أن نخصصه للتأثير الإيجابي في الناس من حولنا، فنقف إلى جانب المحرومين من الحنان والعطف والشفقة، وإلى جانب الفقراء والمساكين والمظلومين؟ وماذا سيكتب الملائكة الذين قال الله ﷻ عنهم:﴿كراما كاتبين﴾، في سطور صفحاتنا اليومية لأجل يوم القيامة ويوم الحساب؟.



وهكذا يجب على المؤمن أن يتفكر بهذه الحقائق بقلب رقيق ولطيف. وأن يستهلك وقته في الأعمال الأكثر فائدة للآخرين، والأكثر صوابا.

ويجب علينا أن نتخذ تعليمات سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه دستوراً ونهجاً لنا في حياتنا، حيث قال رضي الله عنه:

«حاسِبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا» (ابن كثير، التفسير، ١، ٢٧.)

وعلينا أن نكون مستعدين لليوم الذي سينتهي فيه معادنا وينفد عمرنا، ومستعدين أيضا لما بعد ذلك اليوم، لكي نصل إلى ربنا بقلوب سليمة وصدور صادقة.

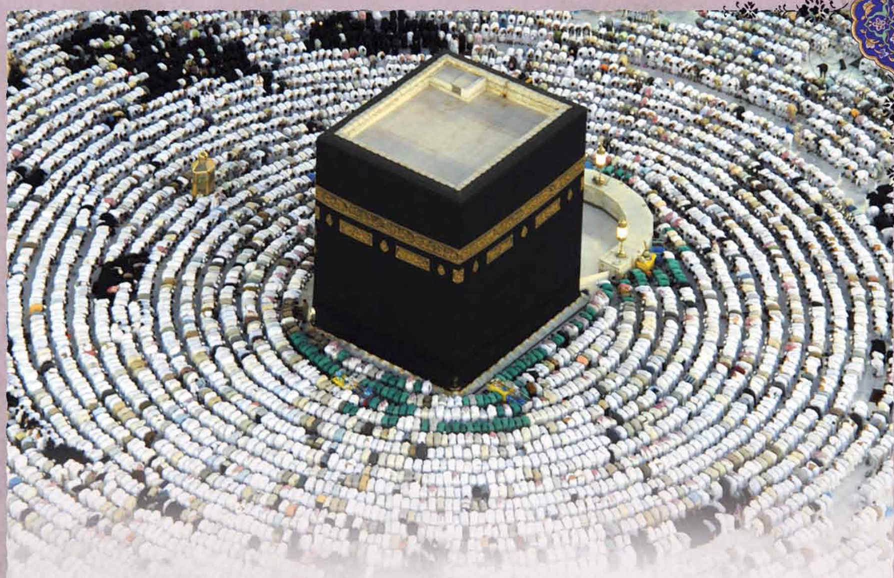
وكما قال سيدنا عمر بن عبد العزيز - رحمة الله عليه -:

«أعدّوا أنفسكم وأعمالكم على حسب المكان الذي تريدون أن تذهبوا إليه يوم القيامة».

وَلْنُنْهِ حديثنا مؤمّنين ومن صميم قلوبنا على دعاء سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي قال:

«اللهم اجعل خير عمري آخره و خير عملي خواتمه و خير أيامي يوم لقائك » (السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص، ١٠٣)

آمـــــــــــين



الأخوة في الإسلام

قال سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه:

«كان سيدنا محمد ﷺ إذا فقد الرجل من اخوانه ثلاثة أيام سأل عنه فان كان غائبا دعا له وإن كان شاهداً زاره وإن كان مريضاً عاده»

(الهيثمي، ٢، ٢٩٥).

وأول شرط للألفة مع أخيك في الدين هو ترك الكلفة (أي التثاقل عليه). أي أن تتجنب التثاقل على أخيك المسلم في غير اللزوم، بل وتحاول أن تخفف عنه همومه وأعباءه.

وإن ألفة من ليس له كلفة (أي صداقته المخلصة)، وحب من لم يكن غليظاً وفظاً، تكونان دائمتين.

الأخوة في الإسلام

إن الأخوة في الإسلام هي من الحقوق والواجبات الرفيعة التي وضعها الله ﷻ بين المؤمنين. والتي سينال العبد الأجر العظيم والثواب الوفير إن حرص عليها وقام بتأديتها على أحسن حال. وهي مصدر السعادة والسرور والطمأنينة والسكينة للفرد والمجتمع. والأخوة في الإسلام هي أن يتسع صدر الشخص محبة جميع المؤمنين، وأن يكون صديق الروح الصادق والمخلص لهم. وأن يفرح لفرح أخيه، ويحزن لحزنه. وأن يكون مصدرا للمواساة وحسن الخلق في أوقاته العصيبة. وأن يفدي عند الضرورة براحته وبنفسه من اجل أخيه المسلم. وكما ورد في الحديث الشريف عن سيدنا محمد ﷺ أنه قال:

"إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى "

قالوا: يارسول الله تخبرنا من هم ؟

قال: **"هم قوم تحابوا بروح الله (بالقرآن) على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فو الله إن وجوههم لنور وإنهم على نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس وقرأ هذه الآية { ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون }"** . (أبو داود، البيوع، 3527/ 76؛ الحاكم، 4، 170)".



وعن النبي ﷺ أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته ملكا فلما أتى عليه قال أين تريد؟ قال أريد أخا لي في هذه القرية قال هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال لا غير أني أحببته في الله ﷻ قال فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه

وكما ورد في الحديث :

"سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عدل وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه معلق في المساجد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه" (البخاري، الزكاة، ١٥)

وهدف المؤمنين الحقيقيين من حبهم لإخوانهم في الدين، وإنشاء روابط الألفة والأنس بين بعضهم البعض، هو أن يكونوا عبادا مقربين من الله ﷻ، ويستحقون رحمته وحبه.

وهناك مصطلح في التصوف يقال عنه: «الإخوانية»، والذي يعني: «أخوة الطريق»، ويقصد بهذا المصطلح التعاون في سبيل الله ﷻ، وأن يدعم المسلمون بعضهم البعض في الأمور الدينية والدنيوية، وأن يحاول المسلم أن يعوض أخاه المسلم كل نقائصه وأن يكون شريكا له في همومه ومصائبه. وذلك يعني أن يعيش المؤمن أخوة الإسلام بمشاعر رقيقة وحساسة نابعة من أعماق قلبه.



أرسل في يوم من الأيام سيدنا بشر الحافي الذي يُعد أحد أولياء الحق ﷻ، أسود بن سالم إلى سيدنا معروف الكرخي، فقال له أسود بن سالم:

«يرغب بشر الحافي في أن يكون أخا لك. وقد أرسلني أنا لأنه يخجل أن يقول ذلك بنفسه علنا. ويرجو منك أن تتقبل أخوته. ولكنه يخاف من عدم المراعاة بحقوق الأخوة بالشكل الذي يليق بها».

فقال سيدنا معروف الكرخي بناء على ذلك:

«إنني أريد أن لا يفارقني من كان أخا لي صباحا ومساء».

وقرأ عدة أحاديث نبوية شريفة تتحدث عن فضيلة الحب في الله ﷻ. ثم شرح ماهية الأخوة في الدين، وكيف يجب أن تكون المحبة الأخوية، حيث قال:

«لقد اتخذ سيدنا محمد ﷺ سلم سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه شريكا له في العلم، بجعله إياه أخا له، فزوجه أحب بناته إليه. فاشهد أنت الآن، بما أنه أرسلك لي طالبا الأخوة، فإني قبلت أخوته في الله ﷻ. وإن لم يأت لزيارتي فسأقوم أنا بزيارته. قل له بأن نجتمع في جلسات العلم. وأخبره بأن لا يخفي شيئا من أحواله عني، وليخبرني عن كل ما يحدث له».

وعندما نقل ابن سالم ذلك الكلام لسيدنا بشر الحافي، أُسعد كثيرا وقبل ذلك بكل سرور وسعادة.



الأخوة في الإسلام هي الأعلى شأناً

إن الأخوة في الإسلام هي عبارة عن رابط قوية جداً لدرجة أنه لا يمكن مقارنته بالصداقات الآنية والمؤقتة، بل وحتى بالصداقات التي تستمر العمر كله. والأكثر من ذلك، فهي وإن صح التعبير لا يمكن مقارنتها بأخوة النسب المبنية على رابطة الدم القادم من الأب والأم.

وقد شكل سيدنا محمد ﷺ نظام أخوة لا مثيل له، يجب أن يكون نموذجا للبشرية جمعاء. حيث ورد في الحديث الشريف:

"وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ" (البخاري، الصلاة، ٨٠)

أي أن الأخوة في الإسلام تشكل ذروة الصداقة أيضاً. وسيدنا أبوبكر الصديق هو حبيب الغار.[١]. وهو ثاني اثنين، الله ثالثهما. وهو الصديق الأعز الذي نال الإطراءات والمدائح النبوية، كقول سيدنا محمد ﷺ:

"لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ" (البخاري، الصلاة، ٨٠)

وقوله عليه الصلاة والسلام: **"أبو بكر منى وأنا منه وأبو بكر أخى فى الدنيا والآخرة"** (السيوطي، جامع الأحاديث، 1، 146)

فبناء على ذلك، فأن ذلك الصحابي الجليل ﷺ كان لائقا بصفة:

١. تعبير يستخدم في وصف سيدنا أبي بكر الصديق ﷺ، بسبب رفقته لسيدنا محمد ﷺ في غار ثور أثناء الهجرة. ومع مرور الزمن أصبح هذا المصطلح يستخدم للصداقات المتينة والمبنية على الإخلاص والصدق والأمانة، والتي تظهر في الأوقات الصعبة والعصيبة



أقرب محرم للأسرار النبوية. وعلى الرغم من ذلك فقد جعل فخر الكائنات النبي الكريم ﷺ مكانة الأخوة في الإسلام أعلى وأرفع من مفهوم صداقته مع ذلك الصحابي العزيز على قلبه.

وكان سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه أيضا يُشكل مظهراً من ذروة مظاهر الأخوة في الإسلام طوال فترة حياته.

إن أخوة النسب هي كيفية إضافية وفانية عائدة لهذه الحياة الدنيا. وكما أننا لم نختر آباءنا وأمهاتنا عند مجيئنا إلى هذه الحياة، فإننا لا نختار إخوتنا أيضاً. ولم يُعْطَ الإنسان حق الإختيار في هذا الخصوص. إلا إننا أعطينا كامل الحرية والحق في اختيار إخوتنا في الدين. والقرارات الصحيحة التي يتخذها الشخص في هذا الخصوص هي التي ستفيده وتوصله إلى بر الأمان والنجاة.

قال سيدنا حسن البصري:

«إن أصدقاءنا وإخواننا في الدين هم أحب إلينا من أفراد عائلتنا. لأن أفراد العائلة يذكروننا في الحياة الدنيا، أما أصحابنا وأحباؤنا فيبحثون عنا في يوم الحشر، ولا يفارقوننا» (الإحياء، ٢، ٤٣٧).

وقال محمد بن يوسف الأصفهاني:

"كيف يمكن لعائلة الشخص وأولاده أن يكونوا كأخيه الصادق في الدين؟. إن العائلة والأولاد يأخذون ميراثه، ويقضون أوقاتهم في إنفاقه والتمتع به. أما الأخ في الدين، فيحيي جنازته ويفكر بحالته في القبر، ويدعوله بالخير عندما يكون تحت التراب".



وكما لاحظنا مسبقاً، فإن أهم شرط من شروط الأخوة في الإسلام هو الوفاء. أي أن يديم الشخص محبته تجاه أخيه في الدين طوال حياته، وأن يديم هذه المحبة بعد موته تجاه أحبابه وعائلته، وأن يدعوله دائماً بالخير.

أخوة الأنصار والمهاجرين

وقد ضرب الله ﷻ لنا مثلاً في الأنصار والمهاجرين، لكي يبين لنا كيف يجب أن تكون الأخوة الحقيقية في الإسلام. حيث أن الأنصار، أي المسلمون من أهل المدينة المنورة، فتحوا صدورهم وقلوبهم لإخوانهم المهاجرين من مكة المكرمة بالمحبة والإيثار. ويريد الله ﷻ أن نقارن أنفسنا بهم وبأعمالهم الصالحة.

وإن معاهدة الأخوة التي حققها سيدنا محمد ﷺ بين المهاجرين والأنصار هي عبارة عن لوحة فنية تعكس فضيلة لا مثيل لها بين الفضائل. حيث أن الأنصار قد وضعوا جميع أموالهم تحت تصرف المهاجرين، كالتاجر الذي يقوم بعملية جرد تجارية لبضائعه ومتاعه. واستطاعوا أن يجبروا أنفسهم على مناصفة المهاجرين كل ما يملكون. وبالمقابل فقد استطاع المهاجرون الذين ملكوا نفوساً عبارة عن خزائن من القناعة والرضا، أن يستغنوا عن كل ما قدمه لهم الأنصار، معبرين عن نضوجهم المعنوي بقولهم: "بارك الله لك في مالك وملكك، ولا أريد منك إلا أن تريني الطريق الذي يؤدي إلى السوق".



وقد عرضوا كثيرا من الأمثلة التي تدل على أن الأخوة في الإسلام تتغلب وتطغى على قرابة النسب ورابطة الدم.

وذلك يبدو واضحاً في معركة بدر التي تعتبر أول صمود للإيمان ضد الكفر، حيث أن سيدنا أبا بكر الصديق ﵁ حارب ضد ابنه. وحارب سيدنا أبو عبيدة بن الجراح ﵁ ضد أبيه. وأشهر سيدنا حمزة ﵁ السيف في وجه أخيه. أي أن التعصب للدين تغلب وتَطْغى على بقية العصبيات الفانية.

عَنْ عُرْوَةَ قَالَ أَخْبَرَنِي أَبِي الزُّبَيْرُ ﵁ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ أَقْبَلَتْ امْرَأَةٌ تَسْعَى حَتَّى إِذَا كَادَتْ أَنْ تُشْرِفَ عَلَى الْقَتْلَى قَالَ فَكَرِهَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تَرَاهُمْ فَقَالَ الْمَرْأَةَ الْمَرْأَةَ قَالَ الزُّبَيْرُ ﵁ فَتَوَسَّمْتُ أَنَّهَا أُمِّي صَفِيَّةُ قَالَ فَخَرَجْتُ أَسْعَى إِلَيْهَا فَأَدْرَكْتُهَا قَبْلَ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى الْقَتْلَى قَالَ فَلَدَمَتْ فِي صَدْرِي وَكَانَتْ امْرَأَةً جَلْدَةً قَالَتْ إِلَيْكَ لَا أَرْضَ لَكَ قَالَ فَقُلْتُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَزَمَ عَلَيْكِ قَالَ فَوَقَفَتْ وَأَخْرَجَتْ ثَوْبَيْنِ مَعَهَا فَقَالَتْ هَذَانِ ثَوْبَانِ جِئْتُ بِهِمَا لِأَخِي حَمْزَةَ فَقَدْ بَلَغَنِي مَقْتَلُهُ فَكَفِّنُوهُ فِيهِمَا قَالَ فَجِئْنَا بِالثَّوْبَيْنِ لِنُكَفِّنَ فِيهِمَا حَمْزَةَ فَإِذَا إِلَى جَنْبِهِ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ قَتِيلٌ قَدْ فُعِلَ بِهِ كَمَا فُعِلَ بِحَمْزَةَ قَالَ فَوَجَدْنَا غَضَاضَةً وَحَيَاءً أَنْ نُكَفِّنَ حَمْزَةَ فِي ثَوْبَيْنِ وَالْأَنْصَارِيُّ لَا كَفَنَ لَهُ فَقُلْنَا لِحَمْزَةَ ثَوْبٌ وَلِلْأَنْصَارِيِّ ثَوْبٌ فَقَدَرْنَاهُمَا فَكَانَ أَحَدُهُمَا أَكْبَرَ مِنْ الْآخَرِ فَأَقْرَعْنَا بَيْنَهُمَا فَكَفَّنَّا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي الثَّوْبِ الَّذِي صَارَ لَهُ. (مسند أحمد، ١، ١٦٥)



وقد ذكر الله ﷻ هذه الفضائل وما شابهها من القيم والأخلاق الحميدة التي تعبر عن الأخوة في الدين، في القرآن الكريم لتكون عبرة أبدية ورسالة للناس إلى يوم الدين، حيث قال:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر، ٩)

وتحتوي هذه الآية الكريمة على كثير من حقوق وواجبات الأخوة في الإسلام. فبناء على ذلك، فإن الغاية من الأخوة ليست فقط التقرب في أوقات الراحة والرخاء وفي أوقات تناول الشاي أو القهوة، بل التقارب والتشارك في هموم الأخ في الدين في أوقاته الحرجة والعسيرة. بالإضافة إلى تفضيل الأخ على النفس، والتضحية والتفاني من أجله.

لا تكن متطفلاً، بل كن حبيباً

قال أحدهم لجنيد البغدادي:

«لقد قلَّت وتضاءلت في هذه الأيام الأخوة الحقيقية. أين تلك الروابط الأخوية التي كانت تنشأ في سبيل الله ﷻ؟!».

فأجابه جنيد البغدادي قائلاً: «إن كنت تبحث عن أحد يلبي حوائجك، ويتحمل همومك ومشاكلك، فإنك لن تجد في هذا



الزمان أخاً كذلك. أما إذا أردت أن تقدم لأحد خدمة في سبيل الله ﷻ، وتلبي حوائجه وتخفف عنه همومه وتجد الحلول لمشاكله، فهناك الكثير من الإخوة كذلك».

وكما ورد في الحديث الشريف عن سيدنا محمد ﷺ أنه قال: "الْمُؤْمِنُ مُؤْلَفٌ وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ". (مسند أحمد، ٢، ٤٠٠؛ ٥، ٣٣٥؛ الحاكم، ١، ٧٣/ ٥٩)

لذا فإن أول شرط للألفة مع أخيك في الدين هو ترك الكلفة، أي أن تتجنب التثاقل على أخيك المسلم في غير اللزوم، بل وتحاول أن تخفف عنه همومه وأعباءه. وإن ألفة من ليس له كلفة (أي صداقته المخلصة)، وحب من لم يكن غليظا وفظا، تكون دائمةً.

وهناك بعض الشروط والواجبات يجب أن نتقيد بها في خصوص الأخوة في الإسلام. والتقيد بتلك الشروط والواجبات إنما هو حق إخواننا في الدين علينا. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "**حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ**"

قِيلَ مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ:

"**إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَسَمِّتْهُ وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ**"

(مسلم، السلام، ٥)



وورد في حديث شريف آخر أن النبي ﷺ قال:

"أفشوا السلام وأطعموا الطعام وكونوا إخوانا كما أمركم الله ﷻ" (ابن ماجة، الأطعمة، ١)

ويجب علينا في حقوق الأخوة أن نتميز بأفق واسع. لأن مستوانا في الأخوة يعكس مستوى النضوج القلبي والمعنوي لدينا. فعلى هذا الأساس فهناك مرحلتان هامتانِ جدا في الأخوة في الإسلام:

١- المرحلة الأولى في الأخوة هي أن يقوم المؤمن الذي بسط الله ﷻ له في حاله بتقديم المساعدة لمن قصده من إخوانه المسلمين. وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص، ٧٧)

٢- أما المرحلة الثانية في الأخوة: هي محاولة المؤمن قضاء حوائج أخيه المسلم الذي وقع في مأزق وساءت حاله. وأن يفعل ذلك دون أن ينتظر أخاه المسلم أن يطلب مساعدته أويقصده في حاجة. آملا بذلك الوصول إلى سر الآية الكريمة:

﴿لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة، ٢٧٣)



حيث أن هذه الآية الكريمة تحثنا على المحاولة للوصول إلى مستوى رفيع من رقة القلب، ورهف في الإحساس، لكي نعرف الناس من وجوههم، فنلاحظ وضع إخواننا المسلمين الذين يخجلون من ذكر حوائجهم ومتطلباتهم الضرورية، لعفتهم وعزة نفوسهم. وهذا هو الأفق الرفيع والعظيم للأخوة في الإسلام.

وقد أنشأ أجدادنا العثمانيون أماكن لتقديم الخدمات للفقراء والمساكين وطلبة العلم والمسافرين. حيث كانوا يقدمون الطعام للمسافرين دون الإهتمام بمن كان ذلك المسافر أو ماذا يعمل. وكان بإمكان جميع المسافرين البقاء لمدة ثلاثة أيام. وعند رحيلهم كانوا يعطونهم أحذية إذا كانت أحذيتهم قديمة.

وكان الأغنياء يتجولون في السجون، باحثين عن من سجن بسبب دين لم يستطع إيفاءه. فيدفعون عنه دينه ويخلصونه من ذلك السجن.

وكان بعض الأغنياء يذهب إلى الدكاكين والمحلات التجارية، ويطلبون من البائع فتح صفحة من دفتر الديون، ويدفعون الدين دون أن يعرفوا صاحبه. كما هو الحال في صناديق الصدقة التي انتشرت في ذلك الزمن، وبواسطتها كان معطي الصدقة لا يرى آخذها، ولا يرى آخذها معطيها. وبذلك كانوا يعيشون في جوالأخوة الحقيقية راجين نيل رضا الله ﷻ فقط.

وهكذا ربطت الجمعيات الخيرية ومؤسسات الرعاية الإجتماعية والأوقاف في الدولة العثمانية كل طبقات المجتمع بنسيج الرحمة والحنان والرقة. وذلك هي ثمرة إدراك واستيعاب مفهوم الأخوة في الإسلام إدراكاً جيداً.



وحسب ما ورد في الإحصائيات الرسمية أنه كان يوجد أكثر من ست وعشرين ألف مؤسسة خيرية في الدولة العثمانية. وذلك ما يدل على غيرة أجدادنا الدينية واهتمامهم البالغ بموضوع الأخوة في الإسلام.

ومن هذه الأوقاف والمؤسسات الخيرية ما يلفت الإِنتباه المؤسسة الخيرية التي أنشأتها (بزم عالم والدة سلطان) في مدينة دمشق. وكان مجال فعاليات هذه المؤسسة الخيرية هو تقديم المساعدات للخدم في دفع ثمن الأشياء الباهظة والقيمة الموجودة في القصور إذا تسببوا في كسرها أو تخريبها. ولذلك لكي لا يفقد هؤلاء الخدم عزة نفوسهم ومكانتهم الاجتماعية بين الناس.

وإن اهتمام أجدادنا الواضح بموضوع الأخوة في الإسلام، نابع من الشعور الصادق بالإيمان. وقد وصل ذلك الشعور إلى أعلى المراتب وأرفعها لدرجة أنه يستحيل على المجتمعات المثالية في الوقت الحاضر الوصول إليه، أوحتى الحلم بذلك.

٣- والمرحلة الثالثة في الأخوة هي البر، أي أن يحب الشخص لأخيه ما يحبه لنفسه. وأن يطلب ويتمنى له ما يريده لنفسه، دون أيِّ تمييز أوتفريق. وكما ورد في الحديث الشريف عن النبي ﷺ أنه قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" (البخاري، الإيمان، ٧).

وقد عرض سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه أفضل مثال عن هذه المرحلة من مراحل الأخوة في الإسلام. حيث أنه اشترى بئر الرمة وجعله وقفاً يستفيد منه الناس، في وقت كانت تعاني فيه المدينة



المنورة من الجفاف وقلة المياه. وحسب ما ورد في الروايات أنه كان يقف في الدور الذي كان يقف الناس فيه، وينتظر معهم ليأخذ الماء.

وقد تجلت عند أجدادنا العثمانيين أسمى وأرقى قيم وعادات الحرص على الأخوة والحث على القيام بها ضمن مجموعة من الأخلاق الحميدة كاللطافة والرقة في الإحساس والمشاعر، وتفكير الأخ براحة أخيه في الإسلام. حيث أنهم كانوا في حالة وجود مريض في بيت من البيوت، كانوا يضعون وردة حمراء على نافذته لكي يعرف المارون بجانب البيت بوجوده. فلا يزعجه أحد. وكان الباعة المتجولون وأولاد الحي يتصرفون على هذا الأساس أيضا، فيتجنبون التصرفات التي تسبب الإزعاج للمريض.

٤- أما أعلى مرتبة في الأخوة في الإسلام هي مقام الإيثار. التي تجعل المؤمن يفضل أخاه المسلم على نفسه، ويتخلى عن حقوقه لأجله، ويجعله في درجة أعلى منه. ويجب على المؤمن عند الضرورة أن يفكر بحاجة أخيه المسلم قبل حاجاته، ولواضطره الأمر أن يحرم نفسه. وهذه هي مرتبة الصديقين والأبرار والصالحين، وهي قمة الحب في الله ﷻ.

وكان سيدنا محمد ﷺ يحرص على أمته وعلى راحتهم، ويفكر بهم أكثر ما يفكر بنفسه. فكان لا يشبع نفسه وعائلته إذا كان أصحابه جائِعين. وكان يتصدق بكل ما يملك للفقراء والمساكين. حيث أن النار كانت لا توقد في بيته لعدة أيام. ولا يطهى طعام، ولا يوجد حتى الخبز.



وفي إحدى المرات كان الصحابي الجليل سيدنا أبوهريرة ﵁ جائعاً. ولم يجد شيئا يأكله، فربط حجراً على بطنه من شدة الجوع. فصادف على هذه الحال سيدنا أبا بكر الصديق ﵁، فسأله سؤالاً عن آية في القرآن الكريم، آملا أن يرى حالته ويطعمه. ولكن سيدنا أبا بكر أجاب على سؤاله وذهب في حال سبيله. ثم جاء سيدنا عمر بن الخطاب ﵁، فتصرف هو أيضا بنفس التصرف الذي بدر عن سيدنا أبي بكر. لأن كِلَيْهما لم يكن بوسعهما آنذاك أن يطعماه.

ثم جاء سيدنا محمد ﷺ ورأى سيدنا أبا هريرة ﵁ على ذلك الحال، ففهم وضعه وماذا كان يدور في ذهنه من وجهه. فدعاه إلى بيته. وأرسل في تلك الأثناء أحدهم وعاء من الحليب إلى بيت النبي ﷺ. ففرح سيدنا أبوهريرة كثيراً لرؤية ذلك الوعاء. ولكن النبي الأكرم عليه الصلاة والسلام أمره بأن ينادي أهل الصفة.

وكان أهل الصفة ضيوفا للإسلام، فلم يكن لديهم عائلة يلجؤون إليها. أو مال أو أحد يستعينون به. وكان عليه الصلاة والسلام إذا جاءته صدقة أرسلها إليهم مباشرة، دون أن يأخذ أي شيء منها لنفسه. أما إذا جاءته هدية، فكان يأخذ جُزءً منها ويرسل ما تبقى إليهم.

ولم يسعد سيدنا أبو هريرة كثيراً من دعوة النبي ﷺ لأهل الصفة. لأن الحليب لن يكفي لهم وحدهم، فكيف يشبعون ويزيد الحليب لكي يشرب هونفسه؟. ولكنه ذهب على الفور لدعوتهم، لأنه لا يمكن له أن يعصي أمر النبي، وما عليه إلا الطاعة.



وجاء أهل الصفة، فأمر الرسول الكريم أبا هريرة بأن يقدم لهم الحليب. فشرب الصحابة الكرام، الواحد تلوالآخر حتى شبعوا. وعندما شبع أهل الصفة أخذ سيدنا أبوهريرة الوعاء وأعطاه للنبي ﷺ. فرد الوعاء له وقال: **"اقعد فاشرب"** . فقعدت فشربت فقال **"اشرب"**. فشربت فما زال يقول "اشرب" . حتى قلت لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكا قال **"فَأَرِنِي"**. فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب (البخاري، الرقاق، ١٧)

وهذه قصة مليئة بالعبر والدروس، وقد حدثت في معركة الخندق:

عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما قَالَ لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا فَانْكَفَأْتُ إِلَى امْرَأَتِي فَقُلْتُ هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جِرَابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ فَذَبَحْتُهَا وَطَحَنَتْ الشَّعِيرَ فَفَرَغَتْ إِلَى فَرَاغِي وَقَطَّعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ لَا تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِمَنْ مَعَهُ فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا وَطَحَنَّا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَكَ فَصَاحَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: **"يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا فَحَيَّ هَلًا بِهَلّكُمْ"** فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:**"لَا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ وَلَا تَخْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ"** فَجِئْتُ وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ حَتَّى



جِئْتُ امْرَأَتِي فَقَالَتْ بِكَ وَبِكَ فَقُلْتُ قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتِ فَأَخْرَجَتْ لَهُ عَجِينًا فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ وَبَارَكَ ثُمَّ قَالَ: **"ادْعُ خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعِي وَاقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلَا تُنْزِلُوهَا"** وَهُمْ أَلْفٌ فَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ (انظر: البخاري، المغازي، ٢٩؛ مسلم، الأشربة، ١٤١)

وقد عبّر سيدنا ابن عمر رضي الله عنه عن النضوج القلبي والمعنوي في ذلك العصر، عصر السعادة والهناء، في خصوص تفضيل الأخ المسلم على النفس، والوصول إلى مرتبة قول:« أخي أولا».

فقال رضي الله عنه: «عن ابن عمر قال أتى علينا زمان وما يرى أحد منا أنه أحق بالدينار والدرهم من أخيه المسلم وإنا في زمان الدينار والدرهم أحب الينا من أخينا المسلم» (الهيثمي، ١٠، ٢٨٥).

وذلك الوضع يسوء أكثر في حال فقدان التوازن بين الأمور المادية والمعنوية لصالح الأمور المادية. فيؤدي ذلك إلى الذوبان السريع لمحبة الإيمان، وحدوث انكسارات عميقة في القلوب والأرواح. وذلك ما يؤثر سلبياً في المجتمع وفي المعيشة في ذلك المجتمع براحة وطمأنينة. فكم من المشاكل الإجتماعية، والفتور في العلاقات تغلغل بين الناس نتيجة حسابات صغيرة وبسيطة، وفي سبيل غايات دنيوية قليلة الشأن والقيمة والأهمية.

وتضعف الأخوة نتيجة ذلك الجهل والأنانية وعدم التحلي بالعادات الحميدة التي أمرنا أن نتحلى بها كالبرِّ والإيثار، التي تؤثر



إيجابيا على الناس. مع العلم بأن سيدنا محمداً ﷺ قد أمر المؤمنين بأن يؤسسوا إقليم المحبة المبني على الصدق والإخلاص، بين بعضهم البعض، وذلك بتفضيل إخوانهم المسلمين على أنفسهم.

والمحبة ليست عبارة عن موضوع جاف وعقيم، فلا يمكن الكلام بالمعنى الحقيقي عن المحبة إذا لم يشغل الشخص نفسه وتفكيره بأخيه وبهمومه ومشاكله التي يتعرض لها، وإن لم يتجاوز عن أخطائه ويعفوعنه، بل ويضحي لأجله بنفسه وبإمكانياته.

فعلى هذا الأساس، فلا يمكن الشعور بالأخوة في الإسلام بادعاءات نظرية دون تطبيق. فيجب علينا أن نطبق هذه النظريات على حياتنا الفعلية والعملية. وأن ننشر مظاهر الأخوة والتضحية والتفاني في كل مجالات الحياة. والمؤمنون الحقيقيون الذين استطاعوا تطبيق المحبة الفعلية تجاه إخوانهم المسلمين، هم المؤمنون الذين استحقوا تبشير سيدنا محمد ﷺ في أن يكونوا إخوة له. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللّٰهِ ﷺ أَتَى الْمَقْبُرَةَ فَقَالَ: «اَلسَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللّٰهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ. وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا» قَالُوا:«أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللّٰهِ؟» قَالَ:«أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ»(مسلم، الطهارة، ٣٩، الفضائل، ٢٦).

لذا فمن الضروري أن نقوم بخدمة إخواننا المسلمين، وأن نشغل أنفسنا بهموم الأمة ومشاكلها. لكي نكون لائقين لحب الله

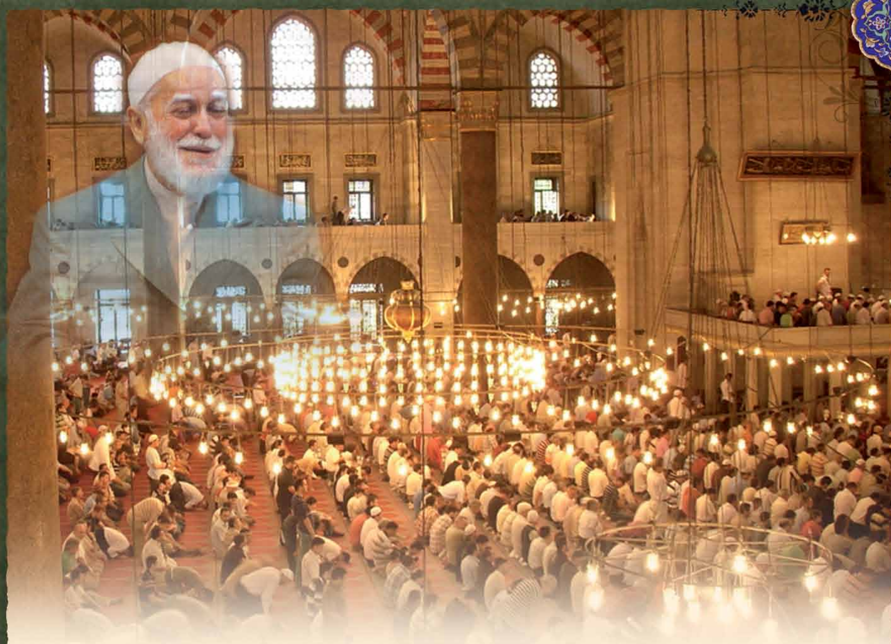


ﷻ وحب رسوله الكريم محمد ﷺ، ولائقين بقوله«إخوتي». لأن تقديم الخدمة لعبد من عباد الله، إنما هي تقديم الخدمة لله تعالى، وتقديم الخدمة للأمة الإسلامية، هي تقديم الخدمة للرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام.

اللهم اجعلنا ممن يحرص على حقوق الأخوة حرصاً جيداً، لكي نكون من عبادك المحظوظين الذين حصلوا على بطاقة الإعفاء من هذه المسؤولية. واملأ اللهم قلوبنا وصدورنا بروحانيات الأخوة ودروسها المعنوية...آمـــين







إحياء الأخوة

لقد أمر الله ﷻ عباده المؤمنين بأن يكونوا كاليدين اللتين تغسل كل واحدة الأخرى. والمقصود من ذلك هو أن يتجاوز المؤمن عن أخطاء أخيه المسلم، وأن يعفو عنه ويصفح، وأن يقاسمه أفراحه وأحزانه، وأن يكون شريكاً له في همومه، وأن يكون له من الناصحين. وبذلك يكون كاليد التي تغسل اليد الأخرى وتنظفها من الأوساخ. فيرغب دائماً في أن يكون أخاه أنظف منه، وأفضل وأعلى شأناً.

إحياء الأخوة

لقد أعلن الله ﷻ المؤمنين على أنهم إخوة. وأرسل سيدنا محمداً ﷺ كنموذج لنا يعلمنا ويبين لنا شروط الأخوة في الإسلام وحقوقها وواجباتها. وجعل الصحابة الكرام رضي الله عنهم وعباده الصالحين والأولياء قمة في الأخلاق الحميدة والقيم التي تعكس مشاعر الأخوة وروحها المعنوية. ومن أهم واجبات المؤمنين هي المحافظة على هذه النعمة التي هي بمثابة مخزن للسعادة وهبها الله جل جلاله للمؤمنين فقط في الحياة الدنيا. فإن لم يحافظوا عليها ولم يهتموا بها فسوف تضيع وتفنى مع مرور الزمن. لأن الأشياء القيمة التي لا يتم الحفاظ عليها ورعايتها كما يجب، تضيع وتفنى وتفقد قيمتها.

والحفاظ على مخزن الأخوة وجوهرها، متعلق بالشعور بالمسؤولية، وممارستها ضمن مشاعر الرحمة والعطف ورقة الإحساس. والإهمال والغفلة في هذا الخصوص يفسحان للشيطان مجالاً لكي يبعد المؤمنين عن بعضهم ويفرق صفوفهم، ويدخل العداوة بين بعضهم البعض والمشاكل الدنيوية فيما بينهم. ولن يتأخر الشيطان الرجيم – لعنة الله عليه – لحظة واحدة في القيام بذلك إذا وجد الفرصة المناسبة.



الحث على سعادة اصلاح ذات البين

يعد تخاصم المؤمنين وابتعادهم عن بعضهم البعض، واستمرارهم على التخاصم، جرماً كبيراً في نظر الإسلام. وقد حذرنا سيدنا محمد ﷺ في هذا الخصوص، وكما ورد في الحديث الشريف أنه قال:

"مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَفْكِ دَمِهِ" (أبي داود، الأدب، ٧ / ٤٩١٥)

وورد في حديث شريف آخر:

"لاَ يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَهْجُرَ مُؤْمِنًا فَوْقَ ثَلاَثٍ فَإِنْ مَرَّتْ بِهِ ثَلاَثٌ فَلْيَلْقَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ فَإِنْ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلاَمَ فَقَدِ اشْتَرَكَا فِى الأَجْرِ وَإِنْ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ بَاءَ بِالإِثْمِ" (أبي داود، الأدب، ٤٧/ ٤٩١٢)

وورد أيضا في حديث شريف آخر:

"لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا " (مسلم، البر، ٣٠)

وحسب ما بين لنا رسول الله ﷺ، فإن الأعمال التي يقوم بها العباد تعرض على الله ﷻ في يومي الإثنين والخميس. فيغفر لجميع العباد إلا لمن أشرك، ولمن كان بينه وبين أخيه المسلم عداوة. وينبه الملائكة قائلا:« **اركوا هذين حتى يصطلحا اركوا هذين حتى يصطلحا**». (مسلم، البر، ٣٥-٣٦؛ أبي داود، الأدب، ٤٧)



وسعي المسلم في إلحاق الضرر بالأخوة الدينية هو ضعف شديد في الإيمان، يجعل صاحبها محروماً من رحمة الله ﷻ التي وسعت كل شيء.

وكما ورد في الآيات الكريمة:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات، ١٠).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال، ١)

وقد أمر المؤمنون المتخاصمون بشكل واضح في الآيات الكريمة بأن يصلحوا بين أنفسهم ولا يستمروا على التخاصم. أي أن الأخوة في الإسلام تتوجب على المؤمنين أن يتركوا الجدل والنقاش والإصرار على قول: «أنا محق، وأنت لست على حق». وأن ينسوا الخصومات الماضية، ويصلوا بذلك إلى مرتبة فضيلة العفوعن بعضهم البعض ولواضطرهم الأمر أن يضحوا بأنفسهم، وبحقوقهم. لأن الإصرار على التخاصم هومعصية لله ﷻ. والمؤمن الحقيقي لا يعصي ربه بشكل متعمد، مهما كانت الظروف والشروط.

وقد بين سيدنا محمد ﷺ علاقة الأخوة بالإيمان، كما ورد في الحديث الشريف:

"لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم" (مسلم، الإيمان، ٩٣)



لذا فأن الإهتمام بالحفاظ على الأخوة الإسلامية وعدم فسح المجال للخصومات بأن تدخل بين الأخ وأخيه، هي ضرورة من ضروريات الإيمان.

قال الأحنف بن قيس:

«الإخاء جوهرة رقيقة إن لم تحرسها كانت معرضة للآفات فاحرسها بالكظم حتى تعتذر إلى من ظلمك وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك الفضل ولا من أخيك التقصير» (الإحياء، ٢، ١٨٨).

وكما ورد في الآية الكريمة في وصف المؤمنين أهل التقوى والصلاح، حيث قال الله ﷻ:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران، ١٣٤)

وقد أشار سيدنا جلال الدين الرومي إلى ضرورة عفوالمؤمنين عن بعضهم البعض وتجاوزهم عن أخطاء إخوانهم والإحسان إليهم، حيث قال:

«إذا رأيت خصلة سيئة في أخيك المسلم، فتذكر أن لديه ألف خصلة حميدة. فالخير هو شفيع ضد الشر».

فإذا بدر خطأ من أخينا المسلم، فبدلاً من أن نغضب ونثور عليه ونخاصمه، يجب علينا أن نتذكر الميزات الحسنة التي يتميز بها. ثم نعفو ونصفح عنه لأجل تلك الصفات الحميدة. ويجب علينا أن لا



ننسى أنه في حاجة ماسة لنا، وخاصة في تلك المواقف العصيبة، فعلينا أن نقف بجانبه ولا نتركه وحيداً مع همومه ونبتعد عنه.

الكره للذنب، والرحمة للمذنب

حسب رواية تروى أنه قيل لشخص بأن يتخلى عن أخيه ويبتعد عنه، لأنه قد ضل طريقه وفقد صوابه، وصار يتصرف بتصرفات لا تليق به. فقال ذلك الشخص:

«هل من المعقول أن أتركه؟. إنه بحاجة لي خاصة في تلك اللحظات أكثر من أي وقت آخر. فهل من الصواب أن أتركه وأبتعد عنه في يوم كهذا؟. إنني سأقدم له الآن النصائح، وأدعوالله ﷻ بأن يعفوعنه».

وفي إحدى المرات ارتكب أحد طلبة سيدنا جنيد البغدادي خطأً. فخجل كثيراً من مواجهة الناس على هذا الوضع فهرب من بيت العلم الذي كان يتلقى فيه تعليمه الديني. وبعد فترة وبينما كان جنيد البغدادي يتجول في السوق مع أصحابه، وقع نظره على ذلك التلميذ الذي كان قلبه قد تحول إلى مكان مهجور. وعندما رأى التلميذ أستاذه ابتعد عنه مباشرة وبدأ بالهروب. فأحس سيدنا جنيد البغدادي بالوضع فقال لأصحابه: «ارجعوا أنتم، فإني قد رأيت عصفورا صغيرا قد هرب من عشي». وشرع في ملاحقة ذلك التلميذ. وعندما نظر التلميذ خلفه ووجد أن أستاذه يلاحقه، فحاول أن يسرع ويقصر خطاه. فدخل في تلك الأثناء إلى زقاق مسدود، واصطدم رأسه بالجدار نتيجة الخوف والتوتر من خجله من أستاذه.



وبدأ وجهه يتحول من لون لآخر عندما وقف أمام أستاذه وجها لوجه. فقال له جنيد البغدادي بصوت حنون مليء بالشفقة والرأفة:

«يا بني.. إلى أين تذهب؟ وممن تهرب؟. إن مساندة أستاذ لتلميذه ووقوفه بجانبه ضروري في مثل هذه الأوقات العصيبة والمشكلة». واصطحبه إلى المدرسة بعد أن طمأنه و أراح قلبه.

إن الأخوة في الإسلام هي كالأخوة في النسب، بل وأعلى شأناً منها. فكما أنه لا يجوز للإنسان أن يترك أخاه ويبتعد عنه وينساه إذا أخطأ وفقد صوابه وانجرف وراء الملذات والمعاصي، فأنه ليس من المناسب أيضاً أن يتخلى عن أحد اتخذه أخا له في الدين، نتيجة خطأ أو ذنب ارتكبه. بل الصواب هو أن يساند من وقع ويساعده على القيام والوقوف على قدميه. وكما ورد في الآية الكريمة أن الله ﷻ قال لسيدنا محمد ﷺ عن أقربائه:

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (الشعراء، ٢١٦)

فلاحِظ أن الله ﷻ قد أمر نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام بأن يقول (إني بريئ مما تعملون)، وليس بأن يقول (إني بريء منكم). أي أنه يجب أن لا ندع أقرباءنا ينالون جزءً من الكُرْه الذي نشعر به تجاه المعصية التي يقومون بها.

ويجب على المؤمن أن يتجنب التكلم عن مواضيع لا يحبها أخوه المسلم، إن كان في حضوره أو في غيابه. إلا في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فلا مجال للسكوت والصمت في هذه المواضيع.



أي أنه من الواجب علينا تقديم النصيحة للأخ المسلم عند الضرورة، ولكن بأسلوب مناسب لا يؤذيه أو يحرجه، وعندما يكون لوحده بعيدا عن الناس. فلا يُنظر في هذا الحال إلى مغزى الموضوع إن كان الشخص يحب التكلم فيه أو لا يحب. لأن هذه النصائح والتنبيهات هي من صالحه ولنفعه، ولو أنها تبدو ظاهريا أنها تحرجه وتجرح مشاعره وتؤذيه.

وفي مرة من المرات سافر سيدنا عبد الله بن المبارك الذي يعد أحد أولياء الحق ﷻ، مع رجل سيئ الأخلاق. وعندما انتهى طريق السفر وافترقا، بدأ سيدنا عبد الله بن المبارك بالبكاء الشديد. فسأله أصحابه الذين عجبوا لأمره عن سبب بكائه. فتنفس ذلك الرجل المبارك صاحب الروح اللطيفة والحساسة، تنفس الصعداء وأجابهم بعيون دامعة:

«لم أستطع أن أغير من الأخلاق السيئة التي تميز بها صديق السفر الذي قدمت معه، مع أنني قضيت معه طوال تلك الفترة في الطريق. ولم أستطع أن أجمل صفات ذلك الرجل المسكين. فإني أفكر!! هل قصرت بشيء، لذا لم أستطع أن أكون مفيدا له؟. فإذا لم يهتدِ ويستقم بسبب خطأ ارتكبته أو تقصير مني، فكيف يكون حالي في يوم الحساب؟».

واستمر على البكاء الشديد بمشاعر قوية نابعة من قلبه.

وكما ورد في الحديث الشريف أن سيدنا محمداً ﷺ قال:

"مثل المؤمنين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى"

(السيوطي، جامع الأحاديث، ٢١٠٢٨)



فقد أمر الله ﷻ عباده المؤمنين بأن يكونوا كاليدين اللتين تغسل كل واحدة الأخرى. والمقصود من ذلك هو أن يتجاوز المؤمن عن أخطاء أخيه المسلم، وأن يعفو عنه ويصفح، وأن يقاسمه أفراحه وأحزانه، وأن يكون شريكاً له في همومه، وأن يكون له من الناصحين. وبذلك يكون كاليد التي تغسل اليد الأخرى وتنظفها من الأوساخ. فيرغب دائماً في أن يكون أخوه أنظف منه، وأفضل وأعلى شأناً.

بالإضافة إلى أن يتصرفوا بحسن الظن عندما يواجهون خطأ بدر عن إخوانهم المسلمين، بدلاً من أن يفكروا بشكل سلبي، ويتخذوا القرارات الخاطئة المبنية على التسرع. لأن التأني في مثل هذه المواضيع ومحاولة البحث عن عذر للأخ المسلم يفسر التصرف الذي بدر عنه، إنما هو من آداب الأخوة في الإسلام ومن واجباتها. فعلى المؤمن أن يفكر دائماً بشكل إيجابي تجاه إخوته المسلمين، وأن لا يستحقرهم أبداً. بل يجب عليه أن يعتقد ويؤمن بأن إخوته المسلمين هم أقرب لله ﷻ منه.

العنصر الأساسي للاتحاد والتضامن هي: الأخوة الإسلامية

لقد احتضن سيدنا محمد ﷺ جميع المسلمين برحمة مستمدة من الرحمة الإلهية والعطف والحنان، كفصل الربيع. وقد أصلح بين القبائل العربية المختصمة والمعادية لبعضها البعض عداوة الدم والثأر، ودمجهم بالمحبة في مناخ الأخوة الذي لا مثيل له.



وورد في الآية الكريمة في هذا الخصوص قول الله ﷻ:

﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران، ١٠٣)

وقد عبر سيدنا جلال الدين الرومي عن الأخوة بأسلوب جميل ومليء بالحكم والعبر، حيث قال:

«قال سيدنا محمد ﷺ فيما معناه:"إن المسلمين كالروح الواحدة". فبذلك وبفضل الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام أصبح المسلمون روحاً واحدة، وإلا لكان كل مسلم عدواً لدوداً للمسلمين الآخرين. وكان في المدينة المنورة قبيلتان تدعيان (الأوس) و(الخزرج). وكانت عداوة هاتين القبيلتين شديدة وعظيمة لدرجة أنهم كانوا يريدون أن يشربوا من دم بعضهم. فبفضل سيدنا محمد ﷺ، وبنور الإسلام وبركته تلاشت واختفت عداوتهم القديمة. فكان هؤلاء الناس المتخاصمين سابقاً كحبات العنب المتدلية في العناقيد. ولكن عندما نزلت الآية الكريمة: ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾، فبفضل تلك الآية أصبحوا كعصير العنب الذي تشكل من عصر تلك الحبات، الواحدة تلوالأخرى. فاجتمعوا بالمعنى الصحيح برابطة الأخوة، وصاروا إخوة في الدين».



وكانت بداية العرب في عهد الجاهلية عبارة عن بحيرة من الدم نتيجة الجهل والظلم والبغي وانتهاك حقوق الآخرين والسطو، وحوادث الثأر والإنتقام. فجاء الإسلام وانتشر في تلك الصحاري الجرداء فتحولت بنوره وبركته إلى جنات جميلة، تجسد الحب والإحترام المتبادل بين الناس في كافة طبقات المجتمع. والأخوة الإسلامية التي انتقلت إلينا من ذلك العصر كميراث مقدس، ما هي إلا بركة ذلك عصر السعادة ذاك، الذي عاش فيه النبي الكريم محمد ﷺ مع أصحابه الكرام رضي الله عنهم.

فبفضل تلك الأخوة الإسلامية عاش المسلمون على مر العصور والأزمان بسكينة وطمأنينة الإسلام، والشعور بالتوحد والتضامن والتماسك، على الرغم من العصبيات القبلية والقوميات والمذاهب والأنساب المختلفة، وعلى الرغم من الأفكار والآراء والسياسات المتضادة. وإنه من المؤلم والمحزن أن يفقد المسلمون هذه الطمأنينة والرخاء، فإن ذلك يؤثر سلبياً على الأفراد والجماعات ككل. فالحل الوحيد لمشاكل التنازع السياسي على الحكم والرئاسة والمناصب العليا، والحل للأنانية والجشع النفسي الذي يقضي على الإتحاد والتضامن إنما هو الأخوة الإسلامية. حيث تزول بوجود هذا المفهوم العادات السيئة كالأنانية والكره والبغض للآخرين.

والأخوة الحقيقية في سبيل الله ﷻ هي كالأجساد المختلفة التي تعيش بقلب واحد. فإن رحمة الله ﷻ وبركاته تتنزل على



الجماعة التي تجمعت فيه. وإن القوة والتوفيق هما نتيجتان عن الإتحاد والتماسك والتضامن.

وهذه القصة الشهيرة تعبر عن الأخوة التي يجب على المسلمين أن يتقيدوا بها:

كان أحد الأشخاص الذي زكّى نفسه من شهوات الدنيا وكان من أصحاب الحكمة وهو على فراش الموت، فطلب من أولاده أن يحضروا عيدانا من أغصان الشجر. فأخذ العيدان التي أحضرها أولاده وجمعها في باقة واحدة وحزمها ثم أعطاها لأولاده وقال لهم:

«هيا اكسروا هذه الباقة من العيدان». وعندما لم يستطيعوا كسرها قال لهم:

«أما الآن فكل منكم يأخذ عوداً، لنرى هل سيستطيع كل منكم كسر عوده؟».

فأخذ كل منهم عوداً وكسره. فقال لهم ذلك الرجل المبارك:

«يا أولادي.. أنتم بعد موتي كهذه العيدان. فإذا كنتم مجتمعين ومتحدين فلن يستطيع أحد أن ينال منكم ويتغلب عليكم. أما إذا تفرقتم وذهب كل منكم إلى حال سبيله فسوف تنكسر شوكتكم وستهزمون مباشرة». وطلب من أولاده أن يبقوا طوال حياتهم كالجسد الواحد.

وقد مدح الله ﷻ المؤمنين الذين اجتمعوا على المحبة، ووقفوا بجانب بعضهم البعض، وتغلبوا على مشاكلهم وتخلصوا



منها سوية. حيث ورد في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف، ٤)

وأمر رسول الله ﷺ المؤمنين بأن عليهم أن يكونوا كالجسد الواحد والقلب الواحد. فكما ورد في الحديث الشريف:

"إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا". وشبك أصابعه (البخاري، الصلاة، ٨٨؛ مسلم، البر، ٦٥)

وقال سيدنا جلال الدين الرومي أحد أولياء الحق ﷻ:

«إن أصحاب الكرم وإن كانوا ألف شخص، فإنهم ليسوا بأكثر من شخص واحد».

هَم المسلم لهَمِ أخيه المسلم

وبسبب اتحاد القلوب هذا، يرتبط المؤمنون الحقيقيون ببعضهم البعض ارتباطاً وثيقاً وجدياً. فيفرحون لفرح إخوانهم المسلمين، ويحزنون لحزنهم. وقد عبر سيدنا محمد ﷺ عن ذلك بالتشبيه التالي كما ورد في الحديث الشريف:

"تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى" (البخاري، الأدب، ٢٧؛ مسلم، البر، ٦٦)

فَحُزن المسلم على حُزنِ أخيه المسلم، ومحاولته البحث عن حلول لإسعاده وإدخال الفرحة والسرور في قلبه، إنما هي عبادة اجتماعية توصل الشخص إلى نيل رضاء الله ﷻ. أما الابتعاد عن ذلك فهو أنانية وحب للنفس. فمن هذا المنظور فإن كل مؤمن مجبر على أن يحس في صدره بهموم أخيه المسلم وبأحزانه.

وقال سيدنا أبوالحسن خرقاني في هذا الخصوص:

«إن الشوك الذي يدخل في إصبع أخ مسلم لي في المنطقة الممتدة من تركستان حتى بلاد الشام، كأنما دخلت في إصبعي. والحجر الذي أصاب قدمه كأنه أصاب قدمي وأحس بوجعه. وإن وجد حزن ما في قلب، فإن ذلك القلب هو قلبي».

وذلك هو أفق القلب الذي يجب على المسلمين أن يصلوا إليه ضمن مشاعر الأخوة الحقيقية في الإسلام.

وقد اكّد لنا سيدنا محمد ﷺ لأن تفكير الشخص بنفسه فقط دون أن يفكر بأخيه المسلم، لا يتناسب مع أخلاق الإسلام، كما ورد في الحديث الشريف:

"ليس بالمؤمن الذي يبيت شبعان وجاره جائع إلى جنبه" (الحاكم، ٢، ١٥)

وورد في حديث شريف آخر:

"ومن لم يهتم للمسلمين عامة فليس منهم" (الحاكم، ٤، ٣٥٢؛ الهيثمي، ١، ٨٧)



لذا فإن عدم اهتمام المؤمن بهموم أخيه المسلم وبأحزانه إنما هو ذنب كبير ومعصية. فعن السرِّيُّ السقطيُّ يقول حمدت الله مرة فانا استغفر الله من ذلك الحمد منذ ثلاثين سنة قيل وكيف ذاك قال كان لي دكان وكان فيه متاع فوقع الحريق في سوقنا فقيل لي فخرجت أتعرف خبر دكاني فلقيت رجلا فقال أبشر فان دكانك قد سلم فقلت الحمد لله ثم إني فكرت فرأيتها خطيئة (خطيب البغدادي، التاريخ، ٩، ١٨٨؛ الذهبي، سيَر، ١٢، ١٨٠-١٨٦)

فيا له من أفق معنوي حساس مبني على الأخوة. فبقي ثلاثين عاما يستغفر الله ﷻ على أنه فكر بنفسه فقط دون أن يفكر بإخوانه المسلمين، وبقي بعيدا عن همهم ومأساتهم، مع أن ذلك لم يستمر إلا لحظة واحدة.

وقد قَصّت سيدتنا فاطمة زوجة سيدنا عمر بن عبد العزيز الذي يعتبر خامس الخلفاء الراشدين، قصة عنه تدل على أن روحه قد عجنت بمشاعر الأخوة الإسلامية، التي انعكست على أحواله وتصرفاته. حيث قالت:

(دخلت يوماً عليه وهو جالس في مصلاه واضعا خده على يده ودموعه تسيل على خديه، فقلت: مالك؟ فقال: ويحك يا فاطمة، قد وليت من أمر هذه الامة ما وليت، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، واليتيم المكسور، والارملة الوحيدة والمظلوم المقهور، والغريب والاسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير، والمال القليل، وأشباههم في أقطار الارض وأطراف



البلاد، فعلمت أن ربي عز وجل سيسألني عنهم يوم القيامة، وأن خصمي دونهم محمد صلى الله عليه وسلم، فخشيت أن لا يثبت لي حجة عند خصومته، فرحمت نفسي فبكيت.). (ابن كثير، ٩/ ٢٠١)

ويعبر هذا المثال عن شعور الأخوة الذي يجب على أصحاب المواقع الإدارية والسياسية في بلاد المسلمين، أن يتحلوا به. وعلى المسلمين كأفراد أن يتميزوا بالاتحاد قلبيا مع إخوانهم المسلمين.

كما أن الصحابة الكرام ﷺ كانوا يتحلون بأحسن الصفات وأرفعها في هذا المجال. وهذا مثال يعبر عن هذا الموضوع:

ففي بداية سنوات الإسلام هاجر بعض المسلمين إلى الحبشة، واستقبلوا استقبالا جيدا في تلك البلاد. وبعد فترة من الزمن عادوا إلى مكة المكرمة بناء على أخبار كاذبة بأن مشركي مكة قد دخلوا في الإسلام. وعندما سمع المشركون بأن المسلمين قد استقبلوا استقبالا جيدا في الحبشة، غضبوا كثيرا وخافوا من هذا الوضع. فقرروا أن يزيدوا في شدة أساليب التعذيب الذي سيعذبون به هؤلاء المهاجرين.

وكان عثمان بن مظعون يعيش في حماية قريبه الوليد بن المغيرة براحة واطمئنان. ولكنه لما رأى عثمان ما يلقى رسول الله ﷺ وأصحابه من الأذى، وهو يغدو ويروح بأمان الوليد بن المغيرة قال عثمان: والله إن غدوي ورواحي آمنا بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل بيتي يلقون من البلاء والأذى في الله



عز وجل ما لا يصيبني لنقص كثير في نفسي، فمشى إلى الوليد بن المغيرة وهو في المسجد، فقال: يا أبا عبد شمس وفت ذمتك، قد كنت في جوارك، وقد أحببت أن أخرج منه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولي به وبأصحابه أسوة، قال الوليد: فلعلك يا لبن أخي أوذيت، أو انتهكت؟ فقال: لا ولكني أرضي بجوار الله تعالى ولا أريد أن أستجير بغيره» (ابن إسحاق، السيرة، كونيا، ١٩٨١، ص: ١٥٨؛ الهيثمي، ٦، ٣٤)

وهكذا فقد فضل سيدنا عثمان بن ماز رضي الله عنه أن يكون شريكاً للمؤمنين في همومهم ومصائبهم، على أن يكون في أمان تحت حماية ابن عمه. ولم يرضَ لنفسه العيش الهانئ بينما يعاني أصحابه أشد أنواع الظلم والتعذيب. ولم يكن باستطاعته أن يفعل شيئا، فاشترك مع المسلمين في همومهم ومصائبهم بهذا الشكل فقط. فعلينا نحن في يومنا هذا أن نتفكر ونتأمل بشكل عميق بردود أفعالنا تجاه الظلم والتعذيب الذي يواجهه المسلمون على امتداد الجغرافية الإسلامية. غير مهملين مشاعر الأخوة الإسلامية التي تحلى بها الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأولياء الحق ﷻ تجاه إخوانهم في الإسلام.

الصحابي الجليل الذي خرج من المسجد وهو معتكفٌ

إن المؤمن يبحث في كل زمان ومكان عن وسيلة لإرضاء الله ﷻ. وإن الإهتمام بهموم الإخوة في الدين هو أفضل الوسائل التي توصل العبد لنيل رضاء ربه ﷻ. وكما ورد في الحديث الشريف:



"...الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه" (مسلم، الذكر، ٣٨)

وورد في حديث شريف آخر:

"المسلم أخوالمسلم، لا يظلمه ولا يسلمه. ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته. ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كُرب يوم القيامة. ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة" (البخاري، المظالم، ٣؛ صحيح مسلم، البر، ٥٨).

لذا فعلى كل مسلم أن يحس بهموم أخيه المسلم بقلبه، وأن يسعى بكل ما يملك إلى إيجاد حلول لمشاكله وكربه. ويجب أن لا ننسى أن أكثر شيء يرضي الله ﷻ هو أن يفكر العبد بغيره أكثر ممّا يفكر بنفسه، وأن يفضل راحتهم على راحته وهنائه.

وهذه قصة مليئة بالحكم والمعاني العميقة، وتعبر عن تخلق الصحابة الكرام ﷺ بالأخلاق الحميدة والرفيعة التي تليق بالأخوة في الإسلام، وتميزهم بأعلى وأرقى الصفات الحسنة كالإيثار، وحصولهم على التربية النبوية الشريفة التي أوصلتهم إلى مرتبة قول: "أمتي.. أمتي" ، بدلاً عن قول: "نفسي.. نفسي".

فعَن ابْنِ عَبَّاس، أَنَّهُ كَانَ مُعْتَكِفًا فِي مَسْجِدِ رَسُول الله ﷺ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسَ فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاس: يَا فُلَانُ أَرَاكَ كَئِيبًا حَزِينًا، قَالَ: نَعَمْ يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ الله ﷺ لِفُلَانٍ عَلَيَّ حَقٌّ، لَا وَحُرْمَةِ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ مَا أَقْدرُ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاس: أَفَلَا أُكَلِّمُهُ فِيكَ، قَالَ: إِنْ أَحْبَبْتَ، قَالَ: فَانْتَقلَ ابْنُ عَبَّاسٍ ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ،



فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَنَسِيتُ مَا كُنْتَ فِيهِ قَالَ: لَا وَلَكِنِّي سَمِعْتُ صَاحِبَ هَذَا الْقَبْرِ ﷺ وَالْعَهْدُ بِهِ قَرِيبٌ فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ، وَهُوَ يَقُولُ: **"مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ وَبَلَغَ فِيهَا كَانَ خَيْرًا مِنِ اعْتِكَافِ عَشْرِ سِنِينَ، وَمَنِ اعْتَكَفَ يَوْمًا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ تَعَالَى جَعَلَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ ثَلَاثَ خَنَادِقَ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ"** (البيهقي، الشعب، ٣، ٤٢٤-٤٢٥)

وإن سعي الإنسان لقضاء حاجة من حوائج أخيه المسلم هو عمل قيّم عند الله ﷻ. وقد بشرنا بذلك سيدنا محمد ﷺ، فكما ورد في الحديث الشريف:

"ان لله خلقا خلقهم لحوائج الناس تفزع الناس إليهم في حوائجهم أولئك الآمنون من عذاب الله" (الهيثمي، ٨، ١٩٢)

شهر رمضان المبارك؛ شهر الرحمة الإلهية

إن أيام الشهر الفضيل شهر رمضان المبارك هي نعمة لا مثيل لها من الله ﷻ للناس لإعاشة وتطبيق الأخوة الإسلامية على أحسن الأحوال.

لذا يجب علينا أن نؤدي واجبات الأخوة باهتمام أكبر في هذا الشهر العظيم، الذي تعم فيه الرحمة الإلهية على كل شيء.

وكان أكرم بني البشر سيدنا محمد ﷺ، يصبح في شهر رمضان المبارك أكرم من رياح الرحمة التي تهب بلذة وحنان دون أن يوقفها أي عائق، وكان يزيد من جميع عباداته وإحسانه.



عن أنس قال سئل النبيﷺ أي الصوم أفضل بعد رمضان؟ فقال: شعبان لتعظيم رمضان قيل فأي الصدقة أفضل؟ قال صدقة في رمضان (الترمذي، الزكاة، ٢٨/ ٦٦٣)

لأن شهر رمضان هو شهر الخير واللطف الإلهي تكافأ فيه جميع الأعمال الحسنة والخيّرة بأضعاف مضاعفة من الأجر والثواب. فمن قضى ذلك الشهر بالشكل المطلوب، فقد استحق النعم والثواب بلا حدود، حيث أنه توجد ليلة خير من ألف شهر في هذا الشهر العظيم، إلا وهي ليلة القدر. أما من أهمل هذا الشهر المبارك فيبتلى ببلاء الحرمان من رحمة الله ﷻ وكرمه.

عن كعب بن عجرة قال: قال رسول الله ﷺ: احضروا المنبر فحضرنا فلما ارتقى درجة قال: آمين فلما ارتقى الدرجة الثانية قال: آمين فلما ارتقى الدرجة الثالثة قال: آمين

فلما نزل قلنا يا رسول الله لقد سمعنا منك اليوم شيئا ما كنا نسمعه قال: "إن جبريل عليه الصلاة والسلام عرض لي فقال: بعدا لمن أدرك رمضان فلم يغفر له قلت آمين فلما رقيت الثانية قال بعدا لمن ذكرت عنده فلم يصلي عليك قلت آمين فلما رقيت الثالثة قال بعدا لمن أدرك أبواه الكبر عنده فلم يدخلاه الجنة قلت آمين" (الحاكم، ٤، ١٧٠/ ٧٢٥٦؛ الترمذي، الدعوات، ١٠٠/ ٣٥٤٥)

فبما أن المطر الذي يهطل على البحار والأشجار والأحجار في شهر نيسان هو مطر بدون أي فائدة للتراب وللخضرة، لذا فعلينا



أن نستفيد من مطر الغفران الذي لا يهطل إلا في شهر رمضان. لكي نصل إلى لبه وجوهره. وعلينا أن نستوعب حقيقة أن هذا الشهر المبارك هو فرصة لنا لدفع كفارة أخطائنا وتعويض ما خسرناه وفقدناه خلال سنة كاملة. وعلينا أن نحاول بشكل جدي أن نستفيد من فضائل هذا الموسم، موسم المغفرة والرحمة.

وقد ترك لنا أجدادنا العثمانيون ذكريات لا مثيل لها في هذا الخصوص. فكانوا يفتحون بيوتهم وقلوبهم وخاصة في شهر رمضان المبارك للمساكين والأيتام وأولاد السبيل والأرامل والفقراء والمحتاجين في أحيائهم، ويقدمون لهم أشهى المأكولات لكي يفطروا. وبعد الإفطار كانوا يقدمون لهم هدية تحت اسم (أجرة السن)[٢]، بطريقة لطيفة ولبقة لا مثيل لها. وبذلك كانوا يزيدون على الإكرام إكراما .

وكانوا يقدمون العصير المصنوع من أرقى وأفخم أنواع العسل على المصلين بعد صلاة التراويح في ساحات المساجد. وكانوا شركاء للمهمومين في همومهم، ومصدر الترويح عن النفس لمن

٢. أجرة السن: هي عادة حسنة من عادات العثمانيين الذين كانوا يطبقونها في فترة الإفطار في شهر رمضان المبارك. فكان صاحب البيت الذي قام بدعوة الناس لتناول طعام الإفطار، بعد أن يفطّر الصائمين يعطيهم نقودا أوهدية عند ذهابهم. لأنهم كانوا وسيلة له في كسب الأجر والثواب. فسميت هذه العادة اللطيفة بـ (أجرة السن). والمغزى منها هو إدخال الفرحة والسرور على قلوب الفقراء والمحتاجين دون إحراجهم أواستصغارهم أوإذلالهم.



كان حزيناً، وذلك بالصدقات وبزكاة الفطر التي كانوا يعطونها. وكانوا يعتبرون أن الأعياد والمناسبات الدينية هي فرصة لهم لكي يصلحوا بين المتخاصمين. وبذلك نجحوا في وصل طبقات المجتمع كلها ببعضها البعض بمشاعر الحب والإحترام المتبادل والمبني على مصطلح الأخوة في الإسلام.

فطوبى لمن أحيا شهر رمضان بأفضل العبادات والعادات والتقاليد الإسلامية، وحصل على وثيقة العفوالإلهي من الذنوب والخطايا والسيئات. لكي يصل مع انتهاء هذا الشهر المبارك إلى العيد الحقيقي. وطوبى لمن اعتبر كل ليلة من لياليه ليلة القدر، وسعى في تقييم جميع فرص الكسب الأبدي لكي يقابل ربه ﷻ بوجه كريم.

اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين الذين يعيشون الأخوة الإسلامية بالمشاعر الإيمانية الصادقة.

واجعلنا اللهم نحيي حياتنا بالأعمال الخيّرة التي توصلنا إلى نيل رضاك ما حيينا.

وأوصلنا اللهم إلى العيد الأبدي بلطفك وكرمك ورحمتك يا أرحم الراحمين...آمـين





الحب والبغض في الله عزّ وجلّ

إن من يبقى بعيداً عن دلالة الإيمان، ولا يدري في أي اتجاه يوجه حبه، إنما هو كالسفينة التي كسر مقودها في وسط المحيط.

والحب الذي لا يجد من يستحقه هو إسراف حزين للحياة الفانية.

والحب الذي حكم عليه أن يكون تحت رحمة المنفعة والإبتذال هو كالوردة التي تفتحت على الرصيف في جانب الطريق، وقدَرها أن تُسحق وتداس تحت أرجل المارة عاجلا أم آجلا. وكم هو تعيس قدر اللؤلؤة التي رميت في الطريق، وكم هو ضياع حزين للمال في أن يكون بحوزة أحد بلا حق أو لا يستحقّها.

الحب والبغض في الله ﷻ

الحب يتولد عن رؤية المحب ميزاته وخصائصه فيمن يحب. ويحب الله ﷻ عبده بقدر تميزه بالصفات الإلهية. أي أن المؤمن يستحق محبة خالقه ﷻ بقدر ما يتخلق بالأخلاق الحسنة التي أمر المؤمنين أن يتخلقوا بها.

وكل شيء في هذا الكون قائم مع ضده في توازن متناهي الدقة. فبما أن الكره هو مضاد الحب، فكره من لا يحبهم الله ﷻ هو تعبير طبيعي وصريح عن حبه ﷻ.

وقد سلط الله ﷻ كرهه وسخطه على أبي لهب لأنه آذى حبيبه ونبيه سيدنا محمداً ﷺ. فلعنه وأعلن للبشرية بأجمعها كرهه له الشديد بسورة في القرآن الكريم. لذا فيمكننا أن نقول بأن حب شيء دون كره ما عاداه هو حب ناقص وقاصر وأبعد ما يكون عن الإخلاص والصدق والجدية في المشاعر والأحاسيس.

وخالق الحب ومنبعه وبدايته ونهايته هو الله ﷻ. وعلى المؤمن أن يعتبر ويعتقد بأن الحب الفاني للأشياء والأشخاص هو وسيلة للوصول إلى الحب الإلهي. لأن الحب الحقيقي يبدأ بعد تجاوز حدود الحب الفاني الضيقة والمحدودة. وتبقى لذة الحب الفاني والآنية والقصيرة ضامرة أمام لذة الحب الإلهي كضمور ضوء الشمعة أمام نور الشمس الساطعة.



وقال سيدنا جلال الدين الرومي في هذا الخصوص:

«لقد خص الله ﷻ قطرة من الحب الإلهي بخصوصية كبيرة لدرجة أنه من أخذ نصيباً منها فإنه قد تخلص من الخوف في الحياة الدنيا وفي الآخرة معاً».

وإن أولياء الحق ﷻ هم أمثلة ونماذج معبرة عن ذروة الحب الإلهي. والمؤمنون الحقيقيون الذين ذاقوا لذة محبة الله ﷻ التي أحسوا بها تجاهه كما يليق بها، فإنهم يحبون رسوله ﷺ أيضاً، ويحبون من يحبهم عليه الصلاة والسلام. وينتهي ويتلاشى أي حب آخر في قلوبهم.

وإن حب أي شيء في سبيل الله ﷻ يدل على استيعاب وإدراك حقيقة الحب بشكل صحيح. فمثلا أن يحس الإنسان بمشاعر الحب تجاه الأب والأم والعائلة والأولاد والجار والصديق والروح والمال والوطن والعلَم والأهل والأذان والصلاة والعبادات والحيوانات والنباتات وكل شيء، فلو أنها ظاهرياً تبدوعلى أنها بعيدة عن محبة الله ﷻ، ولكنها في الحقيقة هي الوسائل التي توصل الإنسان إلى تلك المحبة العظيمة، وتهب القلب النشوة والطمأنينة والسكينة.

حب الحياة الدنيا الذي يختطف القلوب

إن انجراف الإنسان وراء الأهواء والشهوات الدنيوية، وابتعاده عن القيام بواجباته، وتفضيله الحياة الدنيا على السعادة الأبدية التي وعدها الله ﷻ لعباده الصالحين، إنما هو غفلة وضلال، كما في



القصة التي رواها فريد الدين العطار حيث قال:

كان لحاكم كلب للصيد عزيز على صاحبه ومحبوب من قبله. وفي إحدى رحلات الصيد رأى الكلب قطعة عظم فانشغل بها ونسي صاحبه الحاكم. وإن حال العبد الذي يُفَضّلُ الشهوات والأهواء الدنيوية على السعادة الأبدية هو كحال ذلك الكلب وحماقته. ففي دار الإمتحان الدنيوي يتعرض الإنسان إلى كثير من العظام كما ورد في هذا المثال، وإلى كثير من الملذات الموجودة في نهاية صنارة الصيد.

وقال سيدنا جلال الدين الرومي:

«كم من سمكة تنساب في الماء واثقة من نفسها ولا تهاب شيئا. ولكن بسبب جشع بلعومها فإنها تعلق بصنارة الصيد».

ولا فرق بين هذه السمكة وبين العبد الذي أصبح أسيراً لشهوات نفسه ونسي ربه ﷻ. وإن انجراف الإنسان وراء أهوائه الشخصية وملذاته الدنيوية وفقدانه موقعه الرفيع عند الله ﷻ، إنما هو حماقة كحماقة أن يبيع الشخص مزهرية مرصعة بالألماس واللؤلؤ والمجوهرات النادرة مقابل قطعة من التنك الرخيص. وقد شرح سيدنا جلال الدين الرومي هذا الموضوع بتشبيه بليغ حيث قال: «لا عجب في هرب الخروف من الذئب، لأن الذئب هو عدو الخروف وصياده. أما الأمر الذي يعجب له، هو أن يحب الخروف ذلك الذئب ويفقد السيطرة على نفسه تجاهه».



والمؤمن الحقيقي هو أشرف المخلوقات في الوجود. وعليه أن لا يفقد شرفه وكرامته وعزة نفسه ويعيش حياة الذل والوضاعة والسفالة، عن طريق استخدام رأس مال محبته بشكل خاطئ وأحمق. وعليه أن لا يصغر ويتواضع لدرجة أن يظن أن السعادة الحقيقية هي إشباع أهوائه وغرائزه النفسية والمادية.

وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ (الفرقان، ٤٣)

وورد في الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال:

"ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع" (الهيثمي، ١، ١٨٨)

ويشرح سيدنا ذو النون المصري طريقة استخدام الحب والبغض بشكل صحيح كما يلي: «يجب علينا أن نكون أصحاباً لله ﷻ، وأعداء للنفس، لا أن نكون أصحاباً للنفس وأعداء لله».

أي أنه يجب علينا أن نتخلص من أسر النفوس لكي نكون أصحاباً لله ﷻ. وبعبارة أخرى؛ يجب علينا أن لا ندع الشهوات النفسية تتغلب علينا لكي نصل إلى مرتبة تمكننا أن نكون أصحاباً لله ﷻ.

ولكن من يبقى بعيداً عن دلالة الإيمان، ولا يدري في أي اتجاه يوجه حبه، إنما هو كالسفينة التي كسر مقودها في وسط المحيط. فتجره الأهواء النفسية والشهوات خلفها كما تشاء.وتوصل العقل والقلب والضمير إلى الضمور والتلاشي.



لأن القلب الذي لم ينشغل بالله ﷻ وبذكره، ينشغل بالباطل. ولا يبقى في القلب الذي أسر من قبل الحب السفلي الوضيع أي نشوة أوطمأنينة، فيكون كالدولة التي وقعت أسيرة بين يدي الأعداء.

والحب الذي لا يناسب عزة الإسلام ولا يتوافق معها يدفع الإنسان إلى محاربة نفسه بنفسه. ويؤدي ذلك إلى تأذي إيمانه، بل ويؤدي أيضاً إلى غوصه في مستنقع الإنكار والإلحاد والشرك. فكما أننا نحرص على أن لا ندخل لقمة من الكسب الحرام إلى بطوننا، فعلينا أن نحرص نفس الحرص بالنسبة لإدخال الحب إلى قلوبنا. فعلينا أن لا ندخل حباً غير لائق بعزة الإيمان وكرامته إلى قلوبنا. ولكي نحافظ على الحب الصادق تجاه الإيمان فعلينا أن نعود قلوبنا على الحب لمن يليق به، والكره لمن يستحق.

الحب لمن يليق به، والبغض لمن يستحق

إن مشاعر الحب والبغض التي نشعر بها، إن لم تكن في سبيل الله ﷻ، فلا نحب من يحبه ولا نبغض من يبغضه، فإن ذلك يعني كارثة معنوية كبيرة. فيجب علينا أن نوجه حبنا لمن يليق به، ونسلط كرهنا لمن يستحقه. وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة، ١١٩)

لأن الصالحين يقومون دائما بنشر الروحانية والفائدة المعنوية والطاقة الإيجابية لمن حولهم من الناس. والعكس أيضا صحيح،



فحب الفاسقين وأعداء الدين يتسبب في حدوث الكوارث المعنوية.

وكما ورد في الآية الكريمة أيضاً:

﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ (الأنعام، ٦٨)

وإن إعجابنا وإطراءنا على أي عمل قام به عدو للدين بقولنا: «ما أجمل هذا العمل»، ولو كان مجرد جدار قد بناه، فإن ذلك أيضا يؤثر تأثيراً سلبياً في القلوب. لأن الإعجاب بفعله وعمله يرفع من شأنه وشأن أعداء الدين الآخرين ويعلي مقامهم. وهذا الوضع الذي يوصل كرامة الإسلام وهويته الرفيعة والعزيزة إلى الضعف والهوان، إنما هو امتحان صعب يمتحن الله ﷻ به المؤمنين الذين قد غفلوا عن بعض الحقائق الإسلامية.

لذا فيجب علينا أن نتخذ من تاريخنا المجيد، تاريخ الدولة العثمانية، السلطان بيازيد الثاني قدوة لنا بما تميز به من حكمة وفراسة في هذا الخصوص. حيث كان عصر بيازيد الثاني هو عصر الثقافة والحضارة والرقي حيث كان سبباً في وضع الحجر الأساسي للحضارة الإسلامية. فأرسل له المهندس المعماري والرسام الإيطالي الشهير ليوناردو دافنشي رسالة طلب فيها أن يقوم بنفسه بقيادة مشاريع ومخططات المساجد والجوامع وجميع المباني في مدينة اسطنبول. فأفرح هذا الخبر وزراء الدولة العثمانية وأسعدهم



كثيراً. أما السلطان بيازيد فرفض هذا العرض قائلاً: «إذا قبلنا هذا العرض فسيطغى على دولتنا أسلوب بناء يشبه أسلوب عمارة الكنيسة روحاً ومضموناً. وبذلك يبقى نمط العمارة الإسلامية متنحياً وضامراً، ولن يكتشف، ولن يكتسب شخصيته التي تليق به».

فهذا الرأي الصواب والصحيح يدل على وقار الإسلام وأصالة الإيمان اللتين يتميز بهما المؤمن الذي تحلى بالحكمة والفراسة. حيث أنه في العصور اللاحقة التي تبعت عصر بيازيد الثاني، صعد الفن والعمارة الإسلامية إلى الذروة. وبفضل هذه الآراء والتفكير، وبفضل الحكمة والفراسة، نقش روح الإسلام على الأشكال الهندسية التي حافظت على وجودها حتى يومنا هذا في جامع السليمانية وفي كثير من سلسلة المباني الأثرية.

ولولم يحرص أجدادنا على هذه الأمور الحساسة بالنسبة للإسلام، فإن المباني الأثرية واللوحات الفنية التي تعكس عظمة الإسلام وظرافته ولياقته ورقته في الإحساس، كانت لن تكون، ولن تحافظ على بقائها حتى يومنا الحاضر. وكانت لن تكتشف أساسات الحضارة التي ترعرع في ظلها الكثير من الفنانين أمثال المهندس المعماري سنان، والخطاط حمد الله كارا حيصارلي وأمثالهما. لذا يجب علينا أن نمثل كرامة الإسلام وعزته في جميع جوانب الحياة، ونتجنب التشبه بغير المسلمين، وتشبيه عاداتنا بعاداتهم ونمط حياتهم.

ولم يَنحزْ أولياء الحق ﷻ أبداً إلى صفوف الظالمين والكفرة، ولم يتشبهوا بهم، ولم يشبهوا حياتهم بحياتهم. بل وكانوا يتجنبون أن



ينالهم أي إحسان أومساعدة منهم. لأن الإنسان مغلوب تجاه الإنسان. فيوجد في قلب الإنسان مشاعر التقرب والتعاطف والإنجذاب نحو من قدم له مساعدة أوأحسن إليه بشيء. لذا يجب علينا أن إذا اضطررنا أن نعرض مشكلة أو نطلب حاجة من احد، أن نتوجه إلى الصالحين، وأن نلجأ إلى الله ﷻ بدلاً من اللجوء إلى الفاسقين والكفرة.

وكما ورد في الحديث الشريف أن أحد الصحابة الكرام ﷺ سأل سيدنا محمداً ﷺ فيما إذا كان بوسعه أن يسأل الناس أم لا في حاجة من حاجاته، فقال عليه الصلاة السلام:

"لا وإن كنت سائلاً لا بد فاسأل الصالحين" (أبي داود، الزكاة، ٢٨)

وإن قصة سحرة فرعون مليئة بالحكم والعبر لمن يعتبر، حيث أن السحرة كانوا في عزة وإكرام من قبل فرعون سابقاً. ثم آمنوا بالله ﷻ بعد ما رأوه من معجزات. فغضب فرعون منهم غضباً شديداً، وبدأ بتهديدهم بالقتل. أما السحرة فقد وقفوا صامدين بقوة الإيمان ومتانته وأصالته. ولم ينحنوا أمام الباطل والشرك. فتحدوه قائلين:

« فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى » (طه، ٧١-٧٢)

وقبل أن تُقطع أيديهم وأرجلهم ويعلقون على أغصان النخيل، رفعوا أيديهم إلى السماء ملتجئين إلى الله ﷻ ومتوسلين إليه، لكي لا يظهروا أي مظهر من مظاهر العجز أمام بشر، فقالوا كما ورد في الآية الكريمة:



﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِـآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف، ١٢٦)

وبعد أن دعوا بهذا الدعاء التقوا برحمة ربهم شهداء.

وهناك عدة أمثلة من عصر السعادة، معبرة عن وجوب اتخاذ موقف واضح وصريح وهو موقف الكره ضد من غضب الله ﷻ عليهم. وهذه القصة هي إحدى هذه الأمثلة المليئة بالحكمة والعبرة:

لقد أخل المشركون بصلح الحديبية بعد عامين من عقده. وذلك بقيامهم بمجزرة كبيرة قتلوا فيها أعداداً هائلة من المسلمين. بالإضافة إلى أنهم لم يهتموا بالعروض التي عرضها عليهم سيدنا محمد ﷺ للصلح مرة أخرى. ثم أصابهم الخوف الشديد والذعر والقلق، فأرسلوا قائدهم أبا سفيان إلى المدينة المنورة.

خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ حَتَّى قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلَ عَلَى ابْنَته أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْت أَبِي سُفْيَانَ، فَلَمَّا ذَهَبَ لِيَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِ رَسُولِ اللَّهِ طَوَتْهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ مَا أَدْرِي أَرَغِبْت بِي عَنْ هذَا الْفَرَاشِ أَمْ رَغِبْت بِهِ عَنِّي؟ قَالَتْ: بَلْ هُوَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ وَأَنْتَ رَجُلٌ مُشْرِكٌ نَجَسٌ، وَلَمْ أُحِبَّ أَنْ تَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِ رَسُولِ اللَّهِ قَالَ: وَاَللَّهِ لَقَدْ أَصَابَكَ يَا بُنَيَّةُ بَعْدِي شَرٌّ (ابن هشام، ٤، ١٢-١٣)

أي أن شرف الإسلام هو فوق جميع العصبيات الفانية. وإن كره الشخص الذي يجب أن يكره في سبيل الله ﷻ، ولوكان أبا أو أقرب الناس، إنما هو من أصالة الإيمان. وهذا مثال آخر من عصر السعادة يعبر من جلادة الإيمان ومتانته عند الصحابة الكرام رضي الله عنهم:



أرسل سيدنا محمد ﷺ قبل صلح الحديبية سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه سفيراً إلى مكة. فقال سيدنا عثمان بن عفان للمشركين بأنهم يريدون أن يعتمروا فقط ثم يعودوا. فلم يسمحوا بذلك ورفضوا عرض المسلمين. بالإضافة إلى أنهم حاولوا أن يغروا سيدنا عثمان بقولهم:

«ان شئت أن تطوف بالبيت فطف».

وكان جميع المسلمين مشتاقون لرؤية الكعبة وللطواف حولها، بل وكان بعضهم يغبط سيدنا عثمان بن عفان معتقدين بأنه سوف يطوف حولها. ولكن سيدنا عثمان رضي الله عنه، الذي نذر نفسه وروحه لله ﷻ ولرسوله الأكرم ﷺ، تصرف تصرفاً معبراً عن وقار الإسلام وكرامته وعزته، حيث قال للمشركين:

«ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ» (مسند أحمد، ٤، ٣٢٤)

وعلينا نحن كأمة رسول الله ﷺ أن نتحلى بنفس الصفات الحميدة والأخلاق الرفيعة التي كان يتحلى بها عليه الصلاة والسلام، والتي ملأت قلبه وصدره الشريف. وهذا يعني، أنه يجب علينا أن نحب ما يحب، ونبغض ما يبغض.

علامات الحب الحقيقي

كان سيدنا ثوبان رضي الله عنه ينظر بعمق وتمعن إلى حبيب الله سيدنا محمد ﷺ في إحدى جلساتهم، لدرجة أن ذلك لفت انتباهه فسأله بلطف وحنان: "**ما لك يا ثوبان؟**".



فأجاب عاشق النبي ﷺ سيدنا ثوبان رضي الله عنه: «فديتك بأبي وأمي وروحي يا رسول الله.. إن اشتياقي لك يحرقني لدرجة أني أحس بأن كل لحظة أقضيها بعيداً عن نورك أنها فراق بالنسبة لي. فإن كانت هذه حالتي في الحياة الدنيا، فكيف ستكون في الآخرة؟. فإنك ستكون هناك مع الأنبياء، أما أنا فلست أدري إلى أين سأذهب، ومع من سأكون. بالإضافة إلى أني لو لم أدخل الجنة، فسأحرم تماماً من رؤيتك والبقاء معك. وهذا الأفكار تحرقني وتأخذ كل تفكيري يا رسول الله».فبشره سيدنا محمدﷺ قائلاً:

"**المرء مع من أحب**" (البخاري، الأدب، ٩٦)

أما علامة حب الله ﷻ وحب رسوله وحبيبه سيدنا محمد ﷺ هي الإطاعة والتسليم. فإن لم نطع رسول الله ونتقيد بأوامره ونواهيه، فلن يكون لنا الحق في أن نطلب الشفاعة يوم القيامة. وهذا تحذير واضح وبين حذرنا به ربنا ﷻ حيث قال كما ورد في الآية الكريمة:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران، ٣١)

أي أن الشعور بالحب تجاه الله ﷻ وتجاه رسوله ﷺ بمجرد الكلام دون التطبيق أوالعمل هو أمر لا نفع منه ولا فائدة. فمن لم يُضحِّ من أجل محبوبه ولم يأمل ويتمنى التلاقي به إلا بالكلام وبالتفكير النظري، فإن حبه قاصر ولا يعبر عن صدقه وإخلاصه.



وقال الحسن يا ابن آدم لا يغرنك قول من يقول المرء مع من أحب فإنك لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم فإن اليهود و النصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم (الغزالي، الإحياء علوم الدين، ٢، ١٦٠)

وقال الفضيل في بعض كلامه هاه تريد أن تسكن الفردوس وتجاور الرحمن في داره مع النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين بأي عمل عملته بأي شهوة تركتها بأي غيظ كظمته بأي رحم قاطع وصلتها بأي زلة لأخيك غفرتها بأي قريب باعدته في الله بأي بعيد قاربته في الله (الغزالي، الإحياء علوم الدين، ٢، ١٦٠)

إن الحب في الله ﷻ هو أن لا تأمل مقابل الحب إلا الحب. وإن الحب بهذا المفهوم يضفي على الإيمان عمقا ولذة. وورد في الحديث الشريف أن النبي ﷺ قد بين بأن لذة الإيمان لا يذوقها إلا المؤمنون الذين يتصفون بصفات ثلاثة وردت في ذلك الحديث الشريف حيث قال عليه الصلاة والسلام:

"ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار" (البخاري، الإيمان، ٩، ١٤)

وقد فسر ذلك سهل – رحمة الله عليه – بالشكل التالي: «إن علامة حب الله ﷻ هي حب القرآن الكريم، وعلامة حب الله ﷻ وحب القرآن الكريم هي حب سيدنا محمد ﷺ. وعلامة حب سيدنا محمد ﷺ هي حب السنة. وعلامة حب السنة هي حب الآخرة. وعلامة حب الآخرة هي عدم الإعجاب بالدنيا. وعلامة عدم الإعجاب



بالدنيا هي الابتعاد عن وجودها إلا بقدر قليل يكون زادا للآخرة». وبالنتيجة، فإن المحب الحقيقي هو الذي يحب من يحبهم محبوبه، ويبغض من يبغضهم. ويذكر محبوبه كثيرا وفي كل مناسبة.

عَنْ مُعَاذ أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ أَفْضَلِ الْإِيمَانِ قَالَ:

"أَنْ تُحِبَّ لِلَّهِ وَتُبْغِضَ لِلَّهِ وَتُعْمِلَ لِسَانَكَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ"

قَالَ: وَمَاذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ:

"وَأَنْ تُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَتَكْرَهَ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِك"

(أحمد بن حنبل، مسند، ٥ / ٢٤٧)

الحب والبغض في الله ﷻ

يروى أن الله تعالى أوحى إلي موسى عليه السلام هل عملت لي عملا قط فقال: إلهي إني صليت لك وصمت وتصدقت وزكيت فقال: أن الصلاة لك برهان و الصوم جنة و الصدقة ظل و الزكاة نور فأي عمل عملت لي قال: يا موسى إلهي دلني على عمل هو لك قال :موسى هل واليت لي وليا قط وهل عاديت في عدوا قط فعلم موسى أن أفضل الأعمال الحب في الله و البغض في الله (الغزالي، الإحياء علوم الدين، ٢، ١٦٠)

ويروى أنه قد أوحي إلى سيدنا عيسى عليه السلام ما يلي:

«إن عبدتني بعبادات أهل الأرض والسماء، ولم يكن في عبادتك حب من أجلي وكره من أجلي، فلن تفيدك كل هذه العبادات».



وإن كمال عباداتنا ومعاملاتنا مع الناس هي بقدر تعمقنا الروحي. لذا يجب أن تكون المحبة والبغض في قلوبنا من أجل الله ﷻ، لا من أجل أنفسنا.

وكان سيدنا محمد ﷺ لا يغضب إلا إذا هُضم حق المظلوم، أو اعترض الناس على الحقيقة. وعندما يهضم حق أحد من الناس، كان لا يسكن ولا يهدأ حتى ينال كل ذي حق حقه، وتعود الحقوق لأصحابها. ولم يكن أبدا يغضب لنفسه، ولم يجادل أبدا أحدا من أجل نفسه.

أي أنه يجب على المؤمن أن لا يتخذ البغض في الله ﷻ والذي يعتبر من أصالة الإيمان، لعبة يمارسها متى يشاء. وعليه أن يعرف أين ومتى وكيف يجب أن يغضب ويثور. وعليه أن يحرص عل تمييز غضبه، أهو لنفسه أم لدينه؟. لأن الغضب مذموم إذا كان للنفس، لأنه يذهب العقول من الرؤوس، ويجذب الشيطان إليه. أما إذا كان الغضب لأجل الله ﷻ فهو إذاً نضوج معنوي جيد، وفضيلة رفيعة.

وكان سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه قد بطح كافراً لأجل الله ﷻ وكان على وشك أن يقتله. فبصق الكافر في وجه سيدنا علي. فامتنع عن قتله. فما ذلك إلا مثال مليء بالعبر والحكم في خصوص الحب والكره والغضب لأجل الله ﷻ. فعجب الرجل من تصرف سيدنا علي هذا، فسأله:

«يا علي.. لماذا عزفت عن قتلي، وكنت على وشك أن تفعل؟. وتحول حالك من غضب شديد إلى سكون وهدوء لا يمكن التعبير عنهما؟. فكنت كالبرق تبرق، فصرت فجأة كالنسيم العذب الهادئ.



فما الحكمة في هذا التغير السريع والآني؟. لقد جهلت حالك هذه».

فأجابه سيدنا علي بن أبي طالب قائلا: «إني أجاهد في سبيل الله فحسب. فلا أقطع عنق عدو له إلا لإرضائه هو فحسب. ولا أسمح لنفسي بأن تتدخل في ذلك. أما أنت فبصقت علي وأردت أن تذلني وتغضبني. فلو لم أتمالك نفسي واكبت غضبي وقتلتك، فأكون قد قتلتك لسبب تافه وهو أن أتبع نفسي وهواها. وإني لا أغزو وأحارب لكي أشبع غريزتي بصون كبريائي وعزة نفسي، بل أغزولكي أرضي الله ﷻ فحسب».

وتشرف ذلك العدو بشرف الدخول في الإسلام أمام هذه الفضيلة الرفيعة.

لذا فإن الغضب الذي يذهب العقول من الرؤوس ويدفع الناس إلى ارتكاب الأخطاء والعثرات هو الغضب الصادر عن النفس، والذي يجب على المؤمن أن يتغلب عليه ويخلص نفسه منه. أما أن تَملك الأعصاب وتُحفاظ على الهدوء وعدم الغضب تجاه من التهَجُم على الدين أو الإيمان أو الأخلاق والمعنويات الإسلامية، فهذا ليس تغلب على النفس وعلى غضبها. بل إن هذا التصرف هو عبارة عن غفلة عميقة وضلالة. فمن المهم جداً الغضب عند اللزوم إذا كان لأجل الله ﷻ، بقدر وجوب التغلب عليه عندما يكون لأجل النفس. وبذلك يصل المؤمن إلى رضا الله ﷻ.

وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه شديداً جداً وقوياً ضد الكفر والظلم والتجاوز على الحقوق. لذا لم يكن أحد يتجرأ على التجاوز



على حقوق الآخرين بوجوده ﵁. وكان الشيطان أيضا يغير طريقه إذا صادفه، وذلك بسبب تحليه بالغضب الشديد والبغض لأجل الله ﷻ.

وجاء في إحدى المرات رجل من أحبّاء الله إلى سيدنا جنيد البغدادي، وعندما اقترب منه رأى أن الشيطان قد ابتعد عنه. ولكنه عرف من ملامح وجهه أنه كان غاضبا غضبا شديدا. فسأله:

«يا جنيد.. إننا نعرف أن الشيطان يقترب من الإنسان عندما يغضب، ولكنه ابتعد عنك على الرغم من أنك كنت غاضباً. فما سبب ابتعاده عنك؟، وما الحكمة في ذلك؟».

فأجابه جنيد البغدادي قائلاً:

«ألا تعرف أننا لا نغضب لأنفسنا. وعندما يغضب أحد لنفسه، فيتسلط عليه الشيطان. أما إذا غضب لأجل الله ﷻ فيهرب الشيطان منه هُروباً ليس بعده هروب».

اللهم ارزقنا القوام القلبي والمعنوي الذي رزقته عبادك الصالحين.

واجعل اللهم حبنا وبغضنا وغضبنا موافقاً لرضاك.

وأرنا اللهم الحق حقاً، وارزقنا إتباعه.

وأرنا اللهم الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه...آميــن





الصدق والإخلاص في الحب والبغض

إن الكثير من الناس الغافلين والواقعين تحت سيطرة نفوسهم يظنون أن سفالتهم ووضاعتهم سعادة. وذلك بسبب فقدانهم أحاسيسهم وعقولهم، فأصبحوا كالحطب الجاف الذي ينجرف في السيل ضد عواصف الحياة وحوادثها العنيفة كالمد والجزر. فلا يشعر المعوج منهم باعوجاجه، ولا يستوعب المنهار انهياره. لذا فإنهم لا يشعرون بحاجة لبذل أي مجهود في سبيل إصلاح أنفسهم والإستقامة على الطريق الصواب.

وكما ورد في الحديث الشريف أن سيدنا محمداً ﷺ قال:

"كَلاَّ وَاللَّه لَتَأْمُرُنَّ بالْمَعْرُوف وَلَتَنْهَوُنَّ عَن الْمُنْكَر وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَى الظَّالِم وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ" (أبو داود، الملاحم، ١٧/ ٤٣٣٦-٤٣٣٧)



الصدق والإخلاص في الحب والبغض

إن حب الذين يحبهم الله ﷻ والإبتعاد عن من لا يحبهم هما شرطان أساسيان من شروط الإيمان. فبقدر مشاعر الحب التي شَعر بها العبد تجاه ربه ﷻ وتجاه الحق، فيجب عليه أن يحس بنفس القدر بمشاعر الكره والمخالفة لمن خالف ذلك واتبع الباطل والشر. وإلا فيكون ذلك من مؤشرات الضعف والتقصير في الإيمان. وكما ورد في الحديث الشريف أن سيدنا محمداً ﷺ قال:

"من أعطى لله ومنع لله وأحب لله وأبغض لله وأنكح لله فقد استكمل إيمانه" (الترمذي، صفات القيامة، ٦٠)

لذا فإن المؤمن الحقيقي ينظم أحاسيسه كما ينظم أفكاره وآراءه حسب نهج الرضاء الإلهي. فيحب من يحب في الله ﷻ، ويكره من يكره فيه ﷻ. والمقياس في أساس جميع الأحاسيس والمشاعر هو: (التناسب مع إرضاء الله ﷻ).

وقال سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه قبل قرون طويلة:

«أحبب في الله لمن احببت، واهجر في الله لمن هجرت، واعلم أن رضاء الله يكتسب بذلك. وإلا فلن يستفيد المرء الفائدة المرجوة والمطلوبة من الصلاة التي يقيمها، والصيام الذي يصومه،



والحج الذي يؤدي مناسكه، وقد أصبح الناس مع الأسف في هذه الأيام متعلقين تعلقا شديدا بالحياة الدنيا، فأصبح حبهم وكرههم على حسب المنفعة الدنيوية فقط».

عندما يضعف الاحساس بالإيمان ....

عندما يفقد الإنسان فراسته وحكمته في مراقبة الله ﷻ في موضوع الحب والبغض، يتحول إلى دمية في يدي نفسه، فتلعب به كيف ما تشاء. وتطغى عندها المنفعة الدنيوية على الإخلاص تجاه الإيمان.

ويبدأ الشخص بتجاوز كثير من الأمور الجدية واستخفافها تحت اسم (التسامح). ويبدأ بعد ذلك بالسكوت عن الحق، بهدف عدم جرح أحد من أصدقائه، وعدم إلحاق الأذى والضرر على الصداقة والمنفعة المادية بينهما. وهذا من أكبر السيئات التي يقوم بها الشخص ضد نفسه وضد الذي تجاوز هو نفسه عن أخطائه وذنوبه.

وكما قال سيدنا سفيان الثوري:

«يقع المرء في الخطأ. فإن لم ينبهه ويحذره من يدعي أنه أخ له بأسلوب لطيف ولين، فاعرفوا أن حبه له ليس في الله ﷻ. ولوكان حبه له في سبيل الله فقط، لأيقظه وحذره عن غفلته وعن معصيته لله ﷻ بالأسلوب الذي يفهمه».



وإن تجاوزنا عن ذنوب وعثرات من وقع في الخطأ، ومسامحتنا له، يسبب في انتشار المعاصي في المجتمع. فيظن الناس أن ذلك الفعل هو مباح ومشروع. وهذا ما يجعلهم يرتكبون تلك المعاصي بشكل علني وبدون رادع. وقد بدأ انحراف بني إسرائيل عن الطريق الصواب بالتسامح والتجاوزات التي أبدوها خوفاً من فقدانهم منافعهم ومصالحهم الدنيوية. وقد أخبرنا عن ذلك سيدنا محمد ﷺ، حيث قال:

"إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهِ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ فَلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ». ثُمَّ قَالَ (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ) إِلَى قَوْلِهِ (فَاسِقُونَ) ثُمَّ قَالَ «كَلاَّ وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَىِ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ". (أبو داود، الملاحم، ١٧/ ٤٣٣٦-٤٣٣٧)

ضعف المسامحة والتجاوز عن الأخطاء

إن التسامح الذي يبديه الشخص لمنفعة ومصلحة دنيوية، تؤدي إلى ضعف الإيمان. وكم من التجاوزات التي تلحق الأذى



والضرر بالإيمان، قد كثر واختلط في عصرنا الحالي في أمور الدين والدنيا، دون أن توزن وتقاس بمقاييس ومعايير القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. ولكن الأسوأ من ذلك هو أن كثيراً من الناس يظنون أن سفالتهم ووضاعتهم وذلهم سعادة. وذلك بسبب فقدانهم أحاسيسهم وعقولهم، فأصبحوا كالحطب الجاف الذي ينجرف في السيل ضد عواصف الحياة وحوادثها العنيفة كالمد والجزر. فلا يشعر المعوج منهم باعوجاجه، ولا يستوعب المنهار انهياره. لذا فإنهم لا يشعرون بحاجة لبذل أي مجهود في سبيل إصلاح أنفسهم والاستقامة على الطريق الصواب.

وفي مجتمعنا الحالي، فإن الجهل والتخلف الذي حل بنا بسبب استيلاء وسيطرة الثقافة العالمية، قد جلب معه الكثير من التصرفات التي لا تليق بالإسلام والتي تعاكس روح الإيمان. فيتم خلط أمور كثيرة لا توافق الثقافة الإسلامية في أهم مجالات الحياة، وكأنما صار الشيطان شريكاً لنا في معيشتنا. مع أن الكلام الذي وجهه الله ﷻ للشيطان الرجيم عندما طرده من الجنة، فإنه مليء بالعبر والحكم والتحذيرات الأساسية لنا. فكما ورد في الآية الكريمة:

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ (الإسراء، ٦٤)



وفي الحقيقة، فإن الكثير من الناس ينسون الدين وتعاليمه في كثير من مجالات الحياة وأهمها كمناسبات الأفراح والختان ومراسم الجنازة. مع العلم أن هذه المناسبات هي من أهم لحظات الحياة التي يجب أن تذكر الناس بالدين، فيجب عليهم أن يطبقوها ويحيوها على أساس هوية الدين الإسلامي. لأن الدين ليس عبارة عن مراسم خاصة ببعض الأوقات، بل هو نمط معيشي ينظم كل لحظة من لحظات العمر. لذا فلا يجوز لنا أن نطبقه أحياناً ونلقيه جانباً في أحيان أخرى.

وإن تحويل المجالات المهمة في الحياة إلى محتويات ومضامين تغضب الله ﷻ، في وقت يجب فيه عيش كل لحظة من لحظات العمر على نمط إسلامي نزيه لأبعد الحدود، إنما هو عمل بشع وغير لائق ولا يدل إلا على الحماقة. ومثل ذلك كمثل من يضع قطرة نجسة في كأس مليء بماء نبع نظيف وصافٍ.

وكانت مناسبات الزفاف والختان تقام في قديم الزمان في المساجد والحدائق. وكانت الإحتفالات تتم على شكل قراءة مولد شريف، وتلاوة القرآن الكريم. وكان الجميع يُدعى لتلك المناسبات دون التمييز بين الغني والفقير. وبعد الإنتهاء من الطعام كانت الأيدي ترتفع إلى السماء متضرعة ومتوسلة لله ﷻ، فيحمدونه على ما رزقهم من الخيرات والنعم من المأكولات الشهية والمشروبات المتعددة وما تشتهي الأنفس من مختلف الأطعمة، فكانت هتافات (آمين، آمين) تصبح منبعاً لنشوة الأرواح، وطمأنينة النفوس.



وكان الفقراء والمحتاجون يُدعون إلى تلك المناسبات بشكل خاص، ويستفاد من دعائهم للحصول على السعادة في الدنيا والآخرة. لأنهم كانوا يحرصون على التقيد بشكل تام وجدي بالتحذير النبوي الذي حذرنا به سيدنا محمد صﷺ كما ورد في الحديث الشريف:

"شر الطعام طعام الوليمة، يدعى لها الأغنياء ويترك الفقراء. ومن ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله" (البخاري، النكاح، ٧٢)

وبذلك كانت مجالس الطمأنينة والسكينة تتشكل وتتكون بين الناس ضمن الأجواء الروحية و المعنوية الرفيعة.

أما في يومنا الحالي، فمن لديه الإمكانيات المادية، فصار المجتمع يجبره على أن يسرف ويترف في أفراحه ومناسباته. فيحيي مناسبات الزفاف واحتفالات الختان ضمن أفضل الحفلات في الأماكن الباهظة في السعر، وكأنها ممنوعة للفقراء أن يدخلوها، كالمطاعم والفنادق ذوات النجوم الكثيرة، وكأنه يريد أن يعرض مسرحية يظهر فيها قوته المادية وغناه وبذخه.

ولا يدعى إلى هذه المناسبات سوى الناس من الطبقة الرفيعة والمعروفة من المجتمع. ويقدم فيها الطعام والشراب على مبدأ البوفيه المفتوح، وكأنما يشجعون الناس على الأكل الزائد والإفراط في تناول أشهى المأكولات وألذ المشروبات. ولا يتبادل الناس



في مثل هذه المناسبات إلا الكلام الفارغ الذي لا فائدة منه ولا جدوى. بل وفي بعض حفلات الزفاف ومناسبات الختان يحتسي المدعوون المشروبات الروحية التي حرمت تحريما قطعيا من قبل الله ﷻ، وكأنما سُمح لهم مؤقتا في مثل هذه المناسبات أن يتناولوها. وهناك الكثير من الناس الذين يبدون وكأنهم متمسكون بالدين، وكثير من الآباء والأمهات الملتزمون بالصلوات والعبادات، والذين قاموا بتأدية فريضة الحج، فيقع الكثير منهم في التضاد مع اعتقاداتهم وإيمانهم، بتجاوزهم عن أخطاء أبنائهم وتصرفاتهم التي لا تليق بالإسلام، في الحفلات التي يتم فيها تناول الخمر ومشاهدة الراقصات العاريات، المائلات المميلات.

بالإضافة إلى أن التلقين الذي تلقن به العروس عندما تترك بيت والدها ووالدتها، قد تغير مضمونه ومحتواه في زمننا هذا عن الزمن الماضي. ففي قديم الزمان كانت العروس تلقن بالصدق والإخلاص، والتضحية والتفاني. وكان أهلها يحاولون أن يحببوها بالبيت الجديد الذي ستذهب إليه، حيث كانوا يقولون:

«يا بنيتي.. لا تخرجي من بيت زوجك إلا بالكفن الأبيض، كما ستدخلينه بلباس العرس الأبيض هذا».

وكانوا يوصوها بالصبر على الشدائد والمتاعب، ومفاجآت الحياة المرة والعصيبة، حيث كانوا يقولون:

«يا ابنتي.. إذا نزف دمك فقولي أنه بسبب شربك لشراب الورد الأحمر».



وبذلك كانوا في بداية الأمر يحاولون إنشاء النسيج الروحي المتين والسليم للعش الذي ستدخله وتعيش فيه.

أما في يومنا هذا ومع الأسف الشديد، فيقوم أهل العروس بتلقين ابنتهم بنصائح يظنون أنها من صالحها. فيقومون بشحن ابنتهم بالمشاعر السلبية والأحكام المسبقة ضد زوجها وضد أهله، حيث يقولون: «لا تسمحي لأحد بأن يتجاوز على حقوقك، وإذا وبخك زوجك وقال لك شيئاً سيئاً فحذار أن تسكتي، بل ردي عليه وقابليه بضعفي ما يقول لك».

وليس من الصعب بناء على ذلك تخمين التلقين الذي يلقن به الشاب قبل زفافه. فهو مشابه لذلك التلقين الذي تلقن بها العروس.

ويجب علينا أن ندرك بأن نسياننا للإحساس المعنوي والروحاني وابتعادنا عنه، هو أحد أهم أسباب ازدياد حالات الطلاق وتفاقم النزاعات العائلية، وتمرد الأزواج أوالزوجات، وانتشار الأمراض النفسية والإجتماعية. لأنه يجب علينا أن لا ننسى أنه لا بد من وجود سبب باطني خلف كل سبب ظاهري.

ومراسم الجنازة التي تعتبر من أهم نقاط الحياة معنى وعبرة، قد وصلت في زمننا الحاضر إلى مرتبة من الذل والتخلف لدرجة أنها قد تحولت إلى فرصة لاستعراض الغنى والقوة المادية، مستخدمين الموتى حجة لذلك بشكل غير مباشر. فيفتخر أهل الميت بمجيء أصحاب المقامات العالية والمواقع الرفيعة للاشتراك بمراسم جنازتهم. وإن قيام بعض الأشخاص من أهل الميت بإفشاء أسماء



الشخصيات المهمة والمشهورة التي اشتركت بمراسم الجنازة، وكتابة كلمة شكر لهم في صفحات الصحف اليومية، إنما يضر بروحانية ومعنويات الجنازة.

ويقوم بعض الناس بعرض مظاهر التشبه بغير المسلمين، كقيامهم بتطبيق عادات النصارى في وضع باقات الورد وحلقات شجر الآس على القبور. بدلا من توزيع الصدقات والمال على روح الميت، وطلب الدعاء له بأن يتغمده الله ﷻ برحمته ويحسن إليه.

مع العلم أن الذهاب إلى الجنازة هو فرصة للناس لكسب رضاء الله ﷻ فيجب عليهم أن يؤدوها على أحسن حال. ويجب أن يدعوا للميت ويوزعوا الصدقات على روحه لسلامته، وبذلك يكونون قد دفعوا دين الوفاء لأخيهم المسلم الذي توفاه الله ﷻ.

وكان سيدنا محمد ﷺ بين الحين والآخر يسأل أصحابه الكرام ﷺ:" هل شيعتم جنازة اليوم؟". لكي يرغبهم في أن يكونوا شركاء إخوانهم المسلمين في أحزانهم، وأن يكونوا مصدراً لمواساتهم ونسيانهم همومهم.

أما في وقتنا الراهن، فلا يذهب البعض إلى الجنازة لأداء واجبه تجاه الميت وتجاه أهله وأقربائه، ولكي لا يحرجوا ويقعوا في مواقف صعبة ومخجلة. لذا فإنهم يبدون اهتماماً أكبر وأعلى شأنا بجنازة أصحاب المقامات الرفيعة وأصحاب الشهرة والنفوذ والقوة، ولا يبدون اهتمامهم بجنازات الفقراء والمساكين.



ومن المؤسف والمحزن جداً أننا في حالة يقال فيها شرف الإنسان وقيمته بالمال والثروات والمنصب والمقام، في وقتنا الحاضر الذي أصبح ساحة واسعة سمحت لوباء المادة وحب الحياة الدنيا، بالانتشار والتغلغل فيها. فصار كثير من الناس في أغلب المجتمعات معتادون على تقييم كل شيء على حسب قيمته المادية، خالياً تماماً من الروحانيات والقيم المعنوية، فأصبحت المناسبات الإجتماعية كحفلات الزفاف ومناسبات الختان ومراسم الجنازات أماكن يتم فيها تجريب ذلك. مع العلم أن مقياس عزة الإنسان وكرامته هو في كل الأحوال محافظته على هويته وشخصيته كمسلم، أي إيمانه وتقواه وأخلاقه الحميدة.

فحب البذخ والترف في العيش، والمظاهر الشهوانية والنفسية التي يعرضها الناس في حفلات الأعراس وحفلات الختان، وسائر أنواع الاحتفالات والاستمتاع، والمصاريف التي يصرفونها بلا حدود، وإطلاق نار الأسلحة والألعاب النارية، وجميع أنواع الزينة، والصخب وأصوات الموسيقى العالية والمزعجة، دون التفكير بحال المرضى والأطفال، والمهمومين والحزينين والمرهقين جسديا أو فكريا، ودون أن يفكروا ولو للحظة أنهم يتجاوزون على حقوق العباد... كل ذلك هو عبارة عن غيض من فيض من الأمثلة المعبرة عن ابتعاد الناس في يومنا الحاضر عن تعاليم الدين الإسلامي، والتحلي بأخلاق المؤمنين الحقيقيين الرفيعة.



وهذه الأمثلة ما هي إلا جزء من التأثير السلبي لاستيلاء الثقافة الأجنبية واستيلاء حب الحياة الدنيا على مجتمعنا. ولا يوجد مكان لمثل هذه المبالغات في عرفنا الديني والوطني.

ردة فعل الإيمان

إن أحد شعارات المؤمنين هو أن يكونوا مفتاحاً للخير وقفلاً للشر. أي أنه من واجبات المؤمنين أن يقفوا عائقا في وجه الباطل والشر، والعمل على إنهاء السيئات النفسية والشيطانية، بالإضافة إلى عملهم على إعلاء كلمة الحق والخير في سبيل الله عزّ وجلّ.

فعلى سبيل المثال، فإذا دعي مؤمن إلى مكان يعصي الناس فيه أوامر الله عزّ وجلّ علناً، يجب عليه أن يتصرف كما يستدعيه البغض في سبيل الله أن يتصرف، دون النظر إلى صاحب الدعوة وإلى مقامه ومنزلته في المجتمع. وقد نبهنا الله جلّ جلاله بشكل واضح وصريح في هذا الخصوص، فورد في الآية الكريمة أنه قال:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون، ٣)

أي بما أن المؤمنين أمروا بأن لا يلتفتوا إلى الأمور الفارغة وعديمة الفائدة، فلا يمكننا إذا تصور وضعهم إذا أجابوا دعوة تغضب الله عزّ وجلّ بالمعاصي التي تنتشر فيها. فعلى المؤمن الذي واجه مثل هذه الحالة أن يؤدي واجبه بالإيقاظ والتحذير بأسلوب مناسب ومؤثر.



وإذا حذر أحدا، ولكنه لم ينصت له، بل وأجابه بإجابة سخيفة لا تجدي ولا تنفع، بقوله: (يا هذا.. عليك أن لا تهتم بهذه الأمور في وقتنا الحالي. لقد حان الوقت لتجاوز هذه الأمور، والإنتقال إلى الحضارة والتمدن)، مستخفاً بأوامر الله ﷻ ونواهيه بهذه الكلمات الخفيفة – التي تؤدي إلى الكفر والعياذ بالله – فيجب أن يبدي ردة فعل أو عملاً مناسبة لأجل الله ﷻ، وذلك بعدم إيجابته لدعوته وعدم اشتراكه معه. لأن المؤمنين هم سفراء الله ﷻ في كل زمان وفي كل مكان يعيشون فيه. وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة، ١٤٣)

ومثلاً إذا دخل مؤمن على مركز تجاري واكتشف على أنه يباع فيه أم الخبائث، الخمر والمشروبات الروحية، فعليه أن يخرج من ذلك المكان دون أن يشتري شيئاً. وبذلك يفهم صاحب ذلك المركز التجاري ويستوعب بعد فترة أنه بدأ يخسر زبائنه لأنه يبيع الخمر. ويجب على المؤمنين تطبيق ردة الفعل هذه على كل العادات والأمور السلبية.



لأن إظهار الكره ضد الخطأ يترك أثراً إيجابياً في سبيل إصلاح وخلاص من قام بفعل ذلك الخطأ. وبكثرة هذه التأثيرات الإيجابية يؤمل بأن يفهم ذلك الشخص خطأه فيعزف عنه ويتوجه إلى الخير ويبتعد عن الشر.

أما البقاء دون إبداء أية ردة فعل تجاه تجاوز أحد من الناس حدود الله ﷻ، وابتعاده عن أوامره، إضافة إلى إظهار التسامح تجاه من يفعل ذلك، يؤدي إلى الميل والإنحياز نحوه ونحو ما يغضب الله ﷻ، فيصبح ذلك أمر عادياً وطبيعياً بالنسبة له كنغمة موسيقية عذبة تدغدغ قلبه وأحاسيسه. فيزداد التوجه نحو المعاصي. ويصبح الإنسان بعيداً عن الإحساس بذل المعصية وسفالتها، بل وتوصله إلى درجة أنه يفتخر بقيامه بتلك المعاصي.

وإن عدم المقدرة على إظهار ردة فعل في سبيل الله ﷻ تجاه إلحاق الأذى والضرر في الأمور المعنوية والدينية، بينما يقوم الناس بالمظاهرات التي تستمر أياماً، ويضربون عن الطعام مقابل منفعة دنيوية لا تسوى إلا قروشا، فذلك ليس إلا مظهراً من مظاهر قلة التفاني والتضحية في سبيل الدين.

مرض التقليد

وإن من أهم الأمور التي تهدد الإيمان بالخطر، هو مرض التشبه بغير المسلمين، ومحاولة تقليدهم في نهج نمط حياتهم الشيطانية، وحسب أهوائهم وشهواتهم النفسية. والكثير من تحلّل أسس الدين



وتلاشي القيم والأخلاق الحميدة، وضياع الثقافة والفكر الإسلامي يبدأ بالتقليد والتشبه بالكفر. ويتحول بعد فترة ليصبح عادة أساسية ومزية من مزايا الشخص.

أما بعد ذلك، فيتحول الإتحاد الشكلي إلى اتحاد ذهني، ويتحول الإتحاد الذهني مع الزمن إلى درجة الإتحاد القلبي. وورد في الحديث الشريف أن سيدنا محمداً ﷺقال:

"من تشبه بقوم فهو منهم" (سنن أبي داود، اللباس، ٤/ ٤٠٣١).

وهذا الحكم متعلق بالشعائر الدينية فقط. ومع ذلك، فإن التشبه بأهل الكفر حتى في الأمور التي لا تعتبر من الشعائر الدينية، فهو وبدون شك ليس بريئاً من الخطأ.

إن الميل للتقليد والتشبه يوجد – قليلاً أوكثيراً – في فطرة وغريزة بني البشر. ونلاحظ في يومنا الحاضر أنه قد ازداد الإنحلال على مجتمعاتنا من ناحية الأخلاق الإسلامية. وبما أن الأمثلة السيئة قد طغت على الأمثلة الحسنة والجيدة، فإن توظيف الميل إلى التقليد والتشبه، واستخدامه في مكانه الصحيح يتطلب مجهودا أكبر وصبراً وفراسةً. فملايين الناس يضيعون ويهدرون أوقاتهم القيمة في الجدل والنقاش في المواضيع السياسية أو الرياضية، وما ذلك إلا بسبب التشبه والميل إلى التقليد ليس إلا. وهناك أمور أخرى مهمة جدا تشكل أمثلة عن هذه المظاهر، ولكنها لا تنال اهتمام الناس



الكافي؛ فإن بعض الشباب يدخلون إلى المساجد الشريفة وهم يلبسون ألبسة كتب عليها كتابات أجنبية بهدف الدعاية. أو طبع عليها رسوم غير لائقة بالإسلام وبالأماكن المقدسة الطاهرة.

وإن هؤلاء الشباب لا يحسون مجرد إحساس بفظاعة هذا التصرف الشنيع الذي يبدر عنهم، والذي لا يتوافق مع وقار الإسلام وكبريائه وعزته. لأنهم لم ينبهوا ولم يحذروا من قبل الناس من حولهم عن هذا الأمر. وقد وصل المؤمنون في وقتنا الحالي إلى مرتبة وضيعة وذليلة لدرجة أنهم قد نسوا بأنهم أمة وصفت من قبل الله ﷻ بأنهم (يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر)، مع العلم أن مقابلة الخطأ بعمل عكسه وبيان خطئه، وتقديم النصائح بأسلوب مناسب ولين دون إحراج أو جرح للمشاعر، إنما هو فرض مؤكد على المسلمين. ومن هذا المنطلق فعلى المؤمن أن يتكلم بالحق بلسان مؤثر وأسلوب واضح، وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ (النساء، ٦٣)

وإن عدم التشبه بغير المسلمين هو من أهم الشروط للمحافظة على وقار الإسلام وعزته وكرامته. لذا فقد أمرنا سيدنا محمدﷺ عند صيام العاشر من شهر محرم أن نصوم يوماً قبله أو يوماً بعده مع صيامه، وذلك لمخالفة اليهود. أي أنه منعنا من التشبه بهم حتى في العبادة.



وإذا تلاشى شعور البغض في الله ﷻ تجاه عير المسلمين، وظهر شعور محاولة التشبه بهم وتقليدهم، فإن ذلك سيكون سبباً في زوال الفروق بيننا وبينهم شيئاً فشيئاً. فإذا اعتبرنا أن الإيمان كالحبل، فإن ضعف شعور المخالفة في الله ﷻ لغير المسلمين، سوف يسبب وبشكل قطعي تمزق خيوط ذلك الحبل خيطاً بعد الآخر.

وقد عاش أجدادنا العثمانيون لقرون طويلة في البلاد الواسعة التي حكموها، مع كثير من الأقوام والملل والشعوب المنتسبة إلى أديان مختلفة وأصول مختلفة، ويتكلمون لغات مختلفة، على مساحة جغرافية تتجاوز الأربع والعشرين مليون كيلومتراً مربعاً. ولكنهم عاشوا عاداتهم وأعرافهم وتقاليدهم دائماً، بواسطة شرف الإيمان وعزته. وشكلوا مثالاً رائعاً عن دينهم وثقافتهم وعاداتهم على أحسن الأحوال، عن طريق التأثير بالناس الغير مسلمين، لا التأثر بهم. فاشتهرت لديهم المأكولات والحلوى التركية، وانتشرت العادات العثمانية عندهم.

أما في الوقت الراهن، وبسبب الأسباب الاقتصادية التي دفعتنا إلى الصفوف المتخلفة بين دول العالم، فقد دخل حياتنا ونمط معيشتنا الكثير من العادات التي لا تناسب ثقافتنا الخاصة بنا. فازداد التشبه بغير المسلمين في جميع مجالات الحياة، كاللباس، وحفلات الأعراس والأفراح، والإحتفال بعيد رأس السنة، والذهاب إلى الأماكن الخلاعية للاستجمام والترفيه عن النفس، وتربية الكلاب في المنازل.... إلخ.



بالإضافة إلى أن الاهتمام بالماركات العالمية قد دخل حياتنا وتغلغل في نمط معيشتنا نتيجة رياح الموضة التي كان الأجانب وغير المسلمين هم السبب في هبوبها نحونا. فمن الضروري جداً على المؤمنين أصحاب الحكمة والبصيرة والفراسة أن لا يميلوا إلى مثل هذه الشهوات، وأن لا يدعموا حملات محاولة استيلاء الثقافة العالمية على ثقافتنا الخاصة بنا. بل يجب عليهم أن يقفوا بشموخ وصمود في وجه الأعداء، وذلك بجهودهم الخاصة، وإمكانياتهم الشخصية.

ويجب علينا أن نجعل نمط معيشتنا متناسقا مع ما أوصانا به الإسلام وأمرنا بالتقيد به، وذلك في لباسنا، وديكور منازلنا لوناً وشكلاً ومضموناً.

وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أرسل جيشاً إلى أذربيجان أو داغستان، كان يحذر الجنود تحذيراً شديداً، بأن لا يتشبهوا بعبدة الأصنام الموجودين في تلك المناطق. فلا يقلدونهم في لباسهم، وفي أكلهم وشربهم، وفي عاداتهم وتقاليدهم.

التسامح مع غير المسلمين

لكي نفهم الشكل المباح والمشروع لمصطلحات (التسامح) و(تبادل الحديث) التي ترد كثيراً في هذه الأيام، بالصورة الصحيحة، فيجب علينا أولا أن نعرف وجهة نظر الإسلام للإنسان.



ويلقننا الإسلام بأن ننظر إلى كل الناس بعين الخالق ﷻ الحنونة، حتى وإن كان الشخص غير مسلم. ويعتني الإسلام بالمحافظة على حقوق العباد، حتى ولو لم يُجِبْ الدعوة الإسلامية وينال شرف الدخول في الإسلام ويهتدي إلى الطريق الصواب.

وإن المعاهدة التي وقعها سيدنا محمد ﷺ مع اليهود في المدينة المنورة هي مثال معبر عن ذلك. وبناء على ذلك، فلا بأس في أن نعقد اتفاقيات مع غير المسلمين في مجال العمل المشترك في مواضيع الدولة المشتركة، وحقوق الجميع كأفراد في المجتمع، دون أن نتخلى عن أي محتوى للدين بأي شكل كان.

وإن تلقين الإسلام وتوجيهه لنا في المناسبات الإنسانية هو: الشفقة والرحمة. عن عمر بن يعلى بن مرة عن أبيه قال :

«سافرت مع النبي ﷺ غير مرة فما رأيته مر بجيفة إنسان إلا أمر بدفنه لا يسأل أمسلم هو أم كافر» (الحاكم، ١، ٥٢٦/ ١٣٧٤)

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ فَقِيلَ لَهُ إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ فَقَال: **"أَلَيْسَتْ نَفْسًا"** (البخاري، الجنائز، ٥٠)

ويأمرنا الإسلام أيضا أن نتصرف بدقة متناهية تجاه غير المسلمين، فلا نهضم حقوقهم. وإن التعليمات التي أعطاها السلطان العثماني محمد الفاتح بحساسية الإيمان وروحانيته لجنوده عندما دخل مدينة اسطنبول بعد فتحها، إنما هي أفضل وأصدق تعبير عن



هذه الحقائق؛ حيث قال:

«لا تمسوا أبداً من لم يقاومكم، وطلب منكم العفو. ولا تلحقوا أقل الضرر بالنساء والأطفال والشيوخ والمرضى».

وقد تأثر بطريرك اسطنبول من تصرف السلطان محمد الفاتح العاقل والمتسامح الذي طبقه قبل أن يسمع عن قرارات حقوق الإنسان الدولية. وقد امتلأت عيناه من البكاء، فركع أمام السلطان قابضا على قدميه. فأقامه الفاتح على ساقيه وقال له:

«إنه محرم في ديننا أن ينحني الناس أمام بعضهم، وكأنهم يسجدون لله ﷻ. قم فإني سأعيد لك ولكل النصارى معك جميع الحقوق والحريات. فلا تخافوا بعد اليوم من عذابي الشديد في موضوع حياتكم وحرياتكم».

فبفضل تميز أجدادنا العثمانيين بأسلوب العدل والمسامحة تجاه غير المسلمين، استطاعوا أن يستتبوا الأمن، وينشروا الطمأنينة والسكينة والصلح على مدى قرون، وحتى في منطقة (روم إيلي)[1]، التي كانوا أقلية فيها بالنسبة للنصارى. بالإضافة إلى أن هذا الحال صار وسيلة لهداية الكثير من المجتمعات الغير مسلمة.

١. المعنى من كلمة روم ايلي: المحافظات والمدن والمناطق التي تلي اسطنبول مثل تِراقيا ودول ومناطق البلقان مثل بلغاريا وهنغاريا ورومانيا (المراجع د.آدم اقين)



وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت، ٤٦)

وكنتيجة لهذه الآية الكريمة وآيات كثيرة وردت في القرآن الكريم، فقد أرسلت بعض العائلات التركية الأصيلة من هضبة الأناضول إلى دول في الغرب مثل (كوسوفا)، و(البوسنة والهيرسك) بعد فتحهما، فعاشوا كرامة الإسلام وفضائله وهويته بشكل تام ومثالي. وبنتيجة تمثيلهم للإسلام على أفضل حال، وبسبب صدقهم وإخلاصهم، فقد أصبحوا وسيلة لهداية تلك الشعوب.

بالإضافة إلى أن الظلم الذي يقوم به العبد تجاه غير المسلم هو مسؤولية أخروية كبيرة، كما هو عليه الحال في ظلمه لأخيه المسلم. وفي إحدى المرات اختلف السلطان محمد الفاتح مع مهندس معماري نصراني، ووصلوا إلى المحكمة ليقضي القاضي بينهما. فقضى القاضي ضد السلطان محمد الفاتح. وهذا مثال من الأمثلة الرائعة التي تعبر عن حساسية الإسلام وحرصه على إعطاء الحقوق لأصحابها، وعدم ظلم أحد من الناس.



النقاط الأساسية في الحوار مع غير المسلمين

إن الحياة الدنيا بأكملها هي ساحة للدعوة للإسلام. ففي ظروف زمن النبي الكريم محمد ﷺ، فقد أرسل في ذاك الزمن عدة سفراء لكثير من ملوك الدول، لكي يتبادل معهم الحديث في مواضيع مختلفة. وذهب الصحابة الكرام ﷺ دون أن يشعروا بأي نوع من أنواع التعب، بل كانوا مفعمين بفرحة الدعوة وتبليغ الرسالة، حتى الصين وسمرقند.

وفي يومنا الحاضر، وقد حَلَّت وسائل الاتصال والمواصلات عائق المسافات الطويلة وعقبات التواصل، فعلينا أن نستفيد من هذه الفرصة الثمينة وتوظيفها لصالحنا في الرد على جميع التهم الموجهة ضد الدين الإسلامي، بأنه دين إرهابي. وعلينا أن نبين للناس أجمعين بأن الإسلام هو دين المحبة والتسامح والصلح والسلام. وأن سيدنا محمداً ﷺ قد قضى فترة لا بأس فيها من حياة الرسالة التي دامت ثلاثة وعشرين عاما، في ردع الإرهاب، وإنهاء مشاكل الدم والثأر بين القبائل. وعلينا أيضا أن نبين للجميع أن الإسلام هو دين يسعى لنشر العدل والمساواة بين الناس، ويؤدي كل ذي حق حقه. وهو دين الحضارة والإنسانية الرفيعة. لذا فإن اجتماعنا مع غير المسلمين وتبادل الحديث معهم هو شرط أساسي وواجب علينا. ويجب علينا أثناء تبادل الحديث معهم أن نحرص بشكل خاص على النقاط التالية:



١– يجب أن لا ننسى أبدا أن الدين عند الله ﷻهو دين الإسلام فقط. أما اليهودية والنصرانية، فهما أديان حق في الأساس، ولكنهما حُرفا وتبدلا مع مرور الزمن وجرت فيهما تحريفات وتبديلات كثيرة لا تَمُتُّ الى الحقيقة بصلَة. ونتيجة هذه التحريفات مالَ الدين المسيحي إلى الاعتقاد (التَثَلَيثيً). أما الدين اليهودي فقد اكتسب حالة (الأنتروبومورفية)، أي تجسيم الوجود الإلهي في صورة بشر. أما الإسلام فهو دين التوحيد والإيمان القويّ بوحدانية الله ﷻ والعقيدة الإسلامية التي تدعو الى الإيمان بالله الواحد الأحد الصمد وبيوم الحساب والجزاء يوم أن نلقى الله ﷻ. لذا فلا يمكن أبدا وضع الإسلام في نفس الكفة مع الأديان الأخرى. ولا مكان لأي محاولة للتأليف بينه وبين تلك الأديان.

٢– أما النقطة الأخرى ذات الأهمية، هي الحفاظ على الصدق والإخلاص. ومثالا على ذلك، فقد ورد في القرآن الكريم تبادل سيدنا موسى عليه السلام الحديث مع فرعون.

حيث أن سيدنا موسى عليه السلام ذهب إلى فرعون ليبلغه، وخاطبه بأسلوب لين ولسان عذب. ولكنه في حديثه معه، لم يتسامح أبدا في أي حد شرعي من حدود الله ﷻ. وبسبب إخلاصه وصدقه في الدعوة، فقد نال سحرة فرعون الذين طلب منهم أن يبارزوا سيدنا موسى شرف الإيمان، وشرف الثبات عليه على الرغم من تهديدات فرعون بالقتل.

٣ – لقد لقننا الإسلام طُرقاً ووسائل مشروعة ومباحة للوصول إلى الأهداف المباحة أيضاً. فلا يمكن الوصول إلى هدف مباح



بوسيلة غير مباحة. وهذا من أهم حساسيات الإسلام. وإن حياة سيدنا محمد ﷺ التي دامت ثلاثاً وعشرين عاما هي أكبر وأصدق دليل على ذلك. فلم يلجأ عليه الصلاة والسلام أثناء تبليغه الدعوة إلى أي وسيلة لم يرض الله ﷻ عنها.

وإن أكثر الأمثلة المليئة بالعبر والحكم في هذا الخصوص هو ما حدث في معركة بدر. فكما لا يخفى على أحد، أن عدد المسلمين في تلك المعركة كان ثلث عدد الكفار.

خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ بَدْرٍ فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَأَوْهُ فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِئْتُ لِأَتَّبِعَكَ وَأُصِيبَ مَعَكَ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ قَالَ لَا قَالَ فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ قَالَتْ ثُمَّ مَضَى حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ قَالَ فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ قَالَ ثُمَّ رَجَعَ فَأَدْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ قَالَ نَعَمْ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَانْطَلِقْ (مسلم، الجهاد، ١٥٠)

لذا فيجب علينا أن لا نتنازل عن أي شيء في أحكام الله ﷻ، وسنة رسوله وحبيبه ﷺ، وفي حساسية التبليغ. ويجب علينا أن لا ننسى أن أي تنازل بسيط في هذه المواضيع سوف يلحق الأذى



والضرر بالإيمان.وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء، ٨٠)

وورد في آية كريمة أخرى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الحجرات، ١)

ومن جانب آخر، يجب علينا أن لا ننسى أن التنازلات التي يقدمها المسلمون في أحاديثهم مع غير المسلمين تخص الأشخاص الذين وقعوا في ذلك الخطأ. فيجب علينا في مثل هذه الحوادث الانفرادية أن نتجنب توجيه التهم القاسية للمجتمعات التي يعيش فيها أناس يتميزون بالإستقامة، وامتلأت قلوبهم بالإيمان. لأن مثل هذه التصرفات المزعجة تحرج المؤمنين الذين يحرصون على تبليغ الرسالة ضمن اهتمامهم البالغ بالحساسيات الإسلامية.

اللهم لا تحرم قلوبنا من هذه الحساسيات.

وحبّب إلينا اللّهم الإسلام وزين قلوبنا بمحبة الإيمان.

وكره إلينا اللهم الكفر والفسوق والمعصية، وأبعدنا اللهم عن كل ما يغضبك وقربنا من كل ما يرضيك كما يليق بك ورسولك محمد عليه الصلاة والسلام. وألحقنا اللهم بزمرة عبادك الصالحين الذين جعلتهم مفتاحا للخير وقفلا للشر...آميـــن



تذكر الزوال والفناء دائماً

في أي مشهد ووضع سيتم فيه لقاؤنا المؤكد مع ملك الموت، هل سنقابله أثناء السجود؟ أم أثناء قيامنا بمعصية أوبعمل خاطئ؟. فلنتأمل ولنفكر دائماً بالجملة الأخيرة التي سينطقها لساننا قيل الموت.

قال سيدنا جنيد البغدادي:

"إن يوما واحدا من الحياة الدنيا هو أفضل وأخير من ألف سنة في الآخرة. لأنه في ذلك اليوم الواحد في الحياة الدنيا لديك فرصة للحصول على الرضاء الإلهي. أما في الآخرة فليس لديك فرصة لكي تقوم بأي عمل صالح وتحصل على ثوابه. ولا يوجد في الآخرة إلا الحساب والسؤال عن العمر الذي قضيته وأفنيته".

تذكر الزوال والفناء دائماً

إن أكبر وأصعب عقبة يجب على الإنسان أن يتجاوزها في امتحان الحياة الدنيا هي: (إبليس). والعقبة الثانية صعوبة هي:(النفس). والنفس تذكر الإنسان عادة بالتوجه السلبي والمنحرف، كالقيام بالمعاصي والإبتعاد عن ذكر الله ﷻ. وإن معظم تلك التوجهات السلبية في حياة الإنسان تنبع من الرغبتين الموجودتين في طبيعته، رغبة: (الإعتراض على الزوال) ، ورغبة: (البقاء الأبدي).

وفي الحقيقة، فإن الإنسان لا يرغب أبداً بأن تزول النعم التي حصل عليها، ويتمنى دائماً أن يعيش في الحياة الدنيا إلى الأبد دون أن يقابل الموت. فبعض الناس يجدون الأبدية في أن يكونوا أصحاب ولد وتلد، ويرغبون بأن يستمر نسلهم حتى يوم القيامة. والبعض الآخر من الناس يجد الأبدية في اهتمامه الزائد والمبالغ بجسده وبمظهره الخارجي، فيرغب بالعيش لقرون طويلة. والبعض يجدها في ترك مؤلفات وآثار أدبية لتدوم من بعده إلى الأبد، فيرغب بأن يبقى اسمه شامخاً حتى بعد موته. وهناك البعض الذين يبحثون عن الأبدية في جمع المال، واقتناء الثروات، وشراء الأملاك، فيعتمد هؤلاء على قوتهم المادية ونفوذهم، ويرغب في أن تكون أملاكه وثرواته سندا له في وجوده وكيانه.



وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ (الهمزة، ٣)

مع العلم أن البحث عن الأبدية وعدم الزوال في هذه الحياة الدنيا، والإعتقاد بأن النعم التي اكتسبت لن تزول، وأن الأيام السعيدة لن تنتهي، إنما ذلك هو حلم بعيد عن الواقعية، وهذا أمل لن يتحقق، وهو كالإنخداع بالسراب في الصحراء.

حيث قال أحد أولياء الحق ﷻ:

«لا تطلب الأبدية من الدنيا، إنها لا تملكها فكيف تعطيك إياها».

لذا يجب علينا أن لا ننسى أبداً أننا وجدنا في هذه الحياة الدنيا كضيوف، وأن بطاقة عمرنا سوف تنتهي مدتها في يوم مجهول بالنسبة لنا، وأن الحياة الأبدية هي حياة الآخرة. حيث أن الله جَلَّ جَلَالُهُ لم يُنج أي كائن أو مخلوق من الزوال.

وإن نسيان الإنسان للزوال هو حماقة كحماقة من يدفن رأسه في التراب معتقداً بأنه قد نجا من الخطر بعدم رؤيته إياه. ولكن ومع الأسف الشديد، فإن موقف وتصرف أكثر بني البشر تجاه الموت والزوال ليس مختلفاً عن ذلك التشبيه. فكثير من الناس يعيشون حياتهم بشكل يغضب الله ﷻ ويبغضه. بدلاً من أن يجملوها بأن يكونوا عبادا صالحين ومقربين لربهم ﷻ.



حقيقتان متضادتانِ

قال وهب بن منبه كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه بعد مرات وكذلك طلب دابة فأتى بها فلم تعجبه حتى أتى بدواب فركب أحسنها فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة فملأه كبرا

ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبرا فجاءه رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد عليه السلام فأخذ بلجام دابته فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت أمر عظيماً قال إن لي إليك حاجة قال اصبر حتى أنزل قال لا الآن فقهره على لجام دابته فقال أذكرها قال هو سر فأدنى له رأسه فساره وقال أنا ملك الموت فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضي حاجتي وأودعهم قال لا والله لا ترى أهلك وثقلك أبداً فقبض روحه فخر كأنه خشبة ثم مضى فلقي عبداً مؤمناً في تلك الحال فسلم عليه فرد السلام فقال إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك فقال هات فساره وقال أنا ملك الموت فقال أهلاً ومرحباً بمن طالت غيبته على فوالله ما كان في الأرض غائب أحب إلى أن ألقاه منك فقال ملك الموت اقض حاجتك التي خرجت لها فقال مالي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى قال فاختر على أي حال شئت أن أقبض روحك فقال تقدر على ذلك قال نعم إني أمرت بذلك قال فدعني حتى اتوضأ وأصلي ثم اقبض روحي وأنا ساجد فقبض روحه وهو ساجد. (الغزالي، إحياء علوم الدين، ٤، ٤٦٧)



وقد صور مولانا جلال الدين الرومي موت عشاق الله ﷻ أجمل تصوير، حيث قال:

«إن موت الجسد هو هدية إلهية لأهل السر. فهل يمكن للمقص بأن يلحق الأذى بالذهب الخالص؟».

وهكذا فقد شاهدنا مظهرا مريعا للحظة انتهاء الحياة التي قضيت في غفلة وتمتع وعدم تقيد بأوامر الله ﷻ... أما من الناحية الأخرى فقد شاهدنا رمقاً أخيراً متميزاً بالطمأنينة والسكينة والراحة، وبعيدا عن الخوف والهم، ومستعدا دائما للقاء ربه ﷻ، بالأعمال الصالحة والحسنة التي قدمت ضمن الشعور والوعي التام بحقيقة الزوال والفناء. وهكذا فإن الموت عبارة عن فزع وهلع متجسد في الكوابيس والرؤى السيئة بالنسبة لبعض الناس. وهو عبارة عن ليلة الزفاف – على حسب تعبير سيدنا جلال الدين لرومي – للبعض الآخر من الناس، حيث يلتقي العبد في ذلك اليوم بربه.

ونحن بدورنا، يجب علينا أن نتأمل دائماً ونتفكر في أي مشهد ووضع سيتم فيه لقاؤنا المؤكد مع ملك الموت، هل سنقابله أثناء السجود؟ أم أثناء قيامنا بمعصية أوبعمل خاطئ؟. ولنتأمل ولنفكر دائماً بالجملة الأخيرة التي سينطقها لساننا قبل الموت.



ابكِ عل نفسك، لا على الميت

قال سيدنا حسن البصري:

«إن سيدنا عزرائيل عليه السلام لا يقبض إلا روح من نفد رزقه وانتهى عمره. فيبكي وينوح أهل بيته على موته. أما عزرائيل عليه السلام فيقول بلسان الحال: (لم تبكون؟، فإني لم آكل شيئاً من رزق هذا الرجل. ولم أقطع من عمره يوماً. لقد نفد رزقه وانتهى عمره، وصار أمر الله جل جلاله واقعاً. وجاءني الأمر الإلهي فقبضت على روحه. فلا تبكوا دون جدوى. فإني سآتي إلى هنا دائماً، وسأقبض على أرواحكم جميعاً دون أن أترك أحدا منكم)».ثم تابع سيدنا حسن البصري قائلا:

«ولو استطاع أهل البيت أن يروا سيّدنا عزرائيل عليه السلام، ويستمعون إلى ما قاله، لتركوا الميت ونسوه، وبكوا على أنفسهم».

وإن الله عز وجل صاحب الحكمة في كل أمر يقضيه، جعل وقت الأجل مخفياً بستارة سرية. حتى لا ننسى الموت أبداً، وأن نكون على استعداد تام له، دون أن نقصر في أداء الأعمال الدنيوية التي تتوجبها المعيشة وظروف الحياة. وذلك من رحمة الخالق عز وجل على عباده.

فلوعلم الإنسان مسبقاً وقت وفاته، لترك من حزنه وهمه القيام بأي عمل أوالسعي في تحقيق أي هدف، ولنسي حتى عائلته وأولاده. ولفقدت الحياة نظامها وترتيبها. ولو عرف الناس ماذا سيحدث في المستقبل مسبقا،، لما كان بإمكانهم أن يسعدوا أو



يجدوا النشوة في الشعور بالطمأنينة و السكينة و الراحة عندما يتغلبون على مصاعب الحياة و مشقاتها . و لو عرفت أم مسبقا أن ابنها سيموت شابا ، أو أنه سيكون رجلا سيئا و شرسا في المستقبل لقضت حياتها حزينة و مضطربة دائما .

لذا فإن عدم معرفة العبد لحظة موته ، هو رحمة و لطف من الله سبحانه و تعالى . لأن الخالق عز و جل خلق الحياة الدنيا بناء على حكمة الامتحان ، و جعل " القدر " و " الأجل " مجهولين بناء على الحكمة ذاتها . لذا فمن الضروري على الإنسان أن يكون في أي لحظة و مكان مستعدا للموت .

و ورد في الآية الكريمة :

" كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ " (العنكبوت ، ٧٥)

و كثير هي الآيات الكريمات المشابهة لهذه الآية ، و التي هي كلها عبارة عن تذكير و تنبيه من قبل الله سبحانه و تعالى لنا في القرآن الكريم ، لكي نتجنب و نحرص على أن لا نغرق في سيول شهواتنا ، و غرائزنا النفسية و الشيطانية .

وقد حرص أجدادنا العثمانيون على هذا الموضوع حرصاً شديداً . فجعلوا المقابر في أوساط المدن ، أو أمام المساجد . حتى يرى كل من يمر من أمامها مستقبله و حالته التي سيؤول إليها . و يستخلص من ذلك درس الفناء و الزوال لكي يصلح نفسه ، و يعمل الأعمال الصالحة ، و يبتعد عن المعاصي و السيئات .



و الموت الذي يصادفنا و نسمع عنه كثيرا ، و نشاهده من حولنا ، يجب أن ندرك أنه حق . و إننا مجبرين على أن نستوعب هذه الحقيقة و نعتبر بها .

و كما ورد في الحديث الشريف أن سيدنا محمدا صلى الله عليه و سلم قال :

"أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ" يعني الموت (الترمذي، الزهد، ٤)

و ورد في حديث شريف آخر ، أن النبي صلى الله عليه و سلم قال ، مشيراً إلى الناحية التربوية للصلاة بخصوص تفكر الموت :

"إذا قمت في صلاتك فصل مودع" (ابن ماجة، الزهد، ٥١)

أي أن عبادة الصلاة هي عبارة عن طريق سفر معنوي، من حياتنا الدنيوية المؤقتة التي نعيش فيها ، إلى الحياة الأساسية و الدائمة ، الحياة الآخرة. وهي عبارة عن تقديم العبودية و الوفاء والتسليم الكامل و الإطاعة لله ﷻ خمس مرات في اليوم. وهي عبارة عن تربية للروح من قبيل أخذ جزء من لقاء الخالق ﷻ أثناء العيش في الحياة الدنيا التي هي بمثابة ديار الغربة بالنسبة للمؤمنين .

والصلاة من هذه الناحية هي معراج للمؤمنين بين الحياة الدنيا والآخرة . والمؤمن الذي يقيم صلاته بخشوع و تطبيق تام للأركان ، ثم يعود بعدها إلى عمله و مشاغله اليومية بالأمور الدنيوية ، هو الذي يعيش حياته في جو من الطمأنينة الروحية . و كأنه بعث إلى الحياة من جديد بعد موته . و تلك الصلاة التي تقام بصدق و إخلاص لله



ﷻ، تحمي الإنسان من المنكر و الفحشاء . و هي تعليم جيد و مثالي للتفكر و التأمل بالموت وإن المؤمنين الذين يقيمون صلواتهم كمن يصلي مودعا للحياة الدنيا، فيعيشون وكأنهم ينظرون إلى كل شيء من نافذة الآخرة. فهل من المعقول أن يكون الشيطان رفيقا لمثل هؤلاء الناس الذين وصلوا إلى درجة النضوج المعنوي والروحي في رحلة حياتهم؟. وهل يمكن أن يخسروا قلوبهم مقابل غريزة بشرية فانية؟!.

وسئل يوما سيدنا إبراهيم بن أدهم السؤال التالي:

«لماذا لا يقبل منا دعاؤنا التي ندعو به الله ﷻ ؟».

فقال سيدنا إبراهيم بن أدهم:

«إنكم تعرفون الله ﷻ، ولكنكم لا تتمسكون بأوامره. وتعرفون نبيه محمدا ﷺ، ولكنكم لا تتبعون سنته الشريفة. وتقرؤون القرآن الكريم، ولكنكم لا تعملون به. وتأكلون وتشربون مما رزقكم الله ﷻ من نعم، ولكنكم لا تشكرونه ولا تحمدونه. وتعرفون الجنة، ولكنكم لا تسعون جاهدين للفوز بها. وتعرفون النار، ولكنكم لا تتأهبون لها. وتقولون أن الموت حق، ولكنكم لا تهيئون أنفسكم له. وتضعون آباءكم وأمهاتكم بأيديكم في القبور، ولكنكم لا تعتبرون. فإذا كان حالكم على ذلك، فكيف يمكن أن يستجاب دعاء أحد يعيش في غفلة شديدة كهذه ؟!» (تذكرة الأولياء، ص: ٤٠)

وهكذا فإن لم يُقرأ درس الموت كما يجب، ولم تؤخذ العبرة المطلوبة، فيكون التجهيز للأجل والموت قد أهمل إهمالاً شديداً.



أهم مجهول في الحياة: الرمق الأخير

إن أولياء الحق ﷻ الذين يعيشون بقلب حكيم وعارف ومؤمن بربه ﷻ، يقضون أعمارهم متميزين بالنضوج الروحي والمعنوي الذي يدفعهم للتفكر والتأمل بالموت. وقلقين من المجهول الأعظم في حياتهم، وهو الرمق الأخير. لأنهم يعرفون عز المعرفة أن الشيطان الذي يسعى طوال حياة الإنسان إلى إضلاله وإزاغة قلبه، فهو يتسلط بشراهة أكبر على الشخص الذي ينازع في رمقه الأخير. فمن وجد في قلبه ترددا أوشبهةً، فسوف يحاول الشيطان أن يضله عن طريق الصواب، ويجعله أسيراً للكفر والعياذ بالله. ثم يترك ذلك الإنسان لوحده مع حالته السيئة التي آل إليها، ويذهب بعيداً عنه.

وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الحشر، ١٦)

ولهذا السبب، فنأمل من الله ﷻ أن يجعلنا محتفظين على إخلاصنا تجاهه في رمقنا الأخير. وإن آخر منعطف في ممر الأجل الذي سيمر منه جميع الناس في طريق سفر حياتهم، هو منعطف وعر وخطير. لذا يجب أن يكون همنا الأكبر وقلقنا الأعظم هو أن نكون قادرين على السير بسلامة في هذا الطريق، والعبور بأمان من ذلك المنعطف الخطر.



وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران، ١٠٢)

عَنْ أُمِّ الْعَلَاءِ قَالَتْ طَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ فِي السُّكْنَى حِينَ اقْتَرَعَتْ الْأَنْصَارُ عَلَى سُكْنَى الْمُهَاجِرِينَ فَاشْتَكَى فَمَرَّضْنَاهُ حَتَّى تُوُفِّيَ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ فِي أَثْوَابِهِ فَدَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ قَالَ وَمَا يُدْرِيكِ قُلْتُ لَا أَدْرِي وَاللَّهِ قَالَ أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ مِنْ اللَّهِ وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ قَالَتْ أُمُّ الْعَلَاءِ فَوَاللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ قَالَتْ وَرَأَيْتُ لِعُثْمَانَ فِي النَّوْمِ عَيْنًا تَجْرِي فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ ذَاكِ عَمَلُهُ يَجْرِي لَهُ (البخاري، التعبير، ٢٧)

لذا فإنه من المستحيل أن نعرف على أي حال سنموت. فذلك مجهول بالنسبة لكل بني البشر. ويجب على الذين لم تقبض أرواحهم بعد، أن يتجنبوا الحكم القطعي والجزم تجاه أحد من الأموات. ويجب عليهم أن يدعوا الله ﷻ له بأن يتغمده برحمته ويحسن إليه، ويقوموا بالأعمال الحسنة والخيرة على روحه.

وورد في الحديث الشريف أن سيدنا محمداً ﷺ قال:

"يَمُوتُ المرء عَلى مَا عَاشَ عَلَيْهِ وَ يُحْشَرُ عَلي مَا مَاتَ عَلَيه"

(المناوي، فيض القدير، ٥، ٦٦٣).



والحال على الأغلب بهذا الشكل. وليس بمقدور أحد أن يكون مطمئناً بخصوص الرمق الأخير، إلا الأنبياء ومن بشرهم الأنبياء. أي يجب على الشخص أن لا يعتمد على أعماله الخيرة والحسنة، وعلى الثواب والأجر الذي اكتسبه، وعلى صدقه وإخلاصه في حياته، حتى تلك اللحظة الأخيرة من عمره. ويجب عليه أن يعرف عز المعرفة أن الملجأ والمنجى الوحيد الذي يجب أن يحتمي به ويعتمد عليه هو الله ﷻ. فيجب عليه أن يلتجئ إليه ويحتمي به وذلك بإطاعته لأوامر ربه ﷻ وابتعاده عن نواهيه.

ويجب أن لا ننسى أن أعمالنا الصالحة التي نقوم بها في سبيل الله ﷻ هي كالدعاء والتضرع، وهي بحاجة إلى قبول واستجابة من قبله ﷻ. وكما ورد في الحديث الشريف في خصوص الرمق الأخير الذي هو أعظم مجهول بالنسبة للإنسان، أن النبي ﷺ قال:

"إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم عمله بعمل أهل النار وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة" (مسلم، القدر، ١١)

وقد لقب أحد أولياء الحق ﷻ ويدعى عليا بالبكّاء (أي الذي يبكي كثيرا)، فيروى أن سبب حصوله على اللقب هو على الشكل التالي:

كان لديه صديق صالح مثله، وولي من أولياء الله ﷻ. وكان ذو كرامات وأحوال طيبة مباركة. وخرجوا يوماً في سفر سوية. وكان المكان الذي يودون الذهاب إليه يبعد مسافة عام كامل مشياً



على الأقدام. فقطعوا تلك المسافة الطويلة خلال ساعة واحدة بكرامتهم. فقال له صديقه ذاك يوصيه: «إني سأموت في المكان الفلاني وفي الساعة الفلانية. فكن بجانبي في ذلك الوقت». ولكن روحه قبضت وكان رمقه الأخير بعيداً عن الإيمان.

لذا، وبعد هذه الحادثة المؤلمة والحزينة، بَدأ سيدنا علي البكاء يبكي كثيراً، خوفاً من أن لا ينال رضا الله سبحانه وتعالى، وقلقا بأن لا يموت على الإيمان في رمقه الأخير.

لذا فيجب على المؤمن أن يكون قلبه في نقطة التوازن بين شعور الخوف وشعور الأمل، بخصوص موضوع الرمق الأخير.

وكان أحمد بن عاصم الأنطاكي - رحمة الله عليه - يجيب على شخصٍ طلب منه النصيحة. فنصحه قائلاً:

«إن الخوف الأكثر فائدة هو الذي يجبر الإنسان على الإبتعاد عن المعاصي، والأعمال التي تغضب الله ﷻ. وهو الذي يجعل الإنسان غارقاً في الحزن عندما يفوته عمل من أعمال الآخرة. وهو الذي يوجه الإنسان إلى التفكر بعمره المتبقي، وحالة رمقه الأخير».

وقال سيدنا محمد بن معصوم الفاروقي:

إن الخوف من الرمق الأخير نعمة. حيث أن أولياء الحق ﷻ قد أسروا من قبل هذا الهم ”.

وهكذا، فإن من يعش حياته في خوف وقلق من الرمق الأخير،



إضافة إلى تحليه بالأخلاق الحميدة ونشوة العبادة ووجد الإيمان، فقد وعد من قِبَل الله ﷻ بأنه سيحميه من خوف يوم القيامة وحزنه وقلقه. فكما ورد في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت، ٣٠).

ماذا ستكون عاقبتك؟

كان للشيخ أحمد حرب جار مجوسي (أي من عبدة النار)، وكان يدعى (بهرام). فنصح سيدنا أحمد حرب يوماً جاره بنصائح الإيمان. فقال له المجوسي الهرم:

«يا شيخ المسلمين.. دعني أسألك ثلاثة أسئلة، فإن أجبت فسوف أؤمن بدينك».

فقال له الشيخ أحمد: « فاسأل إذاً».

فسأله بهرام قائلاً:

«لماذا خلق الله بني البشر؟. ومع أنه أعطاهم رزقهم، فلماذا يقتلهم ويميتهم؟. وبما أنه يميتهم فلماذا يبعثهم؟».

فأجابه الشيخ احمد على أسئلته بهذه الإجابة:

«لقد خلق الله ﷻ بني البشر لكي يعلموا وجوده ووحدانيته. ويكونوا في إدراك ووعي تام على أن العظمة والقدرة له وحده.



وأعطاهم رزقهم ليعلموا أنه رزاق ورحيم. ويميتهم لكي يعلموا انه قهار. ويبعثهم مرة أخرى لكي يعلموا أنه باق ولا يموت. وبالنتيجة، لكي يعرفوا في كل مجال من مجالات الحياة، وفي كل حادثة تحدث، أن الله ﷻ قادر على كل شيء قدرة مطلقة لا يمتلكها أحد سواه».

وعندما سمع بهرام حديث الشيخ أحمد دخل في الإسلام. ولكن في تلك اللحظة أغمي على الشيخ أحمد. وعندما أفاق سئل: «ماذا حدث لك يا شيخ؟».

فقال: «لقد جاءني في تلك اللحظة خطابٌ قائلا: (إن بهرام كان كافرا يعبد النار لفترة سبعين سنة. وأنت مسلم منذ سبعين سنة. فهل بإمكانك أن تعرف ما ستؤول إليه حالك في رمقك الأخير؟» (تذكرة الأولياء، ص: ٩٧)

لذا يجب علينا أن نسعى لكي نعيش كل لحظة من لحظات حياتنا، بحيث أن تكون آخر لحظة منها هي عبارة عن خاتمة للخير والحسنات. وإضافة لذلك، يجب أن نلجأ دائما إلى رحمة الله ﷻ ومغفرته لكي ننجونجاة أبدية.

رأى يوما سيدنا جنيد البغدادي كلباً للصيد بينما كان يمشي في صحاري اليمن. ورأى أن أسنان الكلب قد تساقطت، ولم يبق في مخالبه التي كانت تصارع الأسود قوة ولا حيلة. وقد هرم وآلت حالته إلى حالة الثعلب. وصار يُنطح من قبل الخرفان الأهلية، بينما كان في الماضي ينقض على الثيران البرية والغزلان ويمسك بها.



وعندما رأى جنيد البغدادي ذلك الكلب بوضعه المسكين والمتعب والذي لم يبق لديه طاقة ليتحرك، أعطاه جزءً من زاده. وحزن كثيراً على حال ذلك الكلب وتأثر، فسرد هذه الكلمات المعبرة والمليئة بالحكم والدروس، فقال:

«يا أيها الكلب.. إني لا أدري من منا ستكون حالته أفضل من حالة الآخر غداً. أما اليوم، فيبدوظاهريا أنني أفضل منك حالاً، لأنني إنسان. ولكني لا أدري ماذا سيفعل بي القضاء والقدر غداً. فإن لم تزل قدمي عن الإيمان والصواب، فسأضع على رأسي تاج عفو الله ﷻ ومغفرته. أما إذا خُلعت كسوة المغفرة عني، فسوف تكون حالتي أوضع وأسفل من حالتك هذه كثيراً. لأن الكلب مهما كان سيئاً في الطبع والمعاملة، فلن يُلقى في النار».

وهكذا فإن المؤمن الذي يحمل في قلبه هذه الحساسية، يعيش حياته الدنيا وكأنه يمشي في حقل مليء بالألغام. ولكي تكون المضافة الأخيرة التي سيذهب إليها في آخر حياته حديقة من حدائق الجنة، فليستسلم تماما ومن كل قلبه لإرشاد المقابر الصامتة. ويصل لدرجة رفيعة من الحكمة، بمعرفته أن الإعداد للموت لا يتم بإعداد القبر، بل بإعداد نفسه لذلك القبر.

وبعد أن توفي سيدنا بهاء الدين النقشبند، رآه أحد محبيه في منامه، فسأله: «ماذا نعمل لكي ننجو؟».



فقال له النقشبند: «اعمل ما يجب أن يموت الإنسان عليه (أي ما يجب أن يعمله الإنسان في رمقه الأخير)».

فإذا جاء موعد الأجل فلن تستطيع أكثر الأيدي مهارة أن تقوم بعمل أي شيء. وبعد ذلك فلا للإنسان أن يعرق أو يتعب، أو يشعر بالبرد، أو يشعر بالكسل، أي جميع الحجج التي تمنع العبد من العبادة والعمل في سبيل الله ﷻ سوف تنتهي وتصل إلى النهاية في تلك اللحظة. فليست هذه اللحظة من اللحظات التي خصصت للعبادة والعمل والجد. بل إنها وقت الحساب الإلهي. أما وقت القيام بالأعمال الصالحة والحسنة في سبيل الله ﷻ هو الحياة الدنيا. فإذا فقد الإنسان هذه الفرصة فلن تعود له أبداً.

قال سيدنا جنيد البغدادي:

«إن يوماً واحداً من الحياة الدنيا هو أفضل وأخير من ألف سنة في الآخرة. لأنه في ذلك اليوم الواحد في الحياة الدنيا لديك فرصة للحصول على الرضاء الإلهي. أما في الآخرة فليس لديك فرصة لكي تقوم بأي عمل صالح وتحصل على ثوابه. ولا يوجد في الآخرة إلا الحساب والسؤال عن العمر الذي قضيته وأفنيته».

فعلى هذا الاعتبار، فإن المؤمنين الحقيقيين يعيشون حياتهم الدنيا على أنها مزرعة للآخرة. وأن الله ﷻ جعل هذه الحياة فرصة لكي يقوموا بالأعمال الخيرة والحسنة.

ويروى أن سيدنا إلياس عليه السلام قد ارتجف عند مقابلة ملك



الموت، فقال له سيدنا عزرائيل عليه السلام:

«إنك نبي يا إلياس، فهل تخاف من الموت؟».

فأجابه سيدنا إلياس قائلاً:

«كلا.. إني لا أخاف من الموت. بل إني حزنت على انتهاء حياتي. لأني كنت أقضيها بالعبادة والتبليغ. وكنت أستاذاً بالعبودية. أما الآن فسأبقى رهيناً في القبر حتى يوم القيامة. وإن ذلك هو الذي يحزنني».

وقد لخص أحد الشعراء واجبات المؤمن في الحياة الدنيا قائلاً:

ولدتك أمك يا ابن آدم باكياً　　والناس من حولك يضحكون سروراً

فاجهد لنفســك أن تكون إذاً　　في يوم موتك ضاحكاً مسروراً

وهكذا فيجب علينا أن نغلق دفتر حياتنا، تاركين من ورائنا صدى جميلا في السماء العليا، وذلك بالعمل الصالح، وبإطاعة الله جل جلاله. وعلينا أن لا ننسى أن أكبر سعادة لنا هي أن نلقى ربنا بقلب سليم ووجه منير وضمير مستريح. وذلك بإلزام أرواحنا أن تتقيد بالحالة الروحانية التي تميز بها الصالحون.

ويوجد في لغتنا التركية الجميلة قول حكيم مأثور وهو:«من يضحك أخيرا، يضحك كثيرا». والمقصود من هذا القول، هو أنه لا تبسم يعلوعلى تبسم المؤمن عندما يموت، وترتفع الستائر، ويرى مكانه الذي سيذهب إليه.



وإن أسعد ابتسامة للعبد في هذه الحياة الدنيا وأجملها وأفضلها معنى ومضموناً، هي الابتسامة في تلك اللحظة الأخيرة.

اللهم اجعلنا ممن يضحكون في رمقهم الأخير بفضلك وكرمك وجودك يا أكرم الأكرمين.

وأوسعنا اللهم على محاسبة أنفسنا بالحكمة، وإصلاحها بالأعمال الحسنة. وهبنا اللهم القدرة على تذوق لذة لقائك في رمقنا الأخير.

ويسر اللهم لنا وصولنا إلى يوم القيامة بسعادة وفرحة أيام العيد، وبعيدين عن الخوف والحزن والقلق...آميـــن







تفضيل الآخرة على الحياة الدنيا

إن المؤمن مجبر على أن يدفع لله ﷻ بدل الشكر والثناء، على جميع النعم التي أحسنها إليه، وخاصة نعمة -الإيمان-.

لأن التفكير بادعاء تملّك شيء لم يدفع بدله، هو عبث ومضيعة للوقت.

وإن حال من انجذب لشهوات الحياة الدنيا الفانية، ونسي مسؤوليته في دفع بدل نعمة الإيمان، هو كحال السمكة التي علقت في صنارة الصيد. حيث أن تلك السمكة قد انخدعت بالطعم الذي رأته. ولكنها لم تر تلك الصنارة التي اختبأت خلف ذلك الطعم. وهكذا، فإن من نسي أن الحياة الأساسية هي الآخرة، فلن ينجومن الوقوع في كمائن الحياة الدنيا.

تفضيل الآخرة على الحياة الدنيا

إن المؤمن يشعر بالإمتنان تجاه من يقدم له مساعدة حسب ما يقتضيه إيمانه. فيشكره ويدعو له بالخير. وعندما تساعده الظروف ويجد الفرصة المناسبة، يرغب في أن يقابل تلك المساعدة وذلك الخير بخير أفضل منه. وكل ما يُقَدم للإنسان طيب وجميل ومحبوب ولو كان المقدّم كأساً من الماء، فإنه يستحق الشكر والثناء .

وورد في الآية الكريمة:

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النحل،١٨)

ولا شك في أن أكبر هذه النعم وأفضلها على الإطلاق هي نعمة (الإيمان). وكما أن لكل نعمة بدل ومقابل، فإن بدل نعمة الإيمان هو أن يعيش العبد حياة مبنية على الحمد والشكر لله ﷻ والثناء عليه، ومبنية أيضاً على الإخلاص والتقوى.

وإن المؤمن مجبر على أن يدفع لله ﷮ بدل الشكر والثناء، على جميع النعم التي أحسنها إليه، وخاصة نعمة (الإيمان). لأن التفكير بادعاء تملك شيء لم يدفع بدله، هو عبث ومضيعة للوقت.



إن نعمة الإيمان هي أكبر رحمة ولطف من الله ﷻ. والإمتحان الذي يتعرض له الناس في الحياة الدنيا هو معيار يقيس نسبة معرفتهم لهذه النعمة، وقدرتهم على الحفاظ عليها، وعدم التفريط بها. والمنتظر والمراد من المؤمنين هو الحفاظ على إيمانهم بصبر وجلد على ظروف الحياة الكثيرة التغير. وذلك هو في نفس الوقت بدل يدفعه المؤمن لنيل المكافآت الإلهية.

وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة، ١١١)

إن الوقت الذي يمضي في الحياة الدنيا قصير جداً لدرجة أنه لا يعادل حتى قطرة أوذرة واحدة مقابل أبدية الآخرة. ولكن نتيجة الإمتحان الدنيوي هي إما الجنة التي هي السعادة الأبدية، أو نار جهنم وبئس المصير، التي هي دار العذاب الأبدي. وإن تفضيل العبد للآخرة أو الدنيا هو ما يحدد اتجاه طريقه يوم القيامة. إما النعيم الأبدي، أوالعذاب الأبدي.

لذا فإنه لا حماقة ولا انخداع أكثر من أن يغفل الإنسان عن تفضيل الآخرة على كل شيء خلال حياته الدنيا القصيرة.



وإن أولياء الحق جَلَّ جَلالُهُ قد استيقظوا من الغفلة بنور تقربهم إلى ربهم عَزَّ وَجَلَّ، فيقرؤون كل حرف من كتاب الكائنات بعين القلب ونظر الحكمة. ويدركون تماماً أن جميع المخلوقات قد خلقت ووجدت لغاية وهدف رفيع. وأن الله عَزَّ وَجَلَّ لم يخلق شيئاً عبثاً على الإطلاق. وأن كل يوم يمضي في الحياة، يُنْزَعُ ورقة من ورقات تقويم عمر الإنسان، ويقربه إلى القبر خطوة. ويتفكرون ويتأملون في النعم التي وهبنا إياها ربنا جَلَّ جَلالُهُ. فيطرحون على أنفسهم بعض الأسئلة المعبرة والمفعمة بالحكمة، فمثلا، ما حكمة نعمة الحياة وما معناها؟، ولماذا جعلت الدنيا مسيّرة تحت أمر بني البشر؟. ومن أين أتينا إلى هذه الحياة الدنيا التي هي عبارة عن مضافة ذات بابين، وقد دخلنا إليها من باب، فإلى أين ستكون وجهتنا عندما نخرج من الباب الآخر؟. وبهذه الأسئلة وما شابهها من الأسئلة الحكيمة والمليئة بالعبر والدروس، يعيشون حياتهم بحالة روحية حساسة وعميقة.

علامة القلب السليم

لقد أخبرنا الله عَزَّ وَجَلَّ في القرآن الكريم عن أهم شيء سنحتاج إليه يوم القيامة، كما ورد في الآيات الكريمة أنه عَزَّ وَجَلَّ قال:

﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ. إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ (الشعراء، ٨٨-٨٩)

والقدرة على الوصول إلى مرتبة القلب السليم متعلقة باستعدادنا للسفر إلى الآخرة، قبل استلام بطاقة دعوة الذهاب إلى عالم القبور. ولهذا فيجب على المؤمن أن ينقي قلبه من كل ما يُبعده عن الله ﷻ، أي أن يُطهره وينظفه من كل الشوائب. وأن يحرص على أن تكون كل نعمة أحسنت إليه في الحياة الدنيا رأس مال للسعادة والسلامة في الآخرة.

وقد عبر أولياء الحق ﷻ عن أهم صفتين للقلب السليم بالشكل التالي:

١- عدم إيذاء أحد، وعدم التأذي من قبل أحد. لأن قلب المؤمن هو الذي يعكس تفكيره وأسلوب معيشته.

٢- تفضيل الآخرة عندما تتخالف أعمالها مع مصالح الحياة الدنيا.

إن المؤمن الذي يصل بقلبه السليم إلى الكمال من الناحية الأخلاقية، يصعد شعور البقاء مع الله ﷻ إلى القمة. ويشعر دائماً بنشوة الوجود معه، ويحس بأنه مراقب مراقبة مستمرة بواسطة أجهزة تصوير إلهية من قبل خالقه ﷻ. ويتفكّرُ ويتأمل دائما بآيات القرآن الكريم.

وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ (الحديد، ٤)

وورد في آية كريمة أخرى:

﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ (ق، ١٦)



إن حالة التقوى لدى أولياء الحق ﷻ التي وصلت إلى الذروة، تجعلهم يتابعون سيرهم على نهج مستقيم في طريق سفر الحياة، واضعين دائما نصب أعينهم حقيقة الآخرة التي يذكرهم بها ربهم ﷻ بين الحين والآخر. وهم على وعي ودراية تامتين بأن عليهم أن يكونوا على استعداد في أيّةُ لحظة للتخلي عن جميع المصالح والمنافع الدنيوية. دون أن يصيب حياتهم الآخرة أي ضرر أوأذى.

لوأعطونا الدنيا بما فيها
لما استبدلنا بها عملاً صالحاَ واحدا من أعمال الآخرة

إِنَّ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهَا رِعَاءً يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ جَارِيَتَيْنِ تَذُودَانِ فَسَأَلَهُمَا فَقَالَتَا (لاَ نَسْقِى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ جَائِعاً خَائِفاً لاَ يَأْمَنُ فَسَأَلَ رَبَّهُ وَلَمْ يَسْأَلِ النَّاسَ فَلَمْ يَفْطِنِ الرِّعَاءُ وَفَطِنَتِ الْجَارِيَتَانِ فَلَمَّا رَجَعَتَا إِلَى أَبِيهِمَا أَخْبَرَتَاهُ بِالْقِصَّةِ وَبِقَوْلِهِ . فَقَالَ أَبُوهُمَا –وَهُوَ شُعَيْبٌ– هَذَا رَجُلٌ جَائِعٌ فَقَالَ لإِحْدَاهُمَا اذْهَبِى فَادْعِيهِ . فَلَمَّا أَتَتْهُ عَظَّمَتْهُ وَغَطَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ (إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا). فَشَقَّ عَلَى مُوسَى حِينَ ذَكَرَتْ (أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا) وَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ يَتْبَعَهَا لأَنَّهُ كَانَ بَيْنَ الْجِبَالِ جَائِعاً مُسْتَوْحِشاً



فَلَمَّا تبِعَهَا هَبَّتِ الرِّيحُ فَجَعَلَتْ تَصْفِقُ ثِيَابَهَا عَلَى ظَهْرِهَا فَتَصِفُ لَهُ عَجِيزَتَهَا وَكَانَتْ ذَاتَ عَجُزٍ وَجَعَلَ مُوسَى يَعْرِضُ مَرَّةً وَيَغُضُّ أُخْرَى فَلَمَّا عِيلَ صَبْرُهُ نَادَاهَا يَا أَمَةَ اللَّهِ كُونِى خَلْفِى وَأَرِينِى السَّمْتَ بِقَوْلِكِ . فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى شُعَيْبٍ إِذَا هُوَ بِالْعَشَاءِ مُهَيَّأً فَقَالَ لَهُ شُعَيْبٌ اجْلِسْ يَا شَابُّ فَتَعَشَّ. فَقَالَ لَهُ مُوسَى أَعُوذُ بِاللَّهِ. فَقَالَ لَهُ شُعَيْبٌ لِمَ أَمَا أَنْتَ جَائِعٌ قَالَ بَلَى وَلَكِنِّى أَخَافُ أَنْ يَكُونَ هَذَا عِوَضاً لِمَا سَقَيْتُ لَهُمَا وَأَنَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ لاَ نَبِيعُ شَيْئاً مِنْ دِينِنَا بِمِلْءِ الأَرْضِ ذَهَباً . فَقَالَ لَهُ شُعَيْبٌ لاَ يَا شَابُّ وَلَكِنَّهَا عَادَتِى وَعَادَةُ آبَائِى نُقْرِى الضَّيْفَ وَنُطْعِمُ الطَّعَامَ . فَجَلَسَ مُوسَى فَأَكَلَ. (الدارمي، المقدمة، ٥٦/ ٦٥٣؛ أبو نعيم، حلية الأولياء، ٣، ٢٣٤-٢٣٦)

فهذا مثال رفيع ولا مثيل له يبين انعكاس الإيمان بالآخرة على التصرفات والأعمال التي يقوم بها الصالحون في الحياة الدنيا. وهو تعبير عن فراسة المؤمنين وحكمتهم في عدم استبدال أي عمل من أعمال الآخرة بمتاع الدنيا وما فيها. ولو عرفوا أنهم سيموتون جوعا أو سيهلكون ضعفا.

عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ قَالَ نَادَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِى غَزْوَةِ تَبُوكَ فَخَرَجْتُ إِلَى أَهْلِى فَأَقْبَلْتُ وَقَدْ خَرَجَ أَوَّلُ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَطَفِقْتُ فِى الْمَدِينَةِ أُنَادِى أَلاَ مَنْ يَحْمِلُ رَجُلاً لَهُ سَهْمُهُ فَنَادَى شَيْخٌ مِنَ الأَنْصَارِ قَالَ لَنَا سَهْمُهُ عَلَى أَنْ نَحْمِلَهُ عَقَبَةً وَطَعَامُهُ مَعَنَا قُلْتُ



نَعَمْ. قَالَ فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ تَعَالَى. قَالَ فَخَرَجْتُ مَعَ خَيْرِ صَاحِبٍ حَتَّى أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْنَا فَأَصَابَنِى قَلاَئِصُ فَسُقْتُهُنَّ حَتَّى أَتَيْتُهُ فَخَرَجَ فَقَعَدَ عَلَى حَقِيبَةٍ مِنْ حَقَائِبِ إِبِلِهِ ثُمَّ قَالَ سُقْهُنَّ مُدْبِرَاتٍ. ثُمَّ قَالَ سُقْهُنَّ مُقْبِلاَتٍ. فَقَالَ مَا أَرَى قَلاَئِصَكَ إِلاَّ كِرَامًا - قَالَ - إِنَّمَا هِىَ غَنِيمَتُكَ الَّتِى شَرَطْتُ لَكَ. قَالَ خُذْ قَلاَئِصَكَ يَا ابْنَ أَخِى فَغَيْرَ سَهْمِكَ أَرَدْنَا.

(أبي داود، الجهاد، ١١٣/ ٢٦٧٦)

وهكذا فقد فضل ذلك الأنصاري المبارك الأجر الذي سيناله في الآخرة على أن يمتلك عدداً من الجمال تعتبر من أكثر متاع الدنيا قيمة في ذاك الزمن. وقد عرض لنا بذلك نموذجا عن الدراية والحكمة التي دفعته إلى أن يتخلى عن المنفعة الدنيوية مهما كانت قيمتها المادية، مقابل أن ينال حسنة بما قدمه من خير لوجه الله ﷻ.

وسئل مرة أحد أولياء الحق ﷻ عن ما إذا صادفته حادثة أثرت فيه كثيراً، فقال:

«ضيَّعْتُ في مكة المكرمة صرة من النقود. ولم يبق لدي أي شيء، فصرت في وضع المحتاج. وكنت أنتظر نقوداً سوف ترسل إلي من البصرة، ولكنها تأخرت في المجيء. وطال شعري وكبرت لحيتي كثيراً. فذهبت إلى حلاق وسألته قائلاً:

(إني لا أملك نقوداً.. فهلا حلقت شعري لوجه الله ﷻ؟).

وكان الحلاق في تلك الأثناء مشغول بحلاقة شعر رجل آخر. فأشار لي مباشرة إلى مكان فارغ بجانب ذلك الرجل وقال



لي:(اجلس هنا). وبدأ بحلاقة شعري تاركاً ذاك الرجل الآخر ينتظر. وعندما اعترض الرجل على ذلك. قال الحلاق له:

(لا تؤاخذني يا سيدي.. فإني أحلق شعرك مقابل أجرة. أما هذا الرجل فقد طلب مني ان أحلق شعره لوجه الله ﷻ ورضاه. وإن الأعمال التي تعمل في سبيل الله يجب أن تكون في المقدمة دون انتظار مقابل. وليس بمقدور العباد أن يعرفوا بدل العمل الذي يعمل لوجه الله ﷻ، ولا يمكن لهم أن يدفعوا ذلك البدل).

وبعد أن أنهى الحلاق الحلاقة، وضع بضعة من قطع الذهب في جيبي رغماً عني، وقال: (اقض حوائجك الضرورية، ولا تؤاخذني، فإني لا أملك أكثر من هذا الإمكان).

وبعد مرور فترة من الزمن، وصلتني النقود التي كنت أنتظر مجيئها من البصرة. فأخذت صرة من الذهب لأعطيها لذلك الحلاق. فقال لي:

(لا يمكن أن آخذ هذه الصرة بأي شكل من الأشكال. فإن العمل الذي يعمل لوجه الله ﷻ، لا يمكن للعباد أن يدفعوا بدله. فاذهب في حال سبيلك وتابع مسيرك في أمان الله).

فتسامحنا وتراضينا وذهبت في حال سبيلي، ولكني منذ أربعين سنة وأنا أدعو لذلك الرجل بالخير في وقت الفجر».

وهذه هي فضيلة عدم استبدال أي عمل صالح عمل لوجه الله ﷻ، بالدنيا ومتاعها. وإن تصرف الصالحين بهذه التصرفات الفاضلة



والرفيعة لا يمكن لأصحاب الإدراك السطحي أن يستوعبوها. لأنهم لا يستطيعون حتى رؤية حدود الحلال والحرام بسبب انشغالهم بشراهة الكسب المادي الدنيوي، معتادين على تقييم جميع الأمور بشكل ظاهري ونظري ولا يعتمد إلا على المادة. فالبصيرة الحقيقية التي لا تعني شيئاً دون رضا الله ﷻ هي الفراسة الأساسية والحكمة الجوهرية.

من هو الحكيم فعلاً؟

إن ما يقتضيه المنطق السليم والناضج هو استبدال المصالح الدنيوية المؤقتة والبسيطة والصغيرة بالكسب الذي ستدوم فوائده للأبد. وكما قال الله ﷻ في الآية الكريمة:

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام، ٣٢)

وقد عرف سيدنا محمد ﷺ أولياء الحق ﷻ الحقيقيين بقوله، كما ورد في الحديث الشريف:

"الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله" (الترمذي، القيامة، ٢٥/ ٢٤٥٩)

وهكذا فإن الإقرار والحكم على الإنسان بأنه صاحب عقل سليم، يجب أن يوزن بمقاييس هذه الحقائق. فمقتضى العقل



السليم والمنطق الحكيم هو تفضيل الباقي على الفاني.

وورد في الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال:

"ما الدنيا في الآخرة إلا كما يمشي أحدكم إلى اليم فأدخل إصبعه فيه فما خرج منه فهي الدنيا" (الحاكم، المستدرك، ٧٨٩٨)

وعندما كان الصحابة الكرام ﷷ في عهد مكة المكرمة، تحت ضغط المشركين وظلمهم وحصارهم وسيطرتهم، كانوا يقولون لبعضهم البعض:

«إننا نتحمل جميع المصاعب والمتاعب لكي نستطيع أن نكون عباداً لله ﷻ. أما الكفار الذين يعصون أوامر الله ﷻ، فيتفسحون في الدنيا بعزة واختيال وراحة تامة كما يشاؤن، ويوظفون مصالح الدنيا وخيراتها لفائدتهم كما ترغب أنفسهم».

فبناء على ذلك، أمر الله ﷻ المؤمنين بأن يفضلوا دار العقبى التي هي أخير وأفضل من الحياة الدنيا. فكما ورد في الآيات الكريمة: ﴿**لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ. لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ**﴾ (آل عمران، ١٩٦-١٩٨)

لذا فإننا إذا نظرنا من نافذة الآخرة، لوجدنا أن الراحة الدنيوية والشهوات والملذات هي عبارة عن منفعة قليلة جداً ومؤقتة. فلو



كانت للحياة الدنيا قيمة عند الله ﷻ، لجعل الأنبياء والرسل الذين هم أحب العباد إليه، لجعلهم يعيشون في القصور حياة الراحة والبذخ والترف حتى يوم القيامة. ولكن الله ﷻ قد أرى رسله وعباده الصالحين الوجه الحقيقي للحياة الدنيا الفانية. ووجه قلوبهم إلى دار العقبى الأخيَر والأفضل والأعلى شأنا من الحياة الدنيا.

وورد في الحديث الشريف أن سيدنا محمداً ﷺ قال:

"ما لي وما للدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها" (الترمذي، الزهد، ٤٤)

وإن نمط حياة الصحابة الكرام ﷺ، الذين عاشوا تحت تأثير التربية النبوية الشريفة، يجب أن يكون نموذجاً لنا وقدوة نتخذه دليلا في حياتنا ومعيشتنا. فكان اشتياقهم للدار الآخرة، وأملهم بأن يكونوا شهداء، إنما هي أمثلة يجب التوقف عندها والتأمل فيها.

فالصحابة الكرام ﷺ الذين تجرؤوا بجرأة الإسلام وقوة الإيمان كانوا يمرون من بين الجلادين وقطاعي الرؤوس دون الخوف منهم، ليصلوا إلى الملوك أو الحكام، ويقرؤوا عليهم رسالة رسول الله ﷺ بالدعوة إلى الإسلام. فقد كانوا يبدون وقد تلاشت الميول إلى الشهوات الدنيوية من عيونهم، وقد غمر حب الله ﷻوحب رسوله الكريم ﷺ أجسادهم ونفوسهم، حتى أصغر خلية من خلاياهم. وكانوا متعلقين بالنبي عليه الصلاة والسلام لدرجة أنهم حتى في الأوقات العصيبة التي يوجد فيها خطر الموت، كانوا يقولون له:



«فَامْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدُقٌ فِي اللِّقَاءِ. لَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ.» (ابن هشام، ٢، ٢٥٣-٢٥٤)

وفي فترة خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، صادف في طريقه مرة خبّاب بن الأرتّ رضي الله عنه - أحد أوائل المسلمين - فقال له:

«هلا حدثتني قليلاً عن التعذيب الذي عذبت به في سبيل الله ﷻ؟». فقال سيدنا خَبّاب:

«يا أمير المؤمنين.. انظر إلى ظهري».

وعندما نظر سيدنا عمر بن الخطاب إلى ظهره استعجب كثيراً، وقال: «لم أر في حياتي ظهر بشر شوه بهذا الشكل».

فتابع سيدنا خبّاب بن الأرت حديثه قائلاً:

«كان المشركون يشعلون النار، ثم يرمونني عارياً فيها. وكانت النار لا تنطفئ إلا بالدهن الذي يذوب من جسدي» (ابن الأسير، أسد الغابة، ٢، ١١٥).

وهكذا كان المشركون يعذبون المؤمنين بأشد ألوان العذاب دون رحمة في أوائل سنوات الإسلام. ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا أبدا أن يجبروا المؤمنين على أن ينطقوا بكلمات الكفر أو الشرك. لأن فرحتهم بالإيمان كانت تقضي على تأثير جميع أنواع وألوان



التعذيب الدنيوي الذي كانوا يتعرضون له.

وفي يومنا الحاضر، فإن قلق الناس في الدنيا، وخوفهم من الموت، ورغبتهم بالعيش سنوات طويلة، بهناء ونعيم أكثر، هو الشغل الشاغل لبني البشر. أما في الأجيال السابقة المباركة كجيل الصحابة الكرام ﭫ، فكان أكبر همهم هو أن ينتقلوا إلى الآخرة بقلب سليم، ووجه نقي، وضمير مرتاح.

قال ابن مسعود ﭬ يوماً لأصدقاء له من التابعين:

«أنتم أكثر صلاة وأكثر صياماً من أصحاب محمد ﷺ وهم كانوا خيرا منكم قالوا : و بم ؟ قال : كانوا أزهد منكم في الدنيا و أرغب منكم في الآخرة» (الحاكم، المستدرك، رقم: ٧٩١٧)

وهناك حادثة تعبر أيضا عن التضحية والتفاني بالنفس في سبيل الله ﻷ تحت تأثير الإيمان الكبير والمخلص. ففي تاريخ تركيا الحديثة، وفي حرب جَناق قَلْعة، عرض الجنود الأتراك نموذجاً رائعاً مشابهاً لما عرضه جيل الصحابة الكرام ﭫ، وذلك بقلوبهم التي امتلأت بالإيمان. فقد اعتبر هؤلاء الجنود المخلصون أن الدفاع عن الوطن هو دَيْن مقدس، لن يترددوا لحظة واحدة في تسديده بأرواحهم وأجسادهم. فتخلوا عن الدنيا وملذاتها وشهواتها، وحاربوا بكل ما ملكوا من قوة وسلاح ضد العدو الشرس.

ونحن بدورنا، علينا أن نتقيد بجيل الصحابة الكرام ﭬ وبجيل أجدادنا المباركين، فنمتلك القدرة على التخلي عن الدنيا وما فيها



عند اللزوم. وأن نؤمن بأن السير بدلالة نور سيدنا محمد ﷺ هو أفضل الأمور بالنسبة لنا وأعلاها شأناً.

وكان سيدنا محمد ﷺ يكثر من ذكر الجملة التالية:

"اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة" (البخاري، الرقاق، ١)

وعلينا بكوننا أمة الحبيب المصطفى ﷺ أن ننقش هذا الدستور على قلوبنا وصدورنا. وعلينا أن نذكر قوله عليه الصلاة والسلام كلما حصلنا على نعمة فانية فنردد ونقول:(اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة). شاكرين صاحب هذه النعم الحقيقي. وأن نتجنب الفحشاء والمنكر والبغي، لأن من يحرم قلبه من هذه الحساسية، فيخبرنا الله ﷻ عن حالته التي سيؤول إليها. فورد في الآية الكريمة:

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ (الرعد، ٢٦)

ويجب علينا أيضا بكوننا مؤمنين، إذا وقعنا في مصيبة أو ابتلينا ببلاء أن نذكر قول رسول الله ﷺ: (اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة). آملين بذلك أن نحافظ على توازن أرواحنا ومتانتها بالرضى والتسليم والصبر والتوكل. وأن نلجأ دائماً إلى ربنا ﷻ، وأن نعيش حياتنا العبودية في نشوة الطمأنينة والسكينة. وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ (النساء، ٧٧)

وقد بين الله ﷻ في القرآن الكريم حقيقة الحياة التي يظن



بعض الناس أنها طويلة ولن تنتهي، فيعيشون فيها غاوين عاصين، بأنها في الحقيقة عبارة عن فترة زمنية قصيرة جداً. حيث ورد في الآية الكريمة:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ (النازعات، ٤٦)

لذا فإن أفضل وأحكم عمل يقوم به العبد في هذه الحياة الدنيا القصيرة، هو العبودية الجيدة لله ﷻ. ولكن وكجميع النعم الأخرى، فإن نعمة الحياة أيضاً لا يحس الناس بقيمتها إلا بعد أن تزول ويفقدوها. وإن الوسيلة الوحيدة لإزاحة ضباب الغفلة العامة عن مفهوم (الزمان) هو: (التفكر بالموت). ويذكرنا بذلك الشاعر التركي الكبير نجيب فاضل قيصه في هذا البيت الشعري الرائع:

إن الزمان هو لباس المجنون، ولا يمزقه إلا الموت

والزمان في الموت قطعة واحدة، لا انقسام فيه ولا انقطاع

وقد عكس أجدادنا العثمانيون الذين عجنت أرواحهم وقلوبهم بالإيمان والتقوى، هذه الحقائق على مقابرهم. فزرعوا أشجار السرو والصنوبر، التي لا تتساقط أوراقها في فصل الشتاء، لكي يعبروا عن أبدية الآخرة في المقابر التي تذكر بزوال الحياة الدنيا وفنائها.

وإن نصيحة لقمان الحكيم في خصوص الحصول على الوعي الكافي لإستيعاب مفهوم الآخرة، هي نصيحة مليئة بالحكم والمواعظ، حيث قال:

«يا بني.. افد دنياك مقابل آخرتك، فتكسب كلاهما. وإياك أن تفدي آخرتك بدنياك، فتخسر كلاهما».



وفي الحقيقة، فإن الحياة الدنيا والآخرة ككفتي ميزان. إذا وضعت وزنا في إحدى الكفتين، فسوف ترجح على الأخرى.

وعلى كل المؤمنين أصحاب العقل والقلب السليم، أن تميل قلوبهم دائماً باتجاه الآخرة. لأن من يخدع بشهوات الحياة الدنيا ونعمها الفانية، ويصبح أسيراً لملذاتها الفارغة، ويسعد بذلك، فإن التفكير بالآخرة سوف يهجر قلبه. أما إذا ترسخ صوت الدعوة للآخرة في النفوس والصدور، فسوف يستوحش العقل ويستبعد فكرة الدعوة إلى الحياة الدنيا.

علاج قسوة القلوب

إن الكثير من المتاعب والهموم النفسية وقسوة القلوب التي نعاني منها في يومنا الحاضر، سببها هو نسيان الآخرة، والإهتمام بهموم الدنيا، والإنخداع بملذاتها وشهواتها المؤقتة. وهكذا فإن كثيراً من الفقراء يعيشون بشراهة التفكير بأن يكونوا أغنياء، وكثير من الأغنياء يطمعون في أن يزيدوا على غناهم غنى، ويكسبوا أكثر مما يكسبون. وبذلك يكون الغني والفقير كلاهما قد سببوا في بداية الأمر الأذى لأرواحهم ونفوسهم بأيديهم. فتغر نفوسهم بهناء الحياة الدنيا التي رصعت وزينت بالزينات الفانية والمؤقتة، دون أن يفكروا بأموالهم من أين اكتسبوها وكيف. وينسون بأن الغنى الحقيقي والرئيسي هو القناعة، فهي الكنز الذي لا يفنى.



وورد في الحديث الشريف أن سيدنا محمدا ﷺ قال:

"مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ" (الترمذي، صفة القيامة، ٣٠/ ٢٤٦٥)

فهذه هي الوصفة الطبية النبوية لإدخال السرور والسعادة والطمأنينة للقلب، ولمنح الروح الإنشراح والراحة المعنوية.

عن ابن مسعود ﷺ قال : تلا رسول الله ﷺ: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام } فقال رسول الله ﷺ: إن النور إذا دخل الصدر انفسح فقيل : يا رسول الله هل لذلك من علم يعرف ؟ قال : نعم التجافي عن دار الغرور و الإنابة إلى دار الخلود و الاستعداد للموت قبل نزوله (الحاكم، المستدرك، رقم: ٧٨٦٣).

ليس الذنب ذنب الحياة الدنيا

إنما ذنب من خُدع بها

لقد جعل الله ﷻ المصالح الدنيوية التي تعجب بها النفوس وتغر بها، وسائل ليمتحننا بها. وإن حال من انجذب لشهوات الحياة الدنيا الفانية، ونسي مسؤوليته في دفع بدل نعمة الإيمان، هو كحال السمكة التي علقت في صنارة الصيد. حيث أن تلك السمكة قد



انخدعت بالطعم الذي رأته. ولكنها لم تر تلك الصنارة التي اختبأت خلف ذلك الطعم. وهكذا، فإن من نسي أن الحياة الأساسية هي الآخرة، فلن ينجو من الوقوع في كمائن الحياة الدنيا.

وإن الوسيلة الفعالة لتجاوز هذه الإمتحانات الإلهية بسلامة وأمان، هي أن يكون بمقدور الإنسان أن يرى الوجه الداخلي والحقيقي للمصالح الدنيوية، وأن يستطيع أن يستشعر بـ (سر الإمتحان). مع العلم أن هذه الإمتحانات قد أوقعت الكثير من الناس في حفرتها، وأزلت أقدامهم عن الطريق الصواب، وفرقت مطالبهم وإرادتهم. والشرط الأساسي للتحلي بهذه الفراسة، هو أن نتجاوز الكمائن الدنيوية الجذابة، كالثروة والشهوات، وحب الشهرة وحب المال، وأن نكون متيقظين لها في كل الأحوال والظروف، وأن نكون قادرين على تفضيل سلامة الآخرة عليها.

وقد نبهنا الله ﷻ في هذا الخصوص، فورد في الآية الكريمة:

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(الأنفال، ٦٧)

والغنى الذي يمتلكه الإنسان يبقى صديقاً لصاحبه ولا يفارقه حتى وصوله إلى القبر. والشيء الوحيد الذي يستطيع الإنسان أن يصطحبه معه ظاهرياً إلى القبر هو الكفن، أما باطنياً، فإنه يصطحب



معه إيمانه وعمله، وسيدخلان معه إلى قبره. وبناء على ذلك، فيجب على الإنسان أن لا يعتمد على ثروات الحياة الدنيا الخداعة والخائنة، وأن لا يُخدع بشهواتها المؤقتة والفانية.

ويروى أن سيدنا ذا القرنين ﵇، الذي حكم الدنيا من مشرقها إلى مغربها، بفضل الغزوات التي كان يقوم بها، أنه قد نصح بهذه النصيحة قبل وفاته:

«غسلوني، وكفنوني، ثم ضعوني في تابوت، ولكن دعوا ذراعي تتدلى على جنبي التابوت. وليتبعني خدمتي. وحَمّلوا خزائني وثرواتي على البغال. وليرى الناس أجمعين أني أذهب فارغ اليدين، على الرغم من كل ما كنت أملك في الحياة الدنيا من أموال وثروات. وأن خدمي وماشيتي وأموالي سيبقون في هذه الحياة، ولن يأتوا معي إلى القبر. ولكي لا ينخدعوا وينغرُّوا بهذه الدنيا الكاذبة والخائنة ».

وقد شرح العلماء هذه النصيحة والوصية على النحوالتالي:

«لقد كانت الدنيا بأكملها من مشرقها إلى مغربها تحت إدارتي وتصرفي. وامتلكت عددا لا يحصى من الكنوز والثروات. ولكن نعم الدنيا ليست باقية. فكما ترون، فإني أذهب إلى القبر فارغ اليدين، ويبقى مال الدنيا في الدنيا. فاحرصوا على الأعمال التي ستفيدكم في الآخرة».



وقد نصحنا سيدنا محمد ﷺ بهذه النصيحة الحكيمة، حيث قال كما ورد في الحديث الشريف:

"أوصيكم بخمس خصال ليكمل الله لكم خصال الخير لا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تنافسوا فيما غدا عنه تزولون واتقوا الله الذي إليه تحشرون وعليه تقدمون وارغبوا فيما إليه تصيرون وفيه تخلدون" (علي المتقي، كنز العمال، ص: ١٣٦٣)

وبالنتيجة، فإن توجيه التهم للحياة الدنيا بعد أن نفهم أننا انخدعنا بمظاهرها، فإنه عمل لا جدوى منه ولا فائدة. ولا يضر الإنسان إلا نفسه إذا انشغل بنعم الدنيا وملذاتها الفانية، بدلا من أن يدخل في حياة الإيمان والفضيلة. وكم هو حزين أن يهدر الإنسان مستقبلا أبديا في سبيل الآمال اللامتناهية وحب الأمور الفانية والآنية والملذات التي ستزول. ويجب علينا أن نفكر دائما ونتأمل في أنه لا مكان ولا زمان يمكن أن نهرب إليهما من الموت في الحياة الدنيا. ولا شيء في القبر يمكننا من العودة إلى الحياة الدنيا. ولا ملجأ يمكننا أن نلجأ إليه هاربين من شدة يوم القيامة.

اللهم ثبت أقدامنا في كل الامتحانات التي نواجهها في حياتنا، كما ثبتّ أقدام أهل التقوى وأصحاب الفراسة والبصيرة الحكيمة، والذين



استطاعوا الحفاظ على إخلاصهم وصدقهم في كل الأحوال والظروف.

واجعلنا اللهم من عبادك الصالحين الذين أريتهم الوجه الحقيقي للحياة الدنيا ولمتاعها.

وهْبنا اللهم الحكمة والعقل السليم الذي يمكننا من العودة إلى الآخرة وهجْر الدنيا وملذاتها في جميع الظروف والأحوال، بكرمك ولطفك ورحمتك يا أرحم الراحمين... آمـــين





الفهرس